الأمير شكيب أرسلان

عروة الاتحاد بين أهل الجهاد

الدار التقدمية

عروة الائتلاف
بين
أهل الجهاد

الأمير شكيب أرسلان / عروة الاتّحاد بين أهل الجهاد

قدّم له:

د. رضوان السيّد

إشراف وتحرير:

د. سوسن النجّار نصر

الدار التقدّمية

المختارة - الشوف - لبنان

هاتف: ٩٦١-٥/٣١٠٠٥٥ - ٩٦١-٥/٣١١٥٥٥

E – mail: moukhtarainf@terra.net.lb

http : //www.daraltakadoumya.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

الأمير شكيب أرسلان

عروة الاتِّحاد بين أهل الجهاد

قدّم له

د. رضوان السيّد

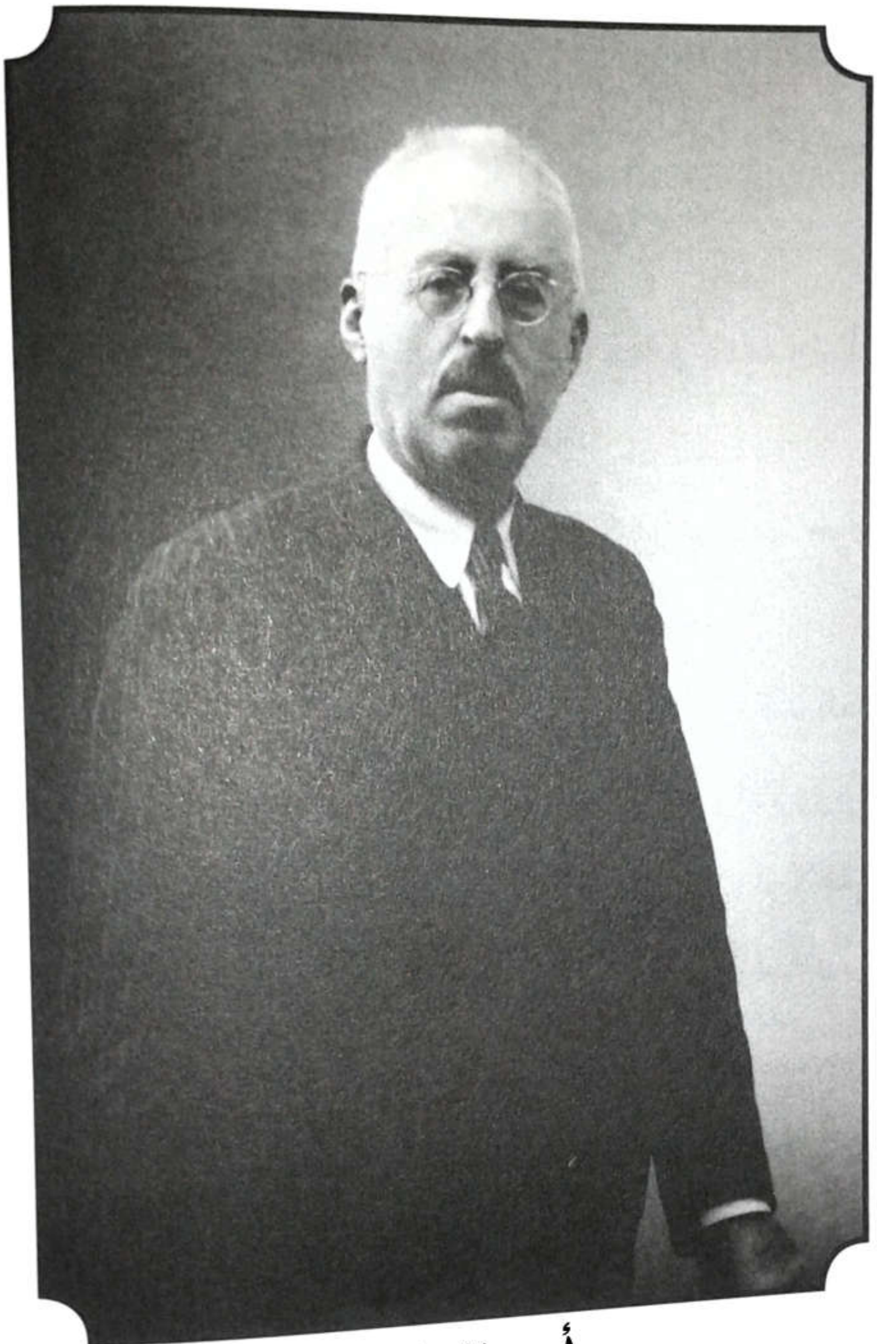
إشراف وتحرير

د. سوسن النجّار نصر

كلمة لا بدّ منها

إنَّ هذا التراث القيِّم مدين بالتنقيب عنه وجمعه وتنظيمه
إلى الأساتذة:
المرحوم الدكتور يوسف إيبش، والدكتور يوسف خوري،
والمحامي الأستاذ توما عريضه،
الذين لم يتوانوا عن شقّ المسافات الطوال وتكبُّد العناء
في السفر إلى أقطار عدّة في البلاد العربية والأوروبية
بحثًا واستقصاءً عن تلك المآثر المجيدة، التي، لولاهم،
لكانت ذكرى أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان،
طيّ النسيان والضياع.
فلهم دائم العرفان لِما بذلوه من تضحيات في سبيل جمع
هذا التراث ونقله.

الدار التقدّمية



أمير البيان
الأمير شكيب أرسلان

مقدّمة الناشر

قد يتساءل بعضهم عن الأهمّية التي يحتلّها الأمير شكيب أرسلان في التاريخ العربي والإسلامي، بعد أن ضجّت كتب التأريخ والتوثيق بأسماء لامعة كان لها صولات وجولات في إعلاء كلمة الإسلام، وتحديد مفهوم العروبة الحقيقي، كالإمام محمّد عبدو، وجمال الدين الأفغاني وغيرهما كُثُر.

وقد يتساءل بعضهم أيضًا عن هذا الإصرار في رسم ملامح شخصية أُهمِلَ ذكرها نوعًا ما في عصرنا الحاضر، عازين الأهمّية التي اكتسبتها إلى واقع العائلة التي تنتمي إليها، والتي شاء القدر أن تكون فاعلة في مسار التاريخ والوطن، اللبناني، والعربي.

وللإجابة عن هذين التساؤلين، ليس لنا سوى أن نعرض لما ذكرته الوقائع، وما حملته الذاكرة في هذا المؤلَّف القيِّم الذي يروي جهادًا إنسانيًّا فذًّا، وإرادة فولاذية تحدّت الصعاب في سبيل ما يمليه الحقّ، والواجب، على صاحبه، عبر جمعٍ لما فاضت به سنوات من نضال في سبيل تثبيت العروة الأصيلة بين أبناء العرب.

لم يكن الأمير شكيب أرسلان، اسمًا مضافًا إلى قافلة من المناضلين بشكل عابر أو إرضائي، تبعًا لما يمثّل، بل لقد استطاع الأمير شكيب أن يثبت نفسه رقمًا صعبًا في معادلة صعبة كانت قائمة آنذاك، إذ وجد نفسه لاعبًا في زمن اللاعبين الكبار الذين تجسَّدت أفكارهم ومخطّطاتهم واقعًا استعماريًّا، واحتلالاً تكتيكيًّا ضيَّق الخناق على دويلات صغيرة بالمساحة، كبيرة بنفوس شعوبها التي كانت لا تلوي من معيشتها إلاّ على تحصيل الحرّية وإثبات الوجود، كإنسان له حقوق اعترفت بها الأمم مجتمعة، ومن ضمنها تلك التي تمارس إرهاب الاستعمار عليها.

لقد شقَّ على أمير البيان، هذا اللقب الذي استحقّه عن جدارة، أن يرى أمّته تعاني، وأن يلمح طيف الاستبداد وقد أنزل بأبناء جلدته ألوان العذاب والقهر والاضطهاد، فجنَّد نفسه، راضيًا مَرْضيًّا، ليكون رسولاً ناطقًا بإسم هذا القوم من بني الإنسان، جُلَّ خطيئتهم كان أنهم ينتمون إلى هذا المشرق، وأنهم يرفعون لواء الإسلام.

ناضل الأمير شكيب أرسلان في سبيل قضية عادلة، واستبسل في النضال. وإن أحجمت بعض الحافظات القصيرة في التاريخ الحديث عن ذكره، إلاّ أنها لا يمكنها أن تختزل ما قام به هذا الأمير خلال سنوات طوال، تحمَّل خلالها إبعادًا قسريًّا عن وطنه لبنان، واسترخص كلّ الأثمان مهما غلت، من خلال ترؤسه لأعمال الوفد السوري الفلسطيني الذي جال العالم الغربي فارضًا قضيّته حتَّى نال ما تمنّى من استقلال.

الأمير شكيب أرسلان ليس مجرّد اسم طوته السنون، بل هو رمز، لبناني، وعروبي، وإسلامي، لنا كلّ الحقّ، وعلينا كلّ الواجب، بالاعتزاز به.

الدار التقدّمية

في، ١٣ نيسان ٢٠٠٩

جهاد الأمير شكيب أرسلان في سبيل حرّية العرب

تقديم بقلم الدكتور رضوان السيِّد

هذا الكتاب في الأصل هو مجموعة مقالات للأمير شكيب أرسلان، نُشرت في الصحف العربية في المشرق والمغرب، أو ديار الاغتراب (بين ١٩٣٩ و١٩٤١). وقد قام صاحب جريدة «العَلَم العربي» بجمع تلك المقالات، وأعطاها عنوان: «عروة الاتّحاد بين أهل الجهاد»، والمعنيُّ بذلك جهاد الأمير شكيب أرسلان من أجل حرّية العرب، وخروجه من أَسْر المستعمر الأجنبي. وعندما كتب الأمير هذه المقالات كان مقيمًا بجنيف في سويسرا، لمعارضته للاستعمارين الفرنسي والبريطاني، وعمله الدؤوب من أجل إزالة الانتدابات. أمّا المقالات، فتتضمن أربعة موضوعات:

- الحملة على الاستعمارَين الفرنسي والبريْطاني.
- إيضاح الخطوات التي قام بها، وقام بها المجاهدون العرب الآخرون لإخراج المستعمرين.
- الدفاع عن نفسه في مواجهة الاتهامات التي كانت تقول إنَّه عميلٌ ألماني أو إيطالي.
- وهذا فضلاً عن استطرادات كثيرة تتعلَّق بموضوعاتٍ شتّى، أقلّ أهمية.

وما بدأ الأمير شكيب أرسلان اتصالاته وتحرّكاته ضدّ المستعمرين خلال الحرب الثانية، بل في مطلع العشرينيَّات. ومن يقرأ سيرته الذاتية يدرك ارتباطه الوثيق بالدولة العثمانية ورجالاتها الكبار. وقد كتب أرسلان عن أنور وطلعت وجمال في مذكّراته كتاباتٍ لا تُنسى، لدقّتها وعذوبتها في الوقت نفسه. وقد كان من الطبيعي، ما دام المحتلّون للبلاد العربية بعد سقوط العُثمانيين هم من الفرنسيين والبريطانيين الذين

حكموا سورية ولبنان والعراق بعد الحرب الأولى، أن يكونَ أرسلان شديد العداء لهم. وهو يَقُصُّ في صفحاتٍ مبسوطة جهاده ضدَّهم من أجل "حرّية العرب"، كما قال. وقد كان الأمير يعتقد أنَّ العرب يمكنهم أن ينالوا حريّتهم من طريق المهارة في اللعب على التناقُضات بين المتصارعين. والمقصود بالتناقُضات، الصراع على النفوذ والموارد والأراضي بين إنجلترا وفرنسا من جهة، وإيطاليا وألمانيا من جهة ثانية.

وقد زار الأمير شكيب روما عام ١٩٣٣ أو ١٩٣٤، لسببين: استحثاث موسوليني على الكفّ عن الفظائع ضدّ الليبيين الذين كانوا يقاتلون السلطة المحتلّة، والاستعانة به ضدّ الفرنسيين والبريطانيين. ويعتقد جامع المقالات وناشرها أنَّ الأمير نجح في المهمَّتين! لكنَّ خصومه من الفرنسيين وعملاءهم ـ على حدّ تعبيره ـ اتّهموه بالقبض من موسوليني لبيع قضيّة الجهاد الليبي. وهو شديد الغضب من أجل ذلك. لكنْ، هناك شائعات متداولة في صحف ومجلاّت ذاك الزمان أنَّ الرجلين اللذين كانا معه عندما قابل الدوتشي أخذا مبلغًا من المال من الديكتاتور الإيطالي، لعمل دعايةٍ له بين العرب. وما كادت تخمد الضجّة عن تلك الزيارة حتّى كان الأمير أرسلان يذهب إلى برلين. ونعلمُ الآن ـ من واقع الأرشيف الألماني ـ أنَّ أرسلان كُلِّف بترجمة "كفاحي"، كتاب هتلر الشهير، إلى العربية، وتقاضى مبلغًا عن ذلك؛ لكنّنا لا نعرفُ إن كان قد أكمل الترجمة أم لا. وعندما نشبت الحرب الثانية كثُر تردُّد العرب المنزعجين من السيطرتَين الفرنسية والبريطانية على برلين. فظهرت من جديد الضجّة ضدّه وضدّ الحاج أمين الحسيني الذي أقام ببرلين خلال الحرب. والواضح أنَّ الرجلين كانا يريدان أن يجلو الفرنسيون والبريطانيون عن الأراضي العربية المحتلّة، وهما يعتقدان أنَّ المستقبل لألمانيا! وليس بعيدًا أن يكون الأمير والحاج قد حصلا على بعض النفوذ بالدوائر الوسطى في النظام النازي؛ ويدلّ على ذلك البيان الذي أصدرته وزارة الخارجية الألمانية عن حرّية العرب واستقلالهم وحقّهم في تقرير مصيرهم، عام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠. وبغضّ النظر عن طبيعة العلاقة بين الرجل والنظامين، فإنّهما ما انتصرا، بل انهزما وعادت المطاردة ضدّ الأمير شكيب

والحاج أمين، أو أنها استمرَّت. وما استطاع الأمير شكيب العودة إلى لبنان إلاّ عام ١٩٤٦، أي قبل وفاته بشهور.

والمقالات المجموعة في هذا الكتاب هي عن سنتين (٣٩ و٤٠) وحسْب. ولا شكَّ أنّ الأمير استمرَّ في كتابة يوميَّاته بشكلٍ مستدام، لكنّ صاحب الجريدة (جريدة العَلَم العربي) توقَّف لسببٍ لا نعرفُه، عند العام ١٩٤١. وتظهر في الرسائل والمقالات أحداث وذكريات تعودُ لعشرين سنةً، وأكثرها يوردُها الأمير من الذاكرة، ولذا يكثُر فيها السهو، والروايات الشفوية. لكنَّ الأمير له عادةٌ معروفةٌ في التأكيد على الموضوع أكثر من مرّة. ولذا، فيمكن استخدام كتبه في تصحيح بعض ما ورد في الرسائل التي بين أيدينا.

وفي الخلاصة، فإنَّ نشر رسائل ومقالات الأمير شكيب أرسلان خلال الحرب، هو عملٌ مفيدٌ جدًّا لتبيان غموض بعض الأحداث، ولأخذ فكرة كيف كان المعنيّون بالشأن العامّ يعملون من أجل إجلاء القوَّات الأجنبية. وفي كلّ الأحوال، فالثابت لدى الأمير أنَّ أكثر الفِتَن في ديارنا هي من صناعة الأجانب، وأنَّ العرب لو تُركوا لأنفسهم لظلّوا خيرَ أمةٍ أُخرِجت للناس.

د. رضوان السيّد

بيروت، في ٢ نيسان ٢٠٠٩

صفحة جهاد عبقرية من أعمال الأمير شكيب أرسلان

بقلم العلاّمة الفهّامة، المجاهد الكبير الدكتور في جامعة برلين الشيخ تقي الدين الهلالي*

لا أريد أن أعرّف القارئ الكريم بالأمير شكيب أرسلان، لأنه لا يوجد قارئ عربي لا يعرف الأمير، ولا يجهله من الأمّيين أيضًا، إلاّ القليل. ولا أريد أن أكتب مقالاً لبيان جهاد الأمير الأرسلاني كلّه، فهو بحر زخّار لا ساحل له؛ وإن أمكن إحصاؤه فهو يحتاج إلى مجلّدات. على أنَّ حفظة اليمين السفرة[1] الكرام قد أحصوه ولم يغادروا منه شاذّة ولا فاذّة، وسيجده أمامه عند الله ويجزيه عليه خير الجزاء يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا ألقاب ولا حظوة عند المستعمرين إلاّ مَن أتى الله بقلب سليم. وإنّما أريد أن أتطفّل على مائدة هذا السيِّد النبيل، فأكتب كلمة تقدّم بين يديّ نجواه، وهي صفحة جديدة باهرة من صفحات جهاده. وهذه الصفحة الخالدة التي سجّلت في السماء قبل أن تسجّل في الأرض، تتميّز بمزيّة وتختصّ بخاصيّة عظيمة من بين صفحات جهاده المجيدة؛ ذلك بأنها وقعت في وقت عصيب خشعت فيه الأصوات، وكُمِّمت الأفواه، وعنَّت الوجوه للصوص الاستعمار، وتكسّر اليراع، وقبع كلّ كاتب وخطيب وكلّ سياسي ورئيس بالغة مرتبته ما بلغت، كلّهم قبعوا في عقر ديارهم واختبأوا في كسور بيوتهم. أعني بذلك مَن بقي في وجهه حياء منهم، ومَن بقي عنده شيء من الإيمان والمروءة، وربأ بنفسه إذ ينزل بها إلى دركة كلاب الأعداء النابحة أممها وأهاليها لنيل عظم يلقيه إليها الأعداء. فسحقًا لأصحاب السعير.

---

* دكتور في جامعة برلين.

(1) السفراء.

تلك الصفحة هي المقالات الخالدات خلود الجبال الشامخات. لقد كان الأمير شكيب، أدام الله بقاءه وبارك فيه أمّة، قانتًا لله حنيفًا، ولم يَكُ من المشركين، شاكرًا نعمه، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم كما قال الله في إبراهيم، وكما قال أبو الدرداء في معاذ بن جبل. وهذا وصف صحيح للأمير في كلّ وقت من أوقات عمره المبارك، ولكنّه في هاتين السنتين الأخيرتين، سنة ١٣٥٩ وسنة ١٣٦٠، صار أظهر من الشمس في رابعة النهار ولم يبقَ فيه لمكابر مجال، لأنَّ ميدان الدعوى قبل هذه المحنة كان واسعًا. ولمّا جاء زمن الامتحان وابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدًا، وقال المنافقون والذين في قلوبهم مرض: ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غرورًا. هناك ثبت الأمير وكان أما[1] مارقًا ندًّا للرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ولم يفتّ في أعضادهم وعِيْدُ المجرمين المستعمرين المخرّبين للبلدان العربية والإسلامية، قاتلهم الله أنّى يؤفكون وإلى متى يأفكون. لم توهنه الغربة وقسوة الزمان وخذلان القوم والخلاّن. ولم تَلِن قناته لعواء ذئاب الاستعمار وتهديدهم. ذلك أنه باع نفسه من الله بيعًا لا إقالة فيه، فنال بذلك أعلى الدرجات عند الله والذين آمنوا.

وقد انتدب لهذه المقالات الأديب المجاهد السيِّد عبد اللطيف الخشن، نزيل أميركا الجنوبية وصاحب جريدة "العلم العربي" المنصور. فجمع شملها وعزم على طبعها مجتمعة في مجلّدين لتبقى شهادة خالدة على انتصار الأمير النابغة للحقّ في هذا الوقت العصيب الذي قلّ فيه ناصره وكثر خاذله، بل كاد المتكلّمون والكاتبون الكاذبون من العرب والمسلمين، بزعمهم، يجمعون على الباطل لولا أنَّ لله عند كلّ مكيدة كيد بها الحقّ أنصارًا يردّون كيد الكائدين، ويدحضون تحريف المبطلين، ويفتحون أعين الجاهلين. وكما قال محمَّد رسول الله (ﷺ): "لا تزال طائفة من أمّتي قائمين على الحقّ لا يضرّهم مَن خالفهم ولا مَن خذلهم حتّى يأتي أمر الله".

ولئن خصّ الله الأمير الجليل بفضيلة إمامة المجاهدين والصدع بالحقّ كلّه خالصًا عريانًا في هذه المحنة، فقد وفّق الله المجاهد السيِّد عبد اللطيف الخشن للمساهمة في هذه

(١) بمعنى "حقًّا".

المزيّة العظمى بجمعه هذه الدرر النفيسة وحفظها من الأفول والتلف، وتخليدها ليعمّ نفعها الأجيال الآتية فتبقى حجّة لله على العالمين. فأهل الحقّ في هذا الزمان وفي الآتي يشكرون لهذا السيِّد الجليل هذه المأثرة، والله يجزيه عليها أحسن الجزاء.

ومن خصائص هذه المقالات التي هي كالسيوف الصوارم، أنها لا تخصّ قومًا دون قوم، ولا بلدًا دون بلد، ولا عدوًّا دون عدوّ؛ فهي تدافع عن حقوق العرب والمسلمين في الشرق والغرب وتغبِّر في وجوه المعتدين أيًّا كانوا. ولولا هذه المقالات وما تبعها من جنودها، لتَمكّن أعداء الحقّ من قلب الحقائق وطمسها بما بذلوه من الأموال والقوى التي تهدّ الجبال، ولا سيّما وهم دول عظيمة لهم ممالك لا تغرب الشمس عنها، ولهم ملايين الألسنة والأقلام ومئات الإذاعات وآلاف الصحف والمجلاّت، ولهم الصولة والدولة والهيبة. فوقف في وجوههم رجل واحد غريب وحيد لا يملك إلاّ إيمانًا متينًا، ولسانًا طليقًا، وقلبًا ذكيًّا، وأنفًا حميًّا، فأحبط أعمالهم ونقض أقوالهم ومحا ضلالاتهم. غير أنّ انقطاع البريد والسدود التي ضربها أعداء الإنسانية والعرب والإسلام ـ أخزاهم الله وأضلّ أعمالهم ـ حالت دون انتشار تلك المقالات ووصولها إلى كلّ مَن هو محتاج إليها، ولو اقتصر على نشرها في صحف الجهاد العربية الصادرة في أميركا، وهي ممنوعة من الوصول إلى البلاد العربية المحاصرة لقلّ النفع بها. فكان لذلك جمعها ونشرها واجبًا وضربة لازب. ولا سيّما وقد قدر أعداء العرب والإسلام أن يجدوا في العرب الساكنين في أميركا بعض الأوباش الذين رضوا بالخيانة وقبلوا أكل السحت والرشوة من المجرمين، وصنعوا لهم جرائد عربية اللغة تحارب الحقّ والعرب والإسلام. وأخذ الأعداء يذيعون ما تنشر لهم وينشرونها في البلدان العربية والإسلامية ليحاربوا بها صوت الحقّ ويعمّموا الجهل والظلام. فقد سمعت في إذاعة لندن باللغة العربية أسماء جرائد عربية منها ما يسمّى الأحرار، وهذا من باب تسمية الليل نهارًا والأسود أبيض والظلام نورًا؛ فكيف يكون حرًّا مَن يعين المغتصب على استعباد بلاده وقومه، وتقتيل الأنفس، وتخريب الديار، واسترقاق الأمّة كلّها وبيع أرض العرب من الأرجاس اليهود عبَّاد العجل وشرّ الخلائق. ولكن ذلك لا يضير الحقّ شيئًا؛ فأمّا الزبد، فيذهب جفاء، وأمّا ما ينفع

الناس فيمكث في الأرض. فبيان أمير السيف قد دحض أباطيلهم، بل نقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، وقد وضح الحقّ وصار كيد المستعمرين وأشياعهم في تضليل.

ومن مزايا هذه المقالات التي لا يشاركها فيها مشارك، أنها كشفت عن مظالم لم تزَل مخفاة، مضروب عليها حجاب عظيم، ألا وهي مظالم أهل المغرب المعذّبين، فقد أزاح الأمير الجليل، بارك الله عليه، النقاب عن إجرام فرنسة[1] وآثامها في شمال أفريقية التي تكاد السماوات يتفطرن منها وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هدا. فنشكر الأمير على كشف تلك المظالم والوقوف في وجه فرنسة وهي في أشدّ جبروتها، إن كان شكره على ذلك واجبًا على كلّ محقٍّ وعلى كلّ مسلم وعربي، فإنّه على أهل المغرب أوجب. ولذلك لا نرتاب في أنَّ هذين المجلّدين النفيسين يتلهّف إلى اقتنائهما كلّ مسلم وكلّ عربي، ولا سيّما أهل المغرب. إنَّ أهل المغرب الذين لا يزالون يعانون ظلم الضعيف يشكرون للأمير، وللناشر، هذه الهمّة العالية، ويتلقّون هذا العمل المبرور بغاية الارتياح. وإنّي بهذه المناسبة، ألتمس من إخواننا المجاهدين في أميركا أن لا يغفلوا عن إخوانهم في المغرب، ومرادي بالمغرب من برقة إلى الحدود الفاصلة بين شنقيط وسنغال، وأن يكشفوا ما يمكنهم من مظالم إخوانهم التي لا تزال كما كانت أو أشدّ، ولا يظنّون أنَّ هزيمة فرنسة قد كانت خاتمة لعذاب إخوانهم في المغرب، فإنَّ سفك الدماء ونهب الأموال والتعذيب والاستعباد لا يزال ضاربًا أطنابه في المغرب. وقد فصل الأمير، أيّده الله، القول في اعتداء فرنسة الخئون على أرواح المغاربة وسوقها في هذه الحرب المشؤومة عليها قبل غيرها ألف ألف وثلاثمئة ألف، قُتِلَ منهم من قُتِلَ وأُسِر منهم من أُسِرَ. وكانت نفقات الحرب، أو قسم عظيم منها، نُهبا، نهبته فرنسة من المغرب العربي المسلم. أمّا في هذا الزمان، وقد هُزمت فرنسة وقطعت حبالها وشالت نعامتها، فإنّها فرضت على المغرب المسكين أن يدفع قيمة ذلك. معلوم أنَّ جرمانية[2] فرضت على فرنسة، من جملة شروط الهدنة، تأدية نفقات الجنود الجرمانيين المرابطين في بلادها جزاء، وفاقًا على بعض ما عاملتها به في الحرب الماضية. هكذا فعلت

---

(١) فرنسا.

(٢) المقصود بها ألمانيا، وهي تسمية تعود إلى العرق الجرماني المتواجد في تلك البقعة من أوروبا. (المحقّق)

جرمانية بفرنسة، فنظرت فرنسة يمينًا وشمالاً فلم ترَ إلاّ المغاربة، فاضطرّتهم إلى أن يدفعوا لها ما فرضته عليها جرمانية أو جلّه. فقد صرّح الراديو الفرنسي أنّ المغرب الأقصى دفع وحده عشرين مليونًا سمّاها نوكيس الطاغية المستبدّ في المغرب، أراحهم الله منه، إعانة الشتاء لفرنسة المنهوكة. مع أنّ أهل المغرب منهوكون أكثر من فرنسة، فقد شاركوها في نكبتها وزادوا عليها بنكبات لأنهم مستَعْبَدون، يُحكَمون بالقهر والجبر ولا يملكون مع قاهرين مالاً ولا رجالاً. هذا مع أنّ أهل المغرب أصابتهم سنة مسغبة في عام ١٣٥٦، فمات منهم مئات الألوف، وخلت نواح بأسرها في الجنوب الشرقي. وكان الفرنسيّون واليهود يأكلون من أرزاق المغاربة أكل الأنعام، ويحشرون الجياع من المغاربة في معتقلات حتّى يموتوا لئلاّ ينغّص عليهم عيشهم منظرهم الذي تتقطّع له الأكباد.

هذه لمحة لِما أصاب المغاربة ويصيبهم حتّى الآن، ولم يزل الأمير الجليل أبو غالب، أيّده الله، يذبّ عنهم كما يذبّ عن أهله الشاميين بدون فرق. فأين مثل هذا الرجل الفذّ الذي ادّخره الله لهذا الزمان الذي هو شرّ الأزمان على العرب والمسلمين ليكون أمّة وحده، وليحقّ به الحقّ ويبطل به الباطل ولو كره المجرمون؟!

إنّ مقالات الأمير البليغات ستكون بلا ريب عمدة الباحثين الذين يريدون أن يعرفوا رأي العرب والمسلمين حقًّا، وما يجيش في أنفسهم أينما كانوا تحت كلّ نجم. فإنّه، حفظه الله، عبّر في مقالاته بما يشعر به كلّ عربي وكلّ مسلم؛ حفظه الله من الخيانة والردّة وبيع نفسه من الأعداء ودينه وقومه بثمن بخس.

وما أروع ما قاله في إحدى هذه المقالات: «لو لم يبقَ في الدنيا كلّها إلاّ رجل واحد يقوم بواجب الدفاع عن الدين والوطن ويصدع بالحقّ، لكنتُ أنا ذلك الرجل»، أو كما قال رعاه الله وأمتع به. فهذه الكلمة التي عبَّر بها عمّا تشعر به نفسه العظيمة، جمعت معاني يستغرق شرحها أسفارًا، بل أتجرّأ وأقول إنّها تشير إلى جميع ما ورد في القرآن الكريم والسنة وأشعار العرب ورسائلهم في الحماسة والإباء والشمم والأنفة وحمي الحمى. وواجب على الأمّة العربية أن يشعر كلّ واحد منها بهذا الشعور، وأن يقول

بقلبه ولسانه معزّزًا ذلك ببرهان الأفعال؛ لم يبقَ إلاّ واحد يحارب أعداءنا الذين ثلّوا عروشنا وهدّموا مجدنا واتّخذونا عبيدًا وخولاً إلاّ واحدًا، لكنت أنا ذلك! وكما قيل في المثل "أنا ونصف ناقتي". حقًّا، إنَّ وجود هذا الرجل الشهم الذي تأخّر وجوده هو نعمة من الله على هذا الجيل الذي غلب شرّه على خيره؛ بل هو حجّة الله على الناس. وحَسْب كلّ مجاهد حرٍّ أن يتشرّف بالاقتداء به والنسج على منواله. نعم، هو حجّة الله على خلقه في زمان غير زمانه وفي جيل غير جيله، ليرى الناس بأعينهم عربيًّا من العرب الذين ملكوها من خراسان وأذربيجان وجورجان، إلى قسم كبير من أوربة[1] وإلى آخر المعمور من أفريقية، فيبصروا بأعينهم نموذجًا يعلمون به كيف كان أسلافهم، غير أنه مع ذلك سباق الغايات في كلّ كمال وعلم من علوم هذا العصر وكمالاته:

حلف الزمان ليأتينَّ بمثله　　　　حنثتَ يمينك يا زمان فكفر

نسأل الله أن يوفّقنا للاقتداء به والاهتداء بهديه، وأن يطيل بقاءه ويمتّع به أهل الحقّ ويكبت به أعداءه المبطلين.

برلين، في غرّة صفر عام ١٣٦٠

كتبه تقي الدين الهلالي
الدكتور من جامعة برلين

---

(١) أوروبا.

المقدّمة

الأسباب التي دعت لطبع هذا الكتاب ومسبّباتها

لا يظنّ القارئ بأني أحاول بهذه المقدّمة أن أقدّم إليه عطوفة الأمير شكيب أرسلان، وأدلّه على جهاده الدائب، منذ نعومة أظفاره إلى أن ذرف على السبعين عامًا من عمره، (أطال الله عمره)؛ إذ إنّني لو استعرتُ كافة أقلام الأدباء والبلغاء، وتقمّصت بابن خلدون، وعبد الحميد الكاتب، والجاحظ، وقس بن ساعدة الإيادي، من فطاحل البلاغة والفلسفة، وبالمعرّي، والمتنبّي، وابن[1] تمَّام، والحطيئة، والأخطل وجرير، والفرزدق من أمراء الشعر الأقدمين، لما قدرتُ على تحليل شخصيّة نابغة الشرق، وخليفة الإمام، الطيّب الذِّكر، المرحوم الشيخ محمَّد عبده.

الأمير شكيب أرسلان هو «خالد» هذا العصر بشجاعته، وجرأته، و«فاروق» هذا الزمن بعدله، وعفّته وقناعته، و«عليّ» هذه الأمّة بخبرته، وحذاقته، وصدقه بسياسته.

الأمير شكيب أرسلان هو يعسوب النهضتين، السياسية والدينية، حمى بيضة الإسلام بقلمه، كما حمى بيضة الوطن بسيفه، ودمه. فكان، ومازال، قطب رحى الحركة الوطنية التي تدور على قلمه، ومقوله.

تشرئبّ لسماع قوله الأعناق من كافة الآفاق، وتقبل على مطالعة ما يدبجه يراعه السيّال، الملوك، والسوقة، إقبال الجياع على القصاع.

جمع الأمير شكيب أرسلان بين الثقافتين الشرقية والغربية، فألّف الكتب والدواوين التي ملأت المكاتب [المكتبات]، والمجامع، وهذه الدواوين هي بعدّة لغات ومنها العربية، والفرنسية، والتركية. وبالرغم من أنَّ عطوفته، أنسى الله بأجله طويلاً وطويلاً، ناهز

(١) ولعلَّ المقصود هو أبو تمّام. (المحقّق)

السبعين من عمره الشريف، فقد شابت لمّته، ولم تشب همّته وجرأته، فتراه يسدّد سهام مقالاته النارية، في صدور الاستعمار، ويرفع عقيرته ليل نهار طالبًا إنصاف أمّته ووطنه ورفع الحيف عن بلاد العرب كافّة عامّة.

ما بالى سعادة الأمير شكيب أرسلان، ولم يبالِ قط بحملات الرجعيين عليه من المنتمين إلى العرب والعروبة ظلمًا وبهتانًا، ومن الممتِّين إلى الإسلام، زورًا وعدوانًا.

يدّعون الإسلام كذبًا وزورًا   كذبت أمهاتهم في ادِّعاها

فكان يرّد الحملة إثر الحملة، والموجة إثر الموجة، فيردّ الحجر من حيث جاء؛ عدّته الصبر، وسلاحه الإيمان بالله والوطن، وأسباب هذا الدفاع كلّه قلمه ولسانه. لم يطلب الأمير، ولمَّا يطلب، ولن يطلب على جهاده أجرًا ولا شكرًا، فتراه غنيًّا من التعفّف، خاليًا من التأفّف، بخلاف الكثيرين من كتّاب هذا العصر الذين إذا لم تنصفهم أمّتهم، حملوا عليها حملة شعواء، ولذعوها بقارص الكلام، وأشبعوها تقريعًا وتنديدًا وتأنيبًا. فاكتفى الأمير الجليل بالفئة الحرّة التي تعرف قيمة علمه، وجهاده، وتضحياته، وثباته، وصبره وأناته. فكان، وما زال، يتمثّل بقول أستاذه مصلح الشرق والعرب المرحوم الإمام الشيخ محمَّد عبده القائل:

فلست أبالي أن يقال محمَّد   أبلّ أم اكتظّت عليه المآثم
ولكن دينًا قد أردت صلاحه   أحاذر أن تقضي عليه العمائم

وقال مع الشاعر الآخر:

فلست أبالي حين أقتل مسلمًا   على أيّ جنب كان لله مضجعي

لقد لاحق الاستعمار والمستعمرون، هذا النابغة، حتّى منعوه من رؤية والدته العجوز؛ (ولولا وساطة ملوك العرب لدى حكومة الإنكليز الجائرة لما شاهدها ولا شاهدته). ولم يزَل إلى الآن هدفًا لسهام شتائمهم وتجديفهم وحملاتهم، ولو اكتفى هؤلاء بتهجّمهم المزري على كرامته لهان الأمر، وقلنا كيف يحبّ الاستعمار رجلاً حاربه مدّة نصف

قرن. ولكنّ أهمّ من هذا، وأعمّ بلاءً، وأحنة، شراء المستعمرين ضمائر بعض الكتّاب من أذناب الاستعمار، واستئجارهم للطعن بهذه الشخصيّة البارزة. وكانوا كلّما زاد الأمير الجليل اندفاعًا للدفاع عن العرب والشرق، ازدادوا حنقًا وغيظًا عليه، وشتمًا وتجديفًا من باب «أريد حياته ويريد قتلي» ومن باب:

أرضى فيغضب قاتلي فتعجّبوا ... يرضى القتيل، وليس يرضى القاتل

ولكنّها سنّة الله في خلقه؛ فالعظمة تتطلّب مثل هذه الشؤون والشجون، وما عظم رجل في أمّته إلاّ كَثُرَ حسّاده وأضداده.

ولكن بدأ الشعب بأجمعه يتيقّظ، ويشعر بأنّ الزعامات كلّها تسجد لزعامة الأمير شكيب أرسلان صاغرة، وأنّ الذي وقف في ميدان الصراع العالمي وحده، ولم يزل واقفًا وقفة الأسد الهصور، هو الأمير شكيب أرسلان القائل:

فإنّما رجل الدنيا وواحدها ... مَن لا يعوِّل في الدنيا على رجل

هذا هو الأمير شكيب أرسلان، أعزّه الله، وأيّد جهاده ومسعاه الذي التمسنا من عطوفته أمرًا بطبع مقالاته التي نشرت في «العلم»، وفي الصحف العربية الاستقلالية الحرّة في الوطن والمهجر، فتلطّف وأمرنا بطبعها وتقديم ريعها إلى جريدة «العلم العربي» نظرًا لخدماتها وثباتها، وجرأتها الوطنية، ومبدئها الاستقلالي.

لقد أقدمنا على طبع هذه الدرر الثمينة من جزئين كبيرين، وكلّنا أمل بأنّ قرّاء جريدة «العلم العربي» بخاصّة، ومواطنينا المنتشرين على ضفاف النهر الفضّي، وفي الجمهوريّات الأمريكية الأخرى، يقدّرون جهاد سعادة الأمير، ويقدّرون لنا هذه الخدمة، ولا نطلب منهم سوى الإقبال على شراء هذه المجموعة.

لقد طبعنا هذا الجزء بعد أن عانينا في سبيل طبعه الأمرَّين لِما يحتاجه من نفقات، فكنّا نقطع الدرهم عن أنفسنا لنقدّمه إلى المطبعة لنفي بوعدنا الذي قطعناه على أنفسنا

للجميع، و«وعد الحرّ دين». وعلى الله نتّكل في أعمالنا وأقوالنا، وجهادنا، وكفاحنا، ومَن يتّكل على الله فهو حسبه.

وقبل الختام، نشكر الذين شجّعونا على طبعه، وناصرونا سلفًا بشراء بعض نسخ من الكتاب، وإلى الله المرجع، والمآب.

العاصمة، في ١٥ صَفَر الخير سنة ١٣٦٠ الموافق ٢٠ آذار سنة ١٩٤١

صاحب ومنشىء جريدة « العلم العربي»

عبد اللطيف الخشن

لمحة تاريخية عن جهاد عطوفة أمير البيان
الأمير شكيب أرسلان

الأمير شكيب أرسلان لا يُشرى ولا يُباع بالدراهم. جهاد الأمير شكيب طيلة نصف قرن، أعماله اليومية، مقالاته في الصحف العربية والأجنبية، رسائله الخصوصية بخطّ يده لأصدقائه تعدّ بالألوف في كلّ عام، نفقاته الخصوصية ومصارفاته العمومية، كيف يعيش الأمير شكيب أرسلان في جنيف؟ جواسيس الاستعمار تلاحقه وتعدّ عليه أنفاسه، وتشي عليه لحكومة سويسرا؛ صورة مصغّرة عن حياة أعظم مفكّر في الأمّة العربية لا تطالعها في غير هذا الكتاب.

- توطئة

قليل من القرّاء يعرف الأعمال اليومية لكاتب الدهر ومفخرة الشرق العربي عطوفة الأمير شكيب أرسلان، وأقلّ منهم مَن يعرف صادراته وارداته وثروته ونفقاته الخصوصية والعمومية، ولكن أكثرهم يعرف جهاده في سبيل الأمّة العربية ويلمسه لمس اليد.

لقد كتبنا إلى أحد أصدقاء الأمير المطّلعين اطّلاعًا وافيًا على سيرة هذا الجهبذ الفذّ، والذين عاشروه وشاهدوا أعماله الخصوصية والعمومية ولمسوا جدّه ونشاطه لمس اليد، وتجرّدوا للدفاع عن الحقيقة، وكانوا يرافقونه في كلّ حركاته وسكناته؛ فأرسل إلينا هذا الكتاب الضليع "مسطرة"[1] من أعمال عطوفة الأمير الجليل وصورة مصغّرة من جهاده الذي لو شاء الكاتب أن يأتي عليه، لاحتاج إلى مجلّدات ضخمة.

وقد كان طالع الكاتب المذكور ما نشرته "العلم العربي"، بقلم مراسلها في البريد الجوي ببيروت، عن تهجّمات الجريدة الجزويتية "البشير" على سعادته. كما طالع حملات الكثيرين عليه من العقوقين من أعراب وأغراب، فجعل لكلمته مقدّمة يطالعها القارئ اللبيب.

(١) نموذج.

ولمّا كانت الكلمة التي ننشرها الآن هي من المقالات النفيسة جدًّا، والتي تلذّ القارئ لما فيها من حقائق راهنة عن جهاد رجل الأمّة العربية الأمير شكيب أرسلان، إنّنا نجعلها في مقدّمة هذا الكتاب، ونلفت أنظار القرّاء ليطالعوها حرفًا حرفًا، وليصلوا بواسطتها إلى سرّ هذا الكنز الثمين الذي لم تعرف الأمّة العربية أن تستثمره، ولم تقدّر إلى الآن قيمته النادرة.

- الأمير شكيب أرسلان لا يُشرى ولا يُباع بالدراهم

ليس مرادنا الآن أن نردّ على كلب الجزويت المسمّى بـ«البشير»، ولا على كلاب الاستعمار النابحة في بيروت ودمشق وحلب التي تنفق عليها المندوبية الإفرنسية والمكتب الثاني الإفرنسي (دائرة استخبارات فرنسا). فهؤلاء يقابلهم الإنسان بقول الشاعر الذي كأنما أنطقه الله به لأمثالهم:

لو كلّ كلب عوى ألقمته حجراً   لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

ولكنّنا نوجّه الكلام إلى أرباب العقول والضمائر المنزّهين عن الأغراض الدنيئة، الحاكمين بموجب العقل السليم والوجدان القويم، فنقول لهم إنَّ هذا الرجل يجاهد في تحرير الأمّة العربية ورفع مستوى العرب بين الأمم من أربع وخمسين سنة تامّة. وقد كان يمكنه، لو انصرف إلى مصالحه الشخصية وترك الجهاد في القضايا العمومية، أن يكون غنيًّا كبيرًا. ولكنّه، لحبّه المجد على المال، رفض كلّ ما كان يعرض عليه من المناصب والوظائف التي تدرّ على أصحابها بالمال الكثير، ولبث يتعقّب بقلمه تلك الغاية النبيلة التي وقف نفسه عليها، وهي رفع شأن العرب. وقد حرّر في حياته من المقالات المطبوعة في الصحف ومن التآليف ما يُقدّر بخمسة وثلاثين ألف صفحة مطبوعة من القطع الكبير؛ هذا عدا رسائله الخصوصية التي هي أشبه بمقالات الصحف، فإنّه يكتب في دور السنة من عشرين سنة إلى اليوم عددًا من الكتب الخصوصية يتراوح بين ١٥٠٠ و٢٠٠٠ مكتوب. وكلّ هذا كتبه عطوفة الأمير شكيب أرسلان مجّانًا بلا عوض، ما

عدا خمسة آلاف صفحة من التآليف، فإنّه كان يبيعها من أصحاب المطابع، كما هي عادة المؤلّفين. وأمّا مقالات الجرائد التي تزيد على ثلاثين ألف صفحة، فقد سوّدها كلّها بقلمه الشريف، ولم يتقاضَ عليها بارة واحدة، بل كان يؤدّي أجرة البريد من كيسه، وكثيرًا ما يسجّل منها بالبريد من كيسه. وقد كان في البداية يكتبها كلّها بخطّ يده، فلمّا تقدّم في السنّ وصارت تصعب عليه الكتابة بخطّ أنامله، اتّخذ له كاتب يد، يؤدّي له في الشهر عشر جنيهات إنكليزية، حتّى يملي عليه هذه الكتابات الكثيرة من مقالات في الصحف وتآليف في مختلف العلوم، وكتب خصوصية يجيب بها مخاطبيه من جميع آفاق العالم الإسلامي. وهو من بضع عشر سنين يؤدّي أجرة كاتب يده من كيسه، وذلك حتّى يقوم بالكتابات الطويلة العريضة التي ينشرها في الآفاق لبثّ روح الاستقلال العربي الذي وقف نفسه على الدعاية له، ولم ينفق عليه من روحه وسويداء قلبه وضياء عيونه فحسب، بل أنفق عليه من صلب ماله وممّا أورثه إيّاه والده. وكلّ أحد يعلم أنّ عشرات، بل مئات من كتّاب العربية الذين يفتخرون بأن يكونوا من تلاميذ الأمير شكيب أرسلان، قد أنشأوا ثروات عظيمة، وتأثلوا أموالاً جزيلة من ثمرات أقلامهم. فلو كان الأمير سائلاً عن المال، وكان هدفه كسب المال، لكان يتقاضى الصحف مقابل تعبه على الأقلّ. وقد كان، الطيّب الذكر، العلاّمة يعقوب صرّوف كتب إليه مرّة منذ أربعين سنة مقترحًا عليه أن يراسل «المقتطف» على أن يقدّم له شيئًا في مقابل تعبه، فأجابه: «إنّني وجدت لك فلانًا وفلانًا ـ وعدَّ له فريقًا من الأدباء ـ فهم مستعدّون للمراسلة على أن يكون لهم بدل الصفحة كذا، فأمّا أنا فلست آخذًا على مراسلة «المقتطف» شيئًا وإنّما أخدم بذلك العلم».

وهكذا مضى يراسل «المقتطف» ـ وغير «المقتطف» ـ من مجلاّت وجرائد مدّة خمسين سنة، وكلّ ذلك بلا عوض. وهو منذ عشرين سنة قد أمسك دفترًا سنويًا لكتاباته؛ فكما أنّ الكتب الخصوصية التي يحرّرها في دور السنة تتراوح بين ١٥٠٠ و٢٠٠٠، كذلك المقالات التي يحرّرها بين عربي وإفرنسي تبلغ في دور السنة من ٢٠٠ إلى ٢٥٠ مقالة. وأمّا مجلّة «لا ناسيون آراب»[١] العربية المنهج، الإفرنسية الملهج، التي

(١) La Nation Arabe.

كان يصدرها عطوفته هو وإحسان بك الجابري، من أعضاء الوفد السوري الفلسطيني، ثمَّ صار يصدرها وحده، فإنّها تصدر من عشر سنوات في جنيف، والجزء الواحد منها كان يكلّفهما خمسين جنيهًا، وقلّما كان يأتيهما من بدلات الاشتراك ما يقوم بثلث مصاريف المجلّة، وكان يتوزّع منها في أوروبا نحو من ألف نسخة مجّانًا بلا عوض، وذلك على رجال الحكومات، وعلى مشاهير السياسيين، وعلى النوّاب والشيوخ، وعلى أمّهات الصحف الأوروبية. وكان يرسل منها ٥٠٠ نسخة إلى فرنسا وحدها. فلو قيل إنَّ هذه المجلّة كلّفت الأمير شكيب وزميله ثلاثة آلاف جنيه مدّة هذه السنوات العشر، دفعاها من صلب مالهما بالنظر لعدم قيام المشتركين بدفع بدلات الاشتراك، لما كان في ذلك أدنى مبالغة، وإنّما كان الحادي لهما على متابعة نشر هذه المجلّة، وعلى المصاريف الكثيرة التي أنفقاها في أوروبا على الأسفار والزيارات والمقابلات والولائم، هو خدمة القضيّة العربية المحضة.

وقد بقي عطوفة الأمير شكيب، كما يعلم كلّ واحد من أبناء وطنه، مقتنعًا بالكفاف والستر، ولم تزد أملاكه على ما كانت عليه إلاّ زيادة قليلة؛ وهذه الزيادة إنّما جاءته من أراضٍ اشتراها في عين صوفر وربح بها لا من وجه آخر. فلو كان مغرمًا بالمال، وقد شغل مناصب عالية، وكان في أيام الحرب العامّة من زعماء مجلس المبعوثين في استانبول، ثمَّ بعد الحرب العامّة شغل مدّة عشرين سنة المنصب الحرّ الذي جعله مرجعًا تخاطبه الملوك والحكومات وأرباب السياسة من كلّ فج، لكان الآن ذا ثروة عظيمة ولم يكن قصارى أمره سوى الكفاف فقط لا عليه ولا له. وقد زعم أعداؤه وحسّاده، ولا سيّما من الإفرنسيين وأذنابهم، أنه يتلقّى إعانات من إيطاليا وألمانيا. وكانوا قبل ذلك زعموا أنه يتلقّى إعانات من البلشفيك، ونشروا ذلك في الصحف؛ ثمَّ ظهر أنَّ الأمير شكيب يقاوم البلشفية مقاومة شديدة لمخالفتها الإسلام، وذلك في كتاباته العربية والإفرنسية. فسكتوا عن هذا الكلام، لا خجلاً، لأنَّ الذي ليس له وجدان لا يعروه الخجل، ولكن لمعرفتهم أنَّ هذه الفريّة لا يقبلها أحد؛ وغير معقول أنَّ الذي يكون قد أخذ إعانة مالية من جهة من الجهات يجرّد قلمه لمقاومة تلك الجهة، ويحمل عليها مثل حملات الأخ

الأمير شكيب على البلاشفة. ولما اتّضحت هذه الفريّة التي قام بها أناس من دعاة الإفرنسيين، وآخرون من دعاة الإنكليز من السوريين، رجعوا يتكلّمون على إعانات بدأ يتلقّاها ـ بزعمهم ـ من إيطاليا ومن ألمانيا، وذلك بالنظر لوجود صداقة قديمة بينه وموسوليني من قبل أن يصير هذا زعيمًا لإيطاليا. وقد وقع أنه من بعد أن تولّى موسوليني حكومة إيطاليا، أراد تدويخ طرابلس الغرب، فوقعت من الجيش الإيطالي هناك، تحت قيادة المارشال غرازياني، فظائع بحقّ عرب طرابلس أوجبت أنَّ عطوفة الأمير شكيب يراجع صديقه القديم موسوليني حتّى تعتدل الحكومة الإيطالية في معاملتها لأهل طرابلس. ولمّا رأى أنه لم تكن من نتيجة لمداخلته هذه، حمل على موسوليني وعلى إيطاليا في الجرائد العربية، وفي مجلّته «لا ناسيون آراب» حملة منكرة كانت لها ضجّة عظيمة في كلّ العالم الإسلامي. وقاطع المسلمون الطليان في أماكن كثيرة، وحصلت مظاهرات في جميع مدن سوريا وفي أقطار أخرى ضدّهم، فأرسل موسوليني إلى الأمير يعاتبه على هذه الحركة ويذكّره بقديم الصداقة، فأجابه الأمير قائلاً: «إنّنا لا ننسى صداقة الزعيم ولا مواقفه عندما كان محرِّرًا لجريدة «بوبولو ديطاليا» في جانب العرب، سواء في سورية أو في فلسطين وكذلك بعد أن تولّى الحكومة الإيطالية؛ نذكر مواقف إيطاليا في جمعية الأمم وبأنّها كانت تطالب دائمًا باستقلال سورية ولبنان، وتعترض على تهويد فلسطين. ولكن هذا كلّه لا يمنع أن نغضب لما هو جار بحقّ عرب طرابلس، لأنَّ هؤلاء إخواننا، ونحن لسنا بأنذال حتّى نبقى ساكتين إزاء المظالم الواقعة عليهم». فأرسل إليه موسوليني ليأتي إلى رومة ويقابله ويتحدّث إليه في حوادث طرابلس، فاقترح عطوفة الأمير شكيب على الزعيم الإيطالي أن يبدأ بإعادة الثمانين ألف عربي الذين نفاهم المارشال غرازياني إلى صحراء «سرت» ووضعهم بين الأسلاك الشائكة محصورين، فمات منهم عشرون ألفًا في مدّة سنة. وبعد أن يتمّ ذلك، يمكن الأمير شكيب أن يتوجّه إلى رومة[1] ويشكر الزعيم على إعادة هؤلاء الأعراب إلى أوطانهم. ولمّا كان موسوليني رجلاً عبقريًا حازمًا وافر العقل على غير خلق الفرنسيس[2] الذين إذا نصح لهم الناصح، ولو كان النصح في مصلحتهم العرب

(١) روما.

(٢) المقصود «الفرنسيين».

الذين كان غرازياني شرّدهم ذلك التشريد الفظيع، وعزل الجنرال غرازياني وبعث عطوفة الأمير شكيب إلى سموّ الأمير عمر طوسون وإلى سموّ السيِّد إدريس السنوسي في مصر يسألهما عمّا إذا كان هؤلاء الأعراب أُعيدوا حقًّا إلى أوطانهم؛ فلمّا أجاباه بصحّة الخبر، ذهب إلى روما وشكر لموسوليني عمله هذا وذكر له أنَّ العرب المذكورين قد رجعوا لكن بعد أن فنيت جميع مواشيهم، وهم يموتون جوعًا. ففي الحال أمر موسوليني بأن تُوزَّع عليهم إعانات نقدية وأن يشغلوا في الطرقات والمباني مثل فعلة الطليان، وأن تُشترى لهم حيوانات، وأن يُوزَّع عليهم بذار للزرع؛ فاصطلحت أحوالهم وعاشوا. ثمَّ، بناءً على رجاء عطوفة الأمير شكيب، صدر الأمر بإطلاق خمسمائة طرابلسي كان حُكِمَ عليهم بالحبس ثلاثين سنة بسبب الثورة، وبترغيب الطرابلسيين الذين هاجروا إلى مصر وتونس بالرجوع إلى أوطانهم على نفقة إيطاليا، وضمّد موسوليني جروحًا كثيرة كان الأمير هو السبب في تضميدها، فشكر له هذه العناية وأعلن ذلك في الصحف العربية.

وله في هذا الموضوع مقالات في "المقطّم" وفي "كوكب الشرق" وفي "الجامعة العربية" وفي "لسان الحال"، شرح فيها هذه القضيّة بالتفصيل. وقد كان الجنرال غرازياني يعلم أنَّ سياسة الأمير مع موسوليني هي التي كانت سبب نقله من ولاية طرابلس، فكتب كتابًا طعن فيه على عطوفة الأمير شكيب، ولكن موسوليني بقي يعامل الأمير معاملة صديق، كما أنَّ الأمير كان يقول: "إنّي أنا لا أقدر أن أحوِّل إيطاليا عن مشربها الاستعماري، ولست أدّعي أنَّ أحوال طرابلس صارت ترضي المسلمين من كلّ الوجوه، فالدول الاستعمارية لا تقدر أن تغيّر خططها المعلومة، ولكنّي تمكّنت بواسطة صداقتي مع موسوليني من إصلاح الحالة في طرابلس بقدر الإمكان، ولطّفت كثيرًا من ويلات المسلمين فيها، ولم يكن غيري، حتّى من الحكومات الإسلامية ذات الشأن، من يقدر أن يداخل موسوليني في مسألة تتعلّق بطرابلس. ويكفي أني كنت ذا يد في اعتناء إيطاليا بالتعليم العربي وتدريس العقيدة الإسلامية في مدارس الحكومة، وتأسيس مدرسة عليا للعلوم الشرعية، وفي إعادة أوقاف المسلمين إليهم". وأمّا منع دعاية التبشير المسيحية بين المسلمين، ومعاقبة المبشّرين عليها بالحبس والنفي، فيقول الأمير شكيب إنها لم تكن مبنية على تدخّله، بل كان

موسوليني من الأصل مانعًا الدعاية المسيحية بين المسلمين منعًا قطعيًا بخلاف ما هو جارٍ في المغرب الواقع تحت الحكم الإفرنسي؛ وهذا من أغرب الأمور لأنّ حكومة إيطاليا الحاضرة تعلن كونها حكومة كاثوليكية، وهي مع ذلك تمنع المسيحيين من بثّ دعايتهم بين المسلمين على حين أنّ فرنسا تزعم كونها حكومة لا دينية حرّة، عندها الأديان سواء، وهي مع ذلك تبذل جهد المستطيع في تنصير المسلمين، لا سيّما البربر.

فالإفرنسيون الذين رأوا نفوذ عطوفة الأمير شكيب لدى زعيم إيطاليا مضرًّا بسياستهم المغربية، زعموا أنه يتلقّى إعانات مالية من إيطاليا ليعاكس فرنسا في شمالي أفريقيا، وصارت جرائدهم تكتب في هذا الموضوع صباح مساء. والحقيقة خلاف ذلك، وقد كان أوضح دليل على كذب دعواهم هذه هو أنه عندما انعقدت بين فرنسا وسورية معاهدة الاستقلال التام سنة ١٩٣٦، اصطلح الأمير شكيب مع فرنسا وذهب إلى باريز(١) ثمّ ذهب إلى سورية وصار في كلّ خطبه يدعو إلى الاتّفاق مع فرنسا والاعتماد عليها. نعم، كان يتمثّل بقوله تعالى ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾، فلو كان الأمير شكيب مروِّجًا لسياسة موسوليني لكان وقف في صفّ المنتقدين للمعاهدة، المقاومين لفرنسا، فإنّ إيطاليا لم تكن راضية عن المعاهدة المذكورة، وكان الطليان يحذّرون السوريين قائلين لهم إنّ فرنسا لن توفي بما عاهدتكم عليه. ولَعمري، قد صدق الطليان في ما كانوا يقولونه للسوريين. فلو كان الأمير عاملاً بسياسة موسوليني، لما كان أيّد المعاهدة السورية الإفرنسية وحثّ السوريين على قبولها. ونشرت جريدة «الطان»، وأذاع راديو باريز تصريحاته هذه تحت عنوان «تصريحات زعماء الإسلام». وممّا يستوجب الانتباه أنه في أثناء تأييد الأمير للمعاهدة وحالة الصلح التي وقعت، سكتت الجرائد الإفرنسية عن اتهامه بأنه يأخذ دراهم من إيطاليا سكوتًا تامًّا. ثمّ لمّا نكثت فرنسا بالمعاهدة ورجع الأمير شكيب إلى مقاومتها، رجعت الجرائد الفرنسية إلى الدعوى نفسها. وكان الفرنسيس يظنّون أنّ إيطاليا ستخوض الحرب في جانب ألمانيا، فلمّا أعلنت إيطاليا أنها معتزلة الحرب وأمنت فرنسا من جهتها، واقتضت سياسة فرنسا مداراة موسوليني، رجعت الجرائد

---

(١) باريس.

الفرنسية عن ذكر علاقة الأمير شكيب بموسوليني وقولها إنه يتلقّى منه إعانات مالية. فمنذ أشهر نرى جرائد فرنسا تطعن في الأمير وتتّهمه بأخذ دراهم من ألمانيا، فأمّا من جهة إيطاليا، فقد انقطع كلامها تمامًا في هذا الشأن. ومن هنا يعلم القارئ أنَّ الجرائد الإفرنسية تكذب وتعلم أنها تكذب، وهي تجعل قضيّة أخذ الدراهم وسيلة للتشنيع لا غير؛ فعندما تكون راضية عن إيطاليا، تنقطع عن ذكر أخذ الأمير دراهم من إيطاليا وتحوّل ذلك على ألمانيا. وعندما تكون معادية لإيطاليا تزعم أنه يأخذ دراهم من إيطاليا. وكلا الأمرين محال وافتراء.

ويا ليت شعري إن كان عطوفة الأمير شكيب أرسلان يتبع في سياسته كَسْب الدراهم ويبيع ضميره كسائر باعة الضمائر، فلماذا لم يقبل إعانات مالية من فرنسا نفسها؟ فإنَّ فرنسا أغنى من إيطاليا ومن ألمانيا وهي ذات علاقة بسورية، سواء كانت هذه العلاقة بحقٍّ أو بباطل. فقد كان الأَولى به أن يتّفق مع فرنسا ولا يعيش في الغربة بسبب عداوته لها. ومن المعلوم أنَّ فرنسا تنفق في سبيل شراء الضمائر وبثّ الدعاية الإفرنسية أكثر من غيرها، لا يفوقها في هذا الموضوع إلاّ إنكلترا التي مبالغها السرّية تزيد على عشرة ملايين جنيه، لا تقدّم عنها الحكومة الإنكليزية بيانًا. وفرنسا كانت تصرف من المبالغ السرّية في سورية وحدها خمسة عشر مليون فرنك، ثمَّ أخذت في تنزيل هذا المبلغ تدريجًا، ومن سنوات قلائل وقفت عند حدّ خمسة ملايين فرنك ولها مأجورون كثيرون في سورية إلى هذه الساعة يقبضون رواتبهم الشهرية، وعندها جرائد بالإفرنسية، وبالعربية، تقبض من هذه المبالغ السرّية لتؤيّد سياسة فرنسا وتطبّل وتزمّر في مديحها وتشتم أعداء فرنسا، وعلى رأسهم عطوفة الأمير شكيب. فلو كان الأمير شكيب يُشرى ويُباع لكانت فرنسا قامت بذلك من عشرين سنة، فإنَّه أقدر على الإضرار بها وأنفذ قلمًا وأبلغ نكاية من جميع هؤلاء الزعانف المأجورين الذين تنفق عليهم فرنسا وليسوا في العير ولا النفير. وحسبك أنَّ الجرائد الإفرنسية قاطبة تسمّي الأمير شكيب أرسلان بعدو فرنسا نمرة ١ (واحد)؛ فالذي يكون على رأس قائمة أعداء فرنسا شرقًا وغربًا لا نظنّ فرنسا تستنكف أن تشتريه بالمال، بل نظنّ أنها قد حاولت ذلك

مرارًا وخابت. ولسنا في مقام تفصيل هذه المحاولة، ولا في مقام تفصيل ما عُرِضَ على الأمير من مناصب وحظوظ بشرط أن يرضى بسيطرة فرنسا على سورية ويكفّ عن المطالبة باستقلالها. والخلاصة أنَّ الإفرنسيين عندما عجزوا عن أن يشتروا ضمير الأمير شكيب، أخذوا يرمونه بقبض الدراهم، تارةً يقولون من إيطاليا، وتارةً يقولون من ألمانيا، وهذا بحسب ظروف السياسة كما قلنا من قبل. ويكفي دليلاً على كذبهم أنه لو كان يتلقّى كلّ هذه الإعانات من هاتين الدولتين العظيمتين لكان يظهر عليه أثر الثروة، ولم يكن عائشًا مع عائلته بالكفاف قانعًا بالستر؛ فإنَّ الدراهم تأبى إلاّ أن تمدّ أعناقها، كما يقول المثل. وكلّ من عرف عطوفة الأمير شكيب وخالطه، سواء في سورية أو في أوربا (وأصحابه العارفون به كثيرون جدًّا)، يعلم أن ليس عنده شيء يفيض عن مصروفه، وأنَّ مصروفه بغاية الاعتدال والبساطة. ومن نمط معيشته ومن أجرة منزله يعلم عشراؤه أنه ليس بذي فضلة. وإن قيل إنّه ربّما يخفي هذه الثروة التي تدرّ عليه أخلافها من ألمانيا وإيطاليا، أجبنا بأنَّ كلّ شيء في الدنيا يمكن كتمانه أكثر من اليسار الذي متى وُجِدَت أسبابه خرقت جميع الحجب.

وبهذه المناسبة نقول إنَّ بعض الدول المعادية للأمير شكيب قدّمت على ثلاث مرّات شكايات إلى حكومة سويسرا ترميه فيها بأمور كثيرة من أحداث ثورات وإيجاد قلاقل. وزعمت أنه يقبض رواتب من الدولة الفلانية والدولة الفلانية، وفي كلّ مرّة كانت حكومة سويسرا تسأله عن هذه القصص المنسوبة إليه وكان يجيب عنها تفصيلاً وبصراحة تامّة لم يُبقِ معها محلاً لأقلّ شبهة. وقد كان أهمّ تحقيق وقع معه في العام الماضي؛ فإنَّ بعض هذه الدول حملت عليه حملة بغاية الشدّة التزمت على أثرها حكومة سويسرا أن تجري فحصًا دقيقًا وأن تستنطقه استنطاقًا طويلاً استمرّ يومين، وفي كلّ يوم عدّة ساعات. وكان في أجوبته يبيّن أكاذيب تلك الحكومة التي قدّمت هذه التقارير بحقّه بصورة أوضح من فلق الصبح، ويُظْهِر التناقضات العديدة الواقعة في تقاريرها حتّى اقتنعت الحكومة السويسرية بعدم صحّة تلك التقارير الواردة بحقّه وأبلغته أنه يقدر أن يكون مطمئنًا، فإنَّ بلاد سويسرا بلاد حرّة ليس فيها مجال لتنفيذ مآرب لهذه الدولة أو لتلك الدولة. وعندما وصلوا من

سؤاله إلى قضيّة كيف يعيش مع عائلته، قدّم لهم بيانًا عن مصروفه السنوي، وهو عشرون ألف فرنك سويسري يزيد قليلاً أو ينقص قليلاً بحسب السنين، وبيّن لهم مفردات هذا المصروف بالتدقيق، ثمَّ أعطاهم بيانًا عن الوارد إليه حتّى يجتمع لديه مبلغ العشرين ألف فرنك اللازمة لمعيشته. فذكر لهم أملاكه في الشويفات بمفرداتها، وأملاكه في صوفر وريع كلّ مكان منها بمفرده. وقال لهم إن كانت لهم شبهة في بيانه فليراجعوا حكومة لبنان فهي أدرى بذلك. ثمَّ ذكر لهم ريع العقار المرهون الذي له في برلين، وماذا يفضل من هذا الريع بعد دفع فائض الدين الذي تحته رهن العقار. ثمَّ ذكر لهم ما يأتيه سنويًا من ثمن كُتبه، ولم يكتم عنهم أنه يأتيه في الأحايين إعانات من الجالية العربية في أمريكا، وإعانات أخرى من ملوك العرب الذين يعلمون أنه ينفق من كيسه في أوروبا كثيرًا على القضيّة العربية. وما زال يقدّم لهم البيانات الواضحة على النافذ والداخل في ميزانيته حتّى راجعوه بأن لا يتعب نفسه في هذا الموضوع، لأنهم اعتقدوا من قبل صحّة قوله. ومع ذلك فقد قال لهم: «إنّني أنا ليس لي علاقة مالية في سويسرا إلاّ مع البنك المسمّى «جمعية المصرف السويسري»، فاسألوا في جميع سويسرا إن كان لي حساب جارٍ في غير هذا البنك». ثمَّ أتاهم من البنك نفسه بحسابه الجاري عن سنة ١٩٣٨ الموضوع باَسمه في البنك، والنافذ من يده بواسطة البنك، وقال لهم إنَّه يمكنهم أن يراجعوا الحسابات السنوية من عدّة سنين فيجدوها كلّها بين ١٨ ألف و٢٥ ألف فرنك. وقد أراد الأمير شكيب أن يفقأ الحصرم في أعين الكذّابين، وأن يطلع الحكومة السويسرية على ميزانيّته الحقيقية بتفاصيلها لتعلم أنه حرّ نزيه مقتنع بالكفاف، راضٍ بالجهاد، لا يعرف له في سياسته هدفًا سوى القضيّة العربية، وأنه لا يُشترى ولا يُباع ولا تعمَل عنده الدراهم أدنى عمل، وأنَّ أقوال الأعداء كلّها افتراء مقصود بها الحطّ من قدر جهاده، وأنَّ العشرين ألف فرنك سويسري التي ينفقها سنويًا تأتيه من أملاكه ومن ثمن تآليفه، ومنها قليل يأتيه من المتبرّعين بإعانته لأجل القضيّة العربية نفسها لا لأجل شخصه.

وإنَّ الإنسان لَيتعجّب كيف أنَّ ملايين من البشر عندهم مئات ألوف من الجنيهات، وآخرين عندهم ملايين، بل عندهم مليارات، وما من أحد يسأل عن ثروتهم أو يناقشهم

الحساب على دخلهم وخرجهم، حال كون الأمير شكيب أرسلان يضطر أن يبيّن لحكومة سويسرا مفردات دخله وخرجه، ويخوض أعداؤه حتّى في تقاريرهم الرسمية في قضيّة معيشته وفي مقدار بودجته[1] السنوية. وقد ذكروا مرارًا أنّ له عقارًا في برلين يدرّ عليه أموالاً؛ حتّى أنّ المسيو رينو ديل، من زعماء السوسياليست[2] في فرنسا، كان مرّة يلوم بعض رجال الخارجية في باريز على عداوتهم للأمير شكيب الذي لا ذنب له سوى مطالبته بلستقلال بلاده. وكان رينو ديل يعرف الأمير حقّ المعرفة، وكان رجلاً نزيهًا قويمًا، فأجابه رجال الخارجية: "أفلا تعلم أنّ عنده بيتًا في برلين؟"، فضحك وقال لهم: "ليس هذا بدليل على أنه مُشترى من ألمانيا". وروى الحكاية للأمير شكيب، فأخبره بأنّ البيت اشتراه في أيام ذلك الرخص العظيم الذي استفاد منه الناس بعد الحرب العامّة، وجاء من تجّار سورية نفسها من اشتروا في برلين مئات من البيوت، وهو قد اشترى بيتًا متوسّطًا كانت الضرائب تستغرق جميع إيراده، ثمّ أخذت الضرائب تقلّ عن ذي قبل، فصار ريعه يزيد حتّى بلغ ثلاثة إلى أربعة آلاف مارك في السنة. ولكنّ البيت مرهون تحت ٢٢٠٠٠ مارك، وأصحاب المبلغ يهدّدون الأمير دائمًا بطرحه في المزاد العلني لاستيفاء دينهم، وهو يسكتهم من حين إلى آخر. وهذا العقار نفسه صارت له مكانة تاريخية إذ كان كلّ حاسد للأمير شكيب يتّخذه وسيلة للطعن فيه بأنه يستفيد من السياسة. ولمّا أراد سليمان الباروني أن يسترضي الإنكليز وهو في بغداد حتّى يجعلوه في وظيفة عند سلطان مسقط، حمل على الأمير شكيب حملة شديدة في الصحف، فكوفئ عليها بسرعة بتعيينه مستشارًا للسلطان المشار إليه. وذكرت جريدة عراقية أنّ الله انتقم للأمير شكيب عاجلاً بظهور رضى الإنكليز عن الباروني بعد أن كانوا يكرهونه. وقد كان الباروني ذكر في جملة المسائل قضيّة هذا البيت المرهون الذي يملكه في برلين، وأجاب الأمير عن ذلك بمقالة عنوانها "بيت برلين وما أدراك ما بيت برلين"، وذكر البيت وأعطى تفاصيل على محلّه ودخله وأحال من يريد الاستقصاء عنه على مكتب الدكتور بيضا في برلين، لأنه هو الوكيل على البيت وهو الذي اشتراه للأمير.

---

(١) محرّفة عن Budget وهي الميزانية أو الدخل. (المحقّق)

(٢) Socialiste.

فليعتبر القرّاء من درجة التحامل الذي يقع على رجال السياسة في الدنيا، وكم يلصقون بهم من التهم لمجرّد الانتقام منهم بسبب سياستهم. ولولا أن يكون عطوفة الأمير شكيب أرسلان قائمًا بالدفاع عن استقلال سورية، وعن الأمّة العربية كلّها، لما كان تعرّض إلى شيء من هذه الأقاويل السخيفة، وهذه السفاهات السافلة، ولَكان عند فرنسا هو الكبريت الأحمر والقمر الأنور والأسد الغضنفر والأعزّ الأكرم الأشرف الأطهر، ولو اشترى ألف بيت في برلين وألفًا أخرى في باريز.

ولكن من سخف رأي الإفرنسيين اعتقادهم أنهم متى سلّطوا كلابهم هذه على رجالات العرب، يعضّون من نعال هؤلاء وينهشون من كعوبهم، تنتهي المقاومة في سورية لسلطة فرنسا ويخنع الجميع لسلطانها. فلتعلم فرنسا أنَّ سورية للسوريين خاصّة وللعرب عامّة، وأنَّ فرنسا سواء خرجت من هذه الحرب غالبة أم مغلوبة فلن تخرج منها إلاّ منهوكة القوى، ولن يقدر كلابها هؤلاء أن يعملوا لها شيئًا، ولا أن يمنعوا نهضة العرب، بحوله تعالى، ولا استقلال سورية ولا اتّحادها مع سائر الأمّة العربية. ومَن يعش يرَ، «فليحيَ استقلال سورية ولو كره الخائنون».

❂ ❂ ❂

موقف الأمير شكيب أرسلان
من الحرب الحاضرة

رسالة خطيرة الشأن من سعادة الأمير إلى جريدة "العلم العربي" يحدّد بها موقفه ويردّ بها على معارضيه ويشرح للمهاجرين حالة العرب الحاضرة. لماذا زار الأمير شكيب برلين؟ موقفه الحاضر من الحرب الحاضرة ورأيه القيّم عنها. يقول سعادته لمعارضيه بسياسته ولمؤيّدي سياسة فرنسا من زعماء العرب الآية الخالدة التالية: "اختاروا لأنفسكم بين العرب وبين فرنسا". رأي عطوفة الأمير في جريدة "العلم العربي"[1].

وصلتنا بالبريد الجوّي رسالة خطيرة من عطوفة الأمير شكيب أرسلان نزيل "جنيف" حاليًّا، خصّ بها جريدة "العلم العربي". وفي الرسالة أدلّة وبراهين تقطع جهيزة قول كلّ خطيب، وتثبت موقف سعادة الأمير شكيب من هذه الحرب الحاضرة، وجهاده (في إبّان السلم والحرب) في سبيل العرب عامّة وسورية خاصّة. والأمير يشرح لنا برسالته شرحًا وافيًا سياسته السلبية والإيجابية، ويردّ على معارضيه والمتهجّمين على كرامته، وهي الرسالة الأولى التي يكتبها سعادة الأمير شكيب بعد الحرب الحاضرة يشرح بها موقفه الماضي والحاضر، وسياسته للمهاجرين إجمالاً بواسطة هذه الجريدة التي تفتخر كلّ الافتخار بآراء الأمير القيّمة ولانتقائه "العلم العربي" من كافة الصحف العربية في الوطن والمهجر ليعبّر بها عن آرائه السديدة وأفكاره الصائبة. ومن عجائب الصدف أن ننشر في عدد "العلم العربي" الغابر رسالة لمراسلنا الكريم الأستاذ جابر يشرح بها حملات جريدة "البشير" على سعادة الأمير. وقد علّقنا في العدد ذاته على ذلك التحامل بمقالة رئيسية كان لها الوقع الحسن في نفوس القرّاء، ووردتنا رسائل التهاني من جلّهم. والآن تَرِدُنا هذه الرسالة من عطوفة الأمير للعالم العربي وللمهاجرين (على

---

(١) لم نجد بدًّا من نشر رسالة الأمير الجليل برمّتها إلى مدير جريدة "العلم العربي" مع تعليق العلم عليها يومئذٍ بصفتها أوّل رسالة وردت من الأمير لجريدة عربية في المهجر يحدّد بها موقفه من الحرب الحاضرة.

المكشوف)، وهي ينبوع صافٍ يروي نفوس القرّاء العطشى لمعرفة سياسة الأمير، أعزّ الله به العروبة والوطن.

وهذه هي الرسالة القيّمة من سعادته ننشرها بحرفيّتها مع المقدّمة التي تَفضّل سعادته بها علينا، فأطرى موقفنا وجهاد «العلم العربي». وهذه الشهادة «بالعلم» ومديرها من أكبر شخصية بارزة في العالم العربي بهذا العصر تصحّ أن تكون عزاء لنا بمهنتنا، وعصا تهبط على أقفية معارضي هذه الجريدة الذين يريدون منّا أن نمشي في ظلام سياستهم الدامس، وخطّتهم الهوجاء العوجاء.

قال الأمير الجليل مدّ الله بعمره:

جنيف، في ٢٤ رمضان المبارك سنة ١٣٥٨

حضرة الأخ الفاضل المجاهد المناضل السيِّد عبد اللطيف الخشن، صاحب «العلم العربي» بحقٍّ، أدام الله علمه مرفوعًا وجانبه منيعًا، آمين:

إنّي أطالع جريدتكم سفرًا وحضرًا وأعجب بها وبخطّتها العربية الأبيّة، ولكن قد ازداد إعجابي بها منذ نشبت هذه الحرب في أوربا، إذ إنَّ الرجال، كما يقال، صناديق مقفلة وما مفاتيحها إلاّ التجاريب. ولقد أثبتت الحوادث الحاضرة ما عندكم من نخوة عربية وحميّة وطنية فضلاً عمّا أثبتت ما لكم بُعد نظر وثقوب فكر وسعة اطِّلاع، فبمثلكم فليفتخر الوطن العربي.

إنّي لزمت هذه المدّة الصمت ولم أبدِ ولم أعد في شيء من شؤون الحرب الحاضرة، موطّنًا نفسي على الحياد التام فيها ومتجنّبًا الخوض في معمعة أرى أسبابًا كثيرة تدعو العرب الأحرار إلى لزوم الحيدة فيها وعدم التحيّز لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وليس مرادي بالحياد التام في هذه الحرب أني راضٍ بما فعلته فرنسا في سورية ملق الحبل على الغارب، لا يهمّني اعترفت فرنسا باستقلال سورية أم لم تعترف، ولا يكرثني أَصدّقت فرنسا معاهدة سنة ١٩٣٦ مع سورية أم لم تصدّقها؟ كلا، فكلّ الشرقيين يعلمون أني كنت انتُخِبت رئيسًا للمجمع العلمي العربي في الشام، وأجمعتُ الرجعة إلى هناك لتسلّم

منصبي العلمي الجديد. فلمّا وصلت إلى مصر وتريّثت فيها بعض أسابيع، ظهر لي خلالها أنَّ فرنسا عدلت عن تصديق المعاهدة الإفرنسية السورية، فعدلت أنا أيضًا عن الذهاب إلى دمشق وتسلّم رئاسة المجمع، ورجعت إلى جنيف محلّ هجرتي القديم. وكتب إليَّ ناظر المعارف في سورية يستحثّ قدومي لأجل أن أتبوّأ عملي. وكان ذلك في وزارة نصوح البخاري، فأجبته: يا سبحان الله! أنتم أعلنتم على الملأ أنَّ وزارتكم مؤقّتة وتحت جواب يصدر من حكومة فرنسا، وقلتم إن كانت فرنسا لا تصدّق معاهدتها مع سورية فإنَّكم تتركون الحكم ولا ترضون به تحت الانتداب، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا تريدونني أن أتبوّأ أنا منصبًا تحت الانتداب؟. والحال أني أنا لم أقبل رئاسة المجمع العلمي إلاّ على أمل أني لا أصل إلى الوطن إلاّ بعد أن يكون تصدّق استقلال سورية ونُفّذ فعلاً. فإن كانت سورية ستعود تحت الانتداب، فأنا أعود حينئذٍ من حيث أتيت. هكذا كان قراري من البداية، وذلك لأنَّ استقلال سورية هو الشرط الأول عندنا لموالاة فرنسا.

أما قضيّة موقف الأمّة العربية بإزاء الحرب الحاضرة وموقفي أنا من جملة هذه الأمّة، فكنت أرى أنَّ الأَولى بنا الحياد التام والسكوت. وعزمت أن لا آتي فيها بحركة إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولاً. وعكفت على أشغالي الأدبية وإكمال كتابي «الأندلس» الذي ظهر منه ثلاثة أجزاء وسيقع في تسعة بالأقلّ. وكان الرأي عندي أنه لا يُوافق العرب أن يحالفوا ألمانيا ولا الروسية[1] لأنه ليس من صلة بينهم وبين هاتين الدولتين، ولا سبقت لهم معهما محالفة ولا موانقة من قبل حتّى ينفّذوا ذلك العهد اليوم. ولا يوافق العرب أيضًا أن يحالفوا الدول المسمّيات بالديمقراطيات لأنهم لم يجدوا شيئًا من هذه الديمقراطية يفترق عن الحكم الديكتاتوري. فلماذا ينحاز العرب إلى أناس سيوفهم إلى حدّ الحرب تقطر من دماء العرب؟ ولعمري، إنّها لَحطّة من مقام العرب بين الأمم أن يكونوا كعبيد أمريكا الذين قام منهم جانب كبير يحارب في صفوف الذين كانوا مصرّين على استعبادهم وصاروا أمثولة في العالمين. نعم، لو جاءت فرنسا تقول للسوريين: نحن أوّلاً مصدّقون لكم معاهدتكم ومعيدون الحكم الوطني إلى الشام وموفون بما عاهدناكم عليه، لَكنت

(١) روسيا.

أنا في مقدّمة مَن يقول يومئذٍ لفرنسا: ونحن أيضًا حلفاؤكم في السرّاء والضرّاء، وسترون في جانبكم أفعالنا. ولو كانت إنكلترة قالت للعرب: ها آنذا عدلت عن سياستي اليهودية في فلسطين وسأقرّر عدم دخول يهودي إليها من بعد اليوم ومن هذه الساعة، تسلّموا بلادكم على وجه يضمن لكم أكثرية الثلثين بالأقل، وسأعوّضكم من رزاياكم وآلامكم وجراح قلوبكم وأجتهد أن أنسيكم ماضي الاعتداء... إلخ، لَكنّا نقول للإنكليز: مهما كان صعبًا على العرب نسيان ما أحللتم بهم من تقتيل رجال وتيتيم أطفال وهتك أعراض مُخدَّرَات وتدمير بيوت وسلب أموال، فإنّنا إن عاهدتمونا على الاعتراف بحكومة فلسطينية مستقلّة ثلثاها من العرب، نتوقّف عن متابعة القتال والإمعان في الثورة، ونستقيم لكم ما استقمتم لنا.

فأمّا أن نعرض أنفسنا لدى الدول الديمقراطية ونقول لها: نحن رجالك ويا ما ترين منّا ويا ما عند عينيك، على رأي البوادي، ويكون ذلك منّا مجانًا بلا عوض، فإنّي أحسب هذا مخالفًا للشهامة والكرامة ومضرًّا بالأمّة العربية مادةً ومعنًى، وذاهبًا بوَقارها بين الأمم. إنَّ أعداء الدول الديمقراطية مثل ألمانيا والروسية وإيطاليا اللاتي لا يخفى عليهنّ شيء من حركاتنا هذه، إن كتب الله لهنّ الفوز على الدول الديمقراطية في هذه الحرب، أو في حرب بعدها، واستولَيْنَ على مستعمرات فرنسا وإنكلترة، كان أول شيء يصنعنه بنا الاستيلاء على بلادنا والاهتضام لحقوقنا، والنظر إلينا بعين الاحتقار وسومنا جميع أفانين الخسف بما يكونون رأوا من أنَّ الإهانة لا تؤثّر بنا، وأننا نُجزى من ظلم أهل الظلم مغفرةً ومن إساءة أهل السوء إحسانًا. وإن كان العكس، وهو انتصار الديمقراطيّات هذه، فإنّهن يزددن بعده لنا احتقارًا وإعناتًا، ويرين أنه لا حاجة إلى إرضائنا في شيء، فقد هدمن ممالكنا وأخْنَيْنَ على دُوَلِنا، وقُدْنَ بخزائم الصغارة ١٥٠ مليون مسلم نحو النصف منهم عرب، وجئنا بعد ذلك كلّه نقول لهن: « نحن فداؤكن وإن قطعتن رؤوسنا تدحرجت إلى ما بين أرجلكن». فهذا الذلّ تشمئزّ منه النفوس، حتّى نفوس المستفيدين منه.

كنت أرى عند عدم إمكان المطالبة بالحقوق واغتنام فرصة هذه الحرب لاسترجاع الاستقلال المغصوب أنَّ السكوت والتزام الحياد هما الأَوْلَى والأستر. وإن طالبتنا الدول

الديمقراطية بإعلان موالاتهن قلنا لهن: « لا نكون معكنّ إلاّ إذا عرفتن حقوقنا كاملة غير منقوصة ». فأمّا بعد كلّ أفاعيلهن بنا أن نقوم ولا نكتفي بالسكوت والسكينة حتّى نملأ الدنيا صراخًا في مديح الديمقراطيات وشتم أعدائهن، فإنّي لا أراه من الحكمة ولا من الشهامة. فإنَّ أعين الناس تنظر إلينا من كلّ جانب وسيعاملنا الآخرون بحسب ما يكونون رأوا من هوان أنفسنا على أنفسنا.

ولا يقيم على ضيم ألمَّ به — إلاّ الأذلاّن عير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمّته — وذا يشجّ فلا يرثي له أحد

حمدت السكوت والحياد حتّى لا أجعل للمتغلّبين علينا سبيلاً وحتّى لا يتّهمنا الأعداء بدعاية ألمانيّة ولا دعاية إيطاليّة، كما سبقت لهم العادة أن يتشدّقوا ويتمطّقوا. فإنَّ ديدنهم كلما طالبهم مُطالب بحقّ أن يقولوا: أنت عدو فرنسا، أنت عدو إنكلترة، أنت داعية لهتلر، أنت داعية لموسوليني، وما أشبه ذلك. هذا سلاحهم أبد الدهر، ولا سلاح لهم غير القذف والطعن والاختلاق والبهتان. والجرائد الإفرنسية في هذا الباب هي الحائزة قصب السبق، لا تشبهها صحافة في الغرب ولا في الشرق. وقد جرّبت الصمت هذه الأيام تفاديًا من أن يتّهمونا بالدعاية الإيطالية والألمانية، وأخّرت إصدار مجلتي «لا ناسيون آراب» عمدًا مدّة أشهر لأني لم أكن أريد أن أخوض في حديث الحرب على وجه يخالف الحقيقة. ولم أكن آمن[1] إن صرّحت بها على وجهها أن يقولوا إنَّ هذه دعاية هيتلرية. والحال أني لا أعرف هيتلر، ولا أنا ممّن يدين بمذهبه الاجتماعي، ولا ممّن ينكر بعض أغلاطه السياسية مثل استلحاقه تشيكوسلوفاكيا بعد أن وعد في مؤتمر ميونيخ بأن يقتصر على استلحاق السوديت الذين هم ألمانيون مثله. ولكنّي لا أقدر أن أكذب لأجل خاطر الحلفاء وأقول إنَّ الحرب الحاضرة إنَّما جناها هيتلر بينما تكون إنكلترة هي الجانية الوحيدة لها، وتكون فرنسا قد سيقت إليها سوقًا بعامل اتّحادها مع إنكلترة. وكيف كانت الحال، فكان أصحابي يسألونني عن موعد صدور العدد الجديد من «لا ناسيون آراب» وكنت أماطل فيه لمعرفتي أني إذا ذكرت الحقائق على وجهها قال الإفرنسيون: هذه دعاية ألمانيّة. وإن

(١) بمعنى آمنُ.

تعاميت عنها فهو خلاف عادتي وعار على الرجل الحرّ. فرأيت الأسلم هو السكوت والتربّص. ومضى على العدد الأخير من المجلّة عشرة أشهر وأنا أفكر في الخلاص من هذا المأزق الذي جعلني بين أن أقول الحقّ ولو غضبت الدول الديمقراطية، أو أتغافل عن الحقّ وأرضيها كما صنع الكثيرون من أبناء الوطن العزيز؛ وأكبرتُ منهم المداجاة إلى هذا الحدّ. على أنَّ الجرائد الإفرنسية لا حيلة لها في أنفسها، فالسفاهة عند بعضها طبيعة غير منفكّة، فهي لم تفتأ تطعن وتقذف وتنفث الذي في صدرها. فكان لا يمرّ أسبوع من هذه الأسابيع الأخيرة دون أن تتحفني الصحافة الإفرنسية بعدّة مقالات تنال فيها مني ومن سياستي نيلاً شديدًا. نعم، هذه المرّة تركوا الكلام في دعايتي، بزعمهم، لإيطاليا وحصروها في ألمانيا، وذلك لأنَّ إيطاليا لم تدخل الحرب؛ فوفَّر عليَّ عدم دخولها فيها سفهًا كثيرًا من جرائد باريز وأذناب باريز. إلاّ أنَّ هناك حادثًا جدَّ معي فأتاح لهذا السفه أن ينعق وينقلب وبلُهُ ديمة مدرارًا.

وتحرير الخبر أنَّ الأزمة الاقتصادية اشتدّت بعد الحرب وضرست الناس بأنيابها، وأنا من جملة الناس، ولمّا كان لي عقار في برلين اشتريته سنة ١٩٢٢، يوم ذلك الرخص العظيم في أثمان الأملاك، أرسلتُ إلى وكيلي على العقار بأن يبعث إليَّ بالمتراكم عنده من صافي ريعه، فأجابني بأنَّ لديه ألفًا وخمسمائة مارك من الريع، إلاّ أنَّ إخراج المال من ألمانيا، لا سيّما اليوم، يكاد يكون مستحيلاً، ثمَّ قال لي: لعلّك إذا جئت إلى هنا يراعون خاطرك ويستحيون منك. فذهبت إلى برلين وسعيت في رخصة إخراج هذا المبلغ، فأخذت المسألة معاملة طويلة لا تزال إلى هذه الساعة غير منتهية. فرجعت أدراجي خوفًا من أن أصرف في برلين المبلغ المتراكم من ريع بيتي كلّه. ولمّا كان لي أصحاب كثيرون في برلين من أيام سكني بها ورئاستي للنادي الشرقي فيها، أقام الأصحاب لي حفلة هذه المرّة كما كانوا يصنعون في كلّ مرّة أشخص فيها إلى برلين. وهذا كلّ ما جرى. فلمّا رجعت إلى جنيف بعد غياب ثلاثة أسابيع في برلين، أخذت تتوارد عليَّ الجرائد الإفرنسية وبعض الجرائد العربية التي هي أذناب الجرائد الإفرنسية وفيها الطعن والقذف بي والزعم أني ذهبت إلى برلين لإلقاء محاضرات فيها ضدّ فرنسا، وقد احتفل الألمان بي هناك احتفالاً

عظيمًا وأعطوني لقب «مواطن شرف للريخ» وهلمّ جرّا. فأمّا الحفلة، فهي غداء في أوتيل «استلاخاد» دعتني إليه الجمعية الألمانية الشرقية. وأمّا لقب «مواطن شرف للريخ»، فلا أصل لهذه الفريّة.

شكيب أرسلان

جنيف، في ٢٤ رمضان المبارك

حاشية: لهذه المقالة بقيّة اقتضتِ الظروف إهمالها، إذ لكلّ حادثٍ حديث، ولكلّ مقامٍ مقال.

❂ ❂ ❂

آل معروف في الذروة من العروبة
ولا يمكن أن يكونوا عضدًا للإفرنج على العرب

إنَّ الدروز في برّ الشام هم من صميم العرب لا يساويهم في صحّة النسب العربي غير الشيعة. وهذا أمر ثابت من وجوه كثيرة إن كانت لا تثبت بها عروبة آل معروف لم يمكن إثبات حقيقة تاريخية في العالم.

فالبرهان الأول على نقاء عروبة آل معروف هو الخلقة والسحنة، فإنّها سحنة صميم العرب لا يتمارى في هذه الحقيقة إلاّ الأعمى. وأيّ مَن عرف الدروز وحدّق بصره في أشخاصهم وكانت له إلفة وضراوة برؤية العرب، عرف أنهم من صميم العائلة العربية. وأكثر ما يدهش الغريب منهم شدّة تشابه أفرادهم في ما بينهم، حتّى أنَّ الأستاذ الإمام الشيخ محمَّد عبده، رحمه الله، كان يقول لي: ما رأيت طائفة تشبه بعضها بعضًا مثل الدروز، ترى منهم جماعة فتحسبهم واحدًا.

البرهان الثاني أنَّ بعض مشاهير الأطبّاء الذين كانوا يعلّمون التشريح في الجامعة الأميركية في بيروت، قد فحصوا جماجم جميع سكّان سورية، وفحصوا أجسادهم، ومن الجملة فحصوا جماجم عرب البادية، فوجدوا جماجم الدروز لا تفترق عن جماجم عرب البادية في شيء. وتحقّقوا أنَّ العروبة لم تتمثّل في جماجم جيل من أجيال سورية تَمَثُّلها في جماجم بني معروف، فإن لم يكن دليلاً على عروبتهم غير هذا الدليل العلمي التشريحي الذي لا يقبل الردّ لكان كافيًا، فكيف وقد اقترن بدلائل أخرى ناصعة؟!

البرهان الثالث، نقاوة لغة الدروز العربية وحسن سبك الجمل في أحاديثهم ممّا لا يضارعهم فيه قبيل في سورية، بحيث إنَّ العالم البصير باللغة إن طاف الأقطار السورية وسمع مختلف لهجات سكّانها، وقارنها بلهجة الدروز رأى بينها من الفرق ما بين الطبع

والتطبّع والكُحْل (بالتحريك) والتَكَحُّل. وعربية الدروز أفصح من عربية البدو، بمعنى أنها أغنى من عربية البدو في الدلالة على المعاني العقلية، وذلك من حيث كانت من أصلها اليمن وهؤلاء من أصلهم حَضَر وأهل مدنية؛ والبداوة تكاد تكون مفقودة في اليمن إلى يومنا هذا. فلهذا تجد لغة الدروز في العربية لغة حاضرة لا لغة بادية، فيها من التعبير عن المجرّدات ما ليس في كلام سكان الوبر. ومن أدلّ الدلائل على أنَّ أكثر الدروز من عرب اليمن، وجود اصطلاحات في لغتهم لا يجدها الإنسان إلاّ في لغة أهل اليمن. فأهل اليمن يسمّون أعيان الأهالي "بالعقلاء والعقّال" وهذا معروف عند الدروز. وأهل اليمن يقولون لرؤساء البلاد "مناصب"، وهذا الاصطلاح معروف عند الدروز إلى اليوم. وأهل اليمن يتكلّمون بالقاف المقلقلة، لا يعرفون القاف المعقودة التي ينطق بها البدو في الشرق والغرب. والدروز لا يوجد منهم واحد ينطق بالقاف المعقودة، ولا واحد يجعل القاف همزة، بل قافهم هي القاف الفصحى التي يُقرأ بها القرآن الكريم والتي كانت تنطق بها قريش، وهي قاف أهل اليمن وعرب الحواضر. وجميع الحروف الهجائية ينطق بها آل معروف كما هي قواعد اللغة، ويخرجونها أحسن المخارج، الخاصّي منهم والعامّي؛ إذ حسن اللفظ العربي عندهم هو بالفطرة لا بالتعليم والتلقين، وهذا من أنصع الدلائل على أصالة عروبتهم.

البرهان الرابع، التاريخ والتواتر، وهما شاهدان بعروبة الدروز، وذلك أنَّ أجدادهم هم العرب الذين أسكنهم الخليفة أبو جعفر المنصور العباسي في جنوبي لبنان ليحموا المواصلات بين دمشق وبيروت ـ مينائها الطبيعي، ويصدّوا غارات المردة الذين كانوا في شمالي لبنان. وقد أطبقت على ذلك التواريخ اللبنانية من عربي وسرياني، وثبت في سجل النسب الأرسلاني الذي كان البدء بتحريره سنة ١٤٢ للهجرة، وأثبته القضاة والحكّام والعلماء الأعلام عصرًا فعصرًا، وثبت بتاريخ صالح بن يحيى التنوخي وبتاريخ ابن اسباط العالهي، وبكتاب "تقويم الأنساب والأحساب" المعروف عند بني معروف بـ"كتاب النسبة" الذي هو أقدم تاريخ عندهم، وفيه ذكر القبائل الاثنتي عشرة التي جاءت من حلب إلى جبل لبنان، وفيه ذكر آل معن وآل شهاب وآل أرسلان والتنوخيين وبني فوارس الذين يقال إنَّ اللمعيين منهم. وكذلك أشارت إلى ذلك تواريخ الموارنة

مثل، تاريخ الدويهي، وتاريخ الأمير حيدر الشهابي، وتاريخ لبنان للشدياق، ودائرة المعارف للبستاني، وتاريخ سورية للمطران يوسف الدبس، وتاريخ المقاطعة الكسروانية للخوري منصور الحتوني، وتواريخ أخرى. وهناك التواتر الذي يحفظه العوام فضلاً عن الخواص خلفًا عن سلف، وهو أنَّ آل معروف عرب أقحاح، أجدادهم في الغالب من عرب اليمن نزحوا إلى بلاد حلب، ثمَّ أقامهم الخلفاء في لبنان لصدّ غارات المردة، وكانوا عند مجيئهم إلى لبنان اثنتي عشرة قبيلة.

البرهان الخامس هو أنَّ آل معروف خرجوا من الشيعة، ومن الشيعة السبعية، أي القائلين بالأئمّة السبعة. وهم الذين خرج منهم الشيعة الاسماعيلية الذين هم الآن في الهند فريقان: الخوجة، جماعة آغا خان المشهورة، والبهرة، وهم جماعة السلطان سيف الدين. ومن الفريق الأول اسماعيلية سورية أهل القدموس وسلمية. ومن الفريق الثاني اسماعيلية اليمن، أهل حراز وأهل نجران. فالدروز كانوا من جملة الشيعة، وكانت الشيعة منتشرة في جبل لبنان وجبل عاملة وهما واحد، فلمّا جاء الفاطميون في أواخر القرن الرابع للهجرة من تونس إلى مصر، وتأسّست الدولة الفاطمية وقامت بدعوة الشيعة، وحاولت نشرها في مصر والشام وغيرهما، وأضافت إليها بعض عقائد الباطنية التي جاء بها إلى مصر بعض المنتسبين إلى هذه الفرقة من العجم، وذلك لأجل مقاومة بني العبّاس الذين كانوا في بغداد يمثّلون في الأغلب دولة السنّة والجماعة، انقسم الشيعة الذين كانوا في لبنان وعاملة إلى قسمين، أحدهما بقي على التشيّع الأصلي دون أن يزيد عليه شيئًا، وقيل لهم «متاولة»، وهي مشتقّة من «متوليّة»، أي أنهم تولّوا آل البيت، صلوات الله عليهم. وقيل، بل مشتقّة من جملة «مُتْ وليًّا لعلي» وكلّه واحد. وهذا القسم غلب على جبل عاملة وما جاوره من جزّين، وعلى بلاد بعلبك، وما جاوره إلى الغرب من كسروان. والقسم الثاني قد قَبِلَ الدعوة الاسماعيلية الفاطمية وما معها من العقائد الباطنة الآتية من العجم، وهؤلاء هم أجداد الدروز. وإنّما سُمّيوا الدروز نسبةً إلى نشتكين الدَّرَزي العجمي، أحد دعاة الحاكم بأمر الله، الخليفة الفاطمي، وهم يكرهون هذا الاسم لكنَّه غلب عليهم بالرغم منهم، والحقّ أنَّ نحلتهم اسماعيلية فاطمية. وقد بقي بين قرى

الدروز قرى شيعية كثيرة، لكنَّ اختلاف المذهب حمل أبناء الشيعة الأصليين على الالتحاق بالقرى التي فيها جمهرتهم، وحمل الذين تلقّوا الدعوة الجديدة على الالتحاق بإخوانهم. ومع الزمن، لم يبقَ شيعة بين الدروز إلاّ نزر، مثل أهل برج البراجنة مثلاً، والكلّ في الأصل جميعًا شيعة. وإلى هذا اليوم إذا نادى المنادي في قرى الدروز يكون نداؤه هو هذا: «يا سامعين الصوت صلّوا على النبي أوّلها محمَّد وتاليها علي»، فهل هذا الشعار غير شعار الشيعة؟

وبعد أن تقرّر أنَّ الشيعة والدروز من شجرة واحدة، كان عندنا من هذا دليل يضاف إلى ما سبق من الأدلّة على عروبة الدروز؛ إذ إنَّ أكثر الشيعة في سورية هم من عرب اليمن مثل الدروز. وأكثر هذا الأكثر منسوب إلى عاملة، وهي حيّ من اليمن. جاء في «تاج العروس»: «بنو عاملة بن سبأ حيّ من اليمن هم من ولد الحارث بن عدي بن الحارث بن مُرّة بن أود بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ». وزعم نسَّاب مُضَر أنهم من ولد قاسط من مضر. وقال في «صبح الأعشى»: «فمن بني كهلان عاملة، وهم بنو عاملة، واسمه الحارث بن عفير بن عدي بن الحارث بن وبرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان». وذكر أبو عبيد أنَّ بني عاملة هم بنو الحارث بن مالك بن مُرّة بن أدد، وأنه كانت تحته عاملة بنت مالك بن وديعة بن عفير بن عدي بن الحارث بن مُرّة بن أدد، فعرفوا بها. وذكر صاحب حماه أنهم من ولد عاملة بن سبأ. وذكر الحمداني أنَّ بجبال عاملة من بلاد الشام منهم الجمّ الغفير انتهى.

وجاء في «سبائك الذهب في أنساب قبائل العرب» للسويدي نقلاً عن الحمداني: «وجبل عاملة من بلاد الشام، وقيل إنَّ هذه القبيلة من اليمن نزلت به تقيل عاملة وقد يحذفون التاء فيقال جبل عامل». والخلاصة أنَّ هذه الرواية متواترة ومذكورة في كلّ التواريخ تقريبًا، وإذا كان الأصل عربيًّا كان الفرع عربيًّا. وزد على عاملة لخم وجذام القبيلتين اللَّتين تَذْكُر تواريخ لبنان أنهم أجداد الدروز، وهم أبناء أعمام مع عاملة. فلخم هو ابن عدي بن الحارث بن مُرّة بن أود بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان، وجذام أخو لخم على الأصحّ الأقوال.

البرهان السادس هو بقاء الكلالات والقرابات بين الشيعة والدروز معروفة إلى اليوم. فمنها قد درس وتنوسي بكرور القرون، لأنَّ انشقاق آل معروف عن الشيعة مضى عليه تسعة قرون ونصف القرن، فلا عجب أن تتراخى الصلة وتتغيّر الأسماء في دهر كهذا. ولكن، برغم ذلك، بقيت عائلات من الفريقين تعرف أنها من أصل واحد ويعرف الناس وحدة أصلها بالتواتر. فمن ذلك بنو أبي علوان المعروفيون من الباروك، هم أبناء عم بني منكر المتاولة من إقليم الشوير. وكانت لهم أملاك متجاورة أصل تجاورها كونها قسمة إخوة على نهر الأوّلي. ومن هذا القبيل، بنو عبد الصمد الذين منهم فرع في العراق شيعة، وفرع في الشوف معروفيون.

كنت مرّة في بعلبك، فأنشدني السيِّد جواد العاملي قاضي الشيعة فيها شعرًا لواحد من بني عبد الصمد العراقيين، وبعد أن ذكر شعره نسبه لي قائلاً: وهذه العائلة هي وبنو عبد الصمد الدروز من أصل واحد. وصادف أنه كان معي واحد من آل عبد الصمد الشوفيين فقلت للسيد جواد، رحمه الله: وهذا الذي تراه هو من هذه العائلة. وكان السيِّد جواد عالمًا كبيرًا قضى شطرًا من حياته في العراق، ولهذا كان يعرف أنساب أهل العراق. ومن هذه العائلات بنو المصري في صليما المتن معروفيون، وبنو المصري في بلاد بعلبك شيعة، والقرابة بين الفريقين معروفة متواترة. واطّلعت في بعض التواريخ أنَّ آل عبد الله من التنوخيين منهم فرقة في خيام مرجعيون، ثمَّ سمعت أنَّ بني الحاج حسن عبد الله المتاولة من قرية الخيام أصلهم من تنوخ. وفي قرية حَضَر من شرقي جبل الشيخ، بيت حسُّون معروفيون، وقيل لي إنّه يوجد في الشيعة بيت حسُّون. وفي مجدل شمس بيت فرحات دروز، وقيل لي إنّه يوجد في الشيعة بيت فرحات، وإنَّ القرابة بينهما معروفة؛ وكذلك بيت الشاعر منهم فرقة دروز وفرقة شيعة. وفي كفرنبرخ، من العرقوب، بيت الخشن (بكسر الشين) دروز، وفي جبل عامل بيت الخشن شيعة. والمشايخ الحمادية في شمالي لبنان شيعة والمشايخ الحمادية في بعقلين دروز، ولم أسمع أنَّ بين الفريقين قرابة، فلعلّه توافق أسماء. وبنو حاطوم في كفرسلوان المتن دروز، وبنو حاطوم في برج البراجنة شيعة، ولا يبعد أن تكون بين الفريقين قرابة. وأطلعني الشيخ حسين

سجاع[1] من حاصبيا على شجرة نسب عائلتهم، فعلمت منها أنَّ جدّهم شجاع الدين من قرية العبادية من قضاء المتن شرقي بيروت، وأنهم ينتسبون إلى آل البيت. وقد كانت قرية العبادية، أو هي العبيدية، قرية شيعية في القديم بدليل أنهم عند الحفر فيها يجدون أقراصًا مكتوبة، عليها أسماء علي والحسن والحسين، رضي الله عنهم. وبدليل آخر هو أنه إلى الشرق منها بقرب رويسة البلوط قرية دارسة اسمها "حارة المتاولة"، فيظهر أنَّ أهالي العبيدية كانوا ممن تحوّلوا عن التشيّع الأصلي إلى العقيدة الفاطمية، أو التشيّع الاسماعيلي الذي تقدّم ذكره، أو أنَّ شيعة العبيدية وحارة المتاولة نزحوا من تلك الناحية ولحقوا ببلاد الشيعة. وأمّا بنو شجاع هؤلاء، فإنّهم اليوم من آل معروف.

وفي مزرعة الشوف بنو البعيني يترجّح مجيئهم من قرية البعينة، وهي من قرى جبل عامل. وفيها بنو ذبيان والمتواتر أنهم من مزرعة كفرذبيان في جبل كسروان. والمسلمون الذين سكنوا في صرود كسروان وجبيل شيعة، أتوا إليها من بلاد بعلبك نظرًا للجوار. وعلى كلّ حال يترجّح أنَّ بني ذبيان هؤلاء مرجعهم إلى بني ذبيان من ريث غطفان رهط النابغة الذبياني الشاعر، وهم من العرب العدنانية. فإنَّ من الأسماء ما يكون كثير الاستعمال مثل محمَّد وحسن وحسين وعلي وما شاكل ذلك، أو يكون صفة شائعة أو مهنة مثل، النجّار والحدَّاد والخطيب والفقيه والقاضي والحكيم، وما أشبه ذلك. فإن اتّفقت عائلتان أو قبيلتان في اسم كثير الاستعمال، أو لقب منقول عن مهنة أو عمل يتعاطاه الكثيرون، فليس ذلك دلالة على وحدة الأصل إلاّ إذا وُجِدَ دليل آخر من غير جهة اتّحاد الأسماء. أمّا أن يقول واحد اسمه فلان الحدَّاد من بيروت، بأنه يمتّ بقربى إلى فلان الحدَّاد في دمشق لاشتراكهما في اللقب، فهذا من العبث المحض. وهذا أشبه بما لو قلنا إنَّ فلانًا الخوري عند النصارى هو نسيب فلان الخوري لاشتراكهما في الخوري. والحال أنَّ في كلّ بلدة من البلاد التي يقطنها مسيحيون عائلات تنتسب إلى الخوري، ولا نسبة في ما بينها أصلاً، وإنّما وجد من آباء هذه العائلات مَن كان خوريًا. ومثل ذلك الخطيب عند المسلمين؛ ففي دمشق آل الخطيب، وفي حماه آل الخطيب، وفي شحيم من جبل لبنان

(١) مكتوبة كذلك في النص، ولكن المرجَّح أنَّ المقصود هو "شجاع". (المحقّق)

آل الخطيب، وفي برجا آل الخطيب، وليس بين هذه العائلات أقلّ قرابة، وذلك أنَّ لفظة الخطيب تدلّ على صنعة مَن يخطب في الجامع، وهذا يوجد في كلّ بلد فيه مسلمون. ففي لبنان مثلاً، ليس بين بني الخطيب في برجا قرابة مع بني الخطيب في شحيم مع أنَّ الاسم واحد والبلدين متجاوران، ولكن توجد قرابة بين خطباء شحيم وخطباء مزبود، وذلك لأنه معروف في تلك الناحية أنَّ خطباء شحيم هم وخطباء مزبود من عائلة واحدة. ومرادنا ممّا قدّمناه أنه قد يكون الاسم واحدًا، ولا يدلّ ذلك على القربى وهذا يقع في الأسماء والألقاب التي هي كثيرة الاستعمال. فأمّا إذا كان الاسم نادرًا مثل ذبيان، فلا يقال إنه اتِّفاق اسم مع اسم بل يترجّح أنَّ هذه العائلة هي من تلك القبيلة الشهيرة وقد حفظت اسمها ونسبتها من القديم. ومن العائلات من تتغيّر أسماؤها بطروء عوارض جديدة أو بتغيُّر السكن أو الوطن، فيحول ذلك دون معرفة أصلها إلاّ إن وجدت وثائق خطّية، أو كان معلومًا بالتواتر أنَّ هذا الفرع هو من ذلك الأصل.

هذا وإن كنّا قدّمنا أنَّ خروج الدروز كان من الشيعة، فلا يكون المراد به النفي لأن يكون منهم عائلات وأفخاذ وبطون أصلهم من أهل السنّة.

فمن هؤلاء بنو عزّام في معاصر الشوف، وفي مقرن اللجاة بحوران، متواتر أنهم من بني عزّام إحدى فرق الشرارات. وهذه القبيلة الكبيرة متواترة أنها من بني كلب من العرب القحطانية يظهر أنه رحل منها فريق من العزَّام، أحد أفخاذها، إلى جبل لبنان قبل الدعوة الفاطمية، فلمّا جاءت هذه الدعوة كانوا ممّن تلقّاها بالقبول. وإلى هذا اليوم عزّامَ الشرارات وعزّام المعاصر واللجاة يعرفون أنهم من أرومة واحدة. ومنهم فروع في بلاد الشوبك، ومنهم فخذ في بير سبع؛ ومن هؤلاء نزح أناس إلى مصر وسكنوا الجيزة، ومن هؤلاء عبد الرحمن بك عزَّام، أحد وزراء مصر في هذا الوقت، والأستاذ عبد الوهاب عزّام. ويقال إنَّ بني سليم في جباع الشوف أصلهم عرب، فهل هم يا ترى من سليم بن منصور، أو هو اتِّفاق أسماء؟ لا أستطيع الجواب عن هذا. وفي جباع الشوف بنو الخفاجي، وهذا اسم نادر، فالأرجح أنهم من خفاجة من عقيل (بضمّ العين كزُبير) من عرب العراق، وهم هناك قبيلة عظيمة وكانت لها إمارة في القديم. وفي جباع الشوف بنو هلال،

وفي قرنايل المتن بنو هلال، ويجوز أن يكون هؤلاء أصلهم من بني هلال المشهورين بن عامر بن صعصعة من العرب العدنانية الذين نزح أكثرهم إلى أفريقية، ويجوز أن يكون توارد أسماء. وأمَّا بنو العقيلي في السمقانية، فلا شكَّ في كونهم من عقيل (كزُبير)، وهم من أشهر قبائل العرب قديمًا وحديثًا، وقد كان لهم ملك بالجزيرة الفراتية والموصل. وجاء في "مسالك الأبصار" أنَّ منهم طائفة بحلب، وهم أولاد عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من العرب العدنانية. وفي بني فزارة عقيل بن هلال، وفي أشجع عقيل بن هلال أيضًا. ولكن إذا قيل عقيل، فالمراد بهم القبيلة الكبيرة عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. ويترجّح أن يكون بنو العقيلي الدروز من عقيل الذين كانوا في بلاد حلب قد جاء جدّهم إلى جبل لبنان، وكان مسكنهم في عين دارة، ثمَّ انتقلوا إلى دير القمر، ثمَّ إلى السمقانية، وهم من أقدم عائلات بني معروف.

ومن عقيل، بنو عامر، وهم مشهورون. كانت بيدهم جزيرة البحرين. ويوجد في الدروز من يقال لهم بنو عامر ولكن اسم عامر كثير الاستعمال، فليس بضروري أن يكون كلّ من انتمى إلى عامرة هو من بني عامر بن عقيل. أمّا المشايخ العوامرة الدروز في حوران، فالمتواتر أنَّ أصلهم من الرحيبة، ويقال إنَّ هناك عشيرة اسمها العوامرة هم مسلمون سنّيون؛ وأنهم يقولون إنَّ العوامرة الدروز منهم، والله أعلم.

ومن بني هلال حرب قبيلة مشهورة، ومن عرب الحجاز. فهل بيت حرب في غريفة الشوف أصلهم من هذه القبيلة، أو هو توافق أسماء؟ كِلاَ الأمرين جائز.

ومثله بيت طي الدروز في كفرحيم المناصف، يجوز أن يكون لهم جدٌّ اسمه طي، كما يجوز أن يكونوا من نفس قبيلة طي المشهورة التي عددها كحصى البطحاء وهم من العرب القحطانية.

وأما بيت جبور في باتر الشوف، فيكاد يجزم الإنسان بأنهم من عرب الجبور القبيلة الكبيرة الشهيرة في الجزيرة الفراتية والعراق، وذلك لأنَّ اسم "جبور" ليس من الأسماء

المستعملة التي يسمّي بها الناس كثيرًا مثل، محمَّد وأحمد وحسن وحسين وعمر وعلي، وما أشبه ذلك، بل "الجبور" اسمٌ خاصّ نادر، إذا شمل قبيلتين كانتا من أصل واحد.

ومن عائلات الدروز التي لها أقارب من السنّيين، بنو كبّول في عرنة جبل الشيخ، فإنَّ في "أرينة" من جهات قطنا لهم أقارب من أهل السنّة، وهذه القرابة يعرفها الفريقان.

ومنهم بنو أبي شقرا في عمّاطور الشوف أقاربهم بنو المريود من جباثة الخشب في ناحية القنيطرة، ويقال إنَّ الأمراء بني مهدي في البلقاء أصلهم من هذه الشجرة. وبين بني أبي شقرا وبني المريود صلات الأقارب.

وفي شحيم من إقليم الخروب بيت شعبان، مسلمون سنّيون، وفي الشويفات بيت شعبان دروز، فهل هم جميعًا من أصل واحد، أم هو مجرَّد اتّفاق في الأسماء؟ هذا لا نعلمه وكِلاَ الأمرين جائز. ولكن في الشويفات بيت "أبي عرم" (بضمّ العين فسكون) وهم دروز. وفي قرية البرجين من إقليم الخروب، على مسافة أربع ساعات إلى الجنوب من الشويفات، عائلة المشايخ بيت أبي عرم مسلمون سنّية. وليس "أبو عرم" من الأسماء المتداولة المستعملة لنقول إنه اسم على اسم، فالأرجح أنَّ أصل العائلتين واحد.

وفي عرمون الغرب بيت دقدوق دروز، ومنهم في غريفة الشوف. ثمَّ في فلسطين دقدوق وهؤلاء مسلمون سنّة. واسم "دقدوق" من الأسماء النادرة، لا يحتمل أن يكون مجرَّد اتّفاق وتصادف إلاّ احتمالاً بعيدًا.

ومثله بنو الدنف، عائلة شهيرة في القدس الشريف ينتسبون إلى الأنصار، وهم سدنة المسجد الأقصى. وفي قرية بعل شميه(١) من قضاء المتن، بقرب العبادية، بيت الدنف دروز. وليس اسم الدَّنَف (محرّكة) من الأسماء الكثيرة الاستعمال. ومعنى الدنف المريض دائم المرض، فيترجّح أنَّ أصل الفريقين واحد. ومن هذا الضرب بيت "خويص"، مسلمون في القدس، وبيت خويص، دروز في بتاتر من الجرد من لبنان. وهذا اسم نادر، فيترجَّح أنَّ أصل الفريقين واحد. وفي خريبة المتن عائلة دروز

(١) وتُكتب اليوم كلمة واحدة: "بعلشميه". (المحقّق)

يقال لها بيت «القاقون»، ولا يوجد قاقون في كلّ جبل لبنان، وإنّما القاقون قرية ببلا
الرملة من فلسطين، فالأرجح أنَّ أصل الذين في الخريبة من قاقون الرملة.

وفي نيحا الشوف ثلاث عائلات معروفية: بنو قعيق، وبنو ركين، وبنو خميس. و
يُقال لهذه العائلات الثلاث، بيت قعيق، وبيت ركين، وبيت خميس، كما يُقال لسائر
عائلات البلاد، بل يُقال لها بنو فلان، وبنو فلان، ممّا يدلّ على أنهم عرب، وأنَّ عهد
بداوتهم غير بعيد. والمتواتر عن أهل نيحا أنَّ في العراق عشيرتين، اسم إحداها بنو قعيق
واسم الأخرى بنو خميس، وأنهم يسمعون بالتواتر أنَّ أناسًا منهم رحلوا قديمًا إلى الشام.

ومن العائلات المعروفية التي لها عصبية في السنّيين، بنو الأعور في المتن، فإنَّ لهم
أقارب في رنكوس من جبل سنير، أي جبل النبك. وقيل القربة هي مع بيت حماد، أحد
بطون بيت الأعور والشاهد واحد. وكلتا العائلتين تعرف هذه الكلالة بينهما.

وبنو أبي عجرم في بعقلين الشوف لا يبعد أن يكونوا من قبيلة العجارمة في البلقاء.

وفي بكفيا من قضاء راشيا، بيت العسل دروز، ولهم أقارب سنّية. وقيل لي إنَّ في
قرية شبعا من عرقوب جبل الشيخ عائلات سنّية لها أقارب في بني معروف.

وبيت «دمج» في الفريديس، من عرقوب لبنان، دروز، وبيت دمج في برجا من
إقليم الخروب سنّيون. واسم دمج غريب نادر، فيترجّح أن يكونا عائلة واحدة في الأصل.

وآل حمدان في الدروز، أنه[1] كانوا من آل حمدان أمراء حلب، فيكونون من بني
تغلب من ربيعة من العدنانية. وليس عندي إثبات أنَّ آل حمدان المعروفيين هم من
الحمدانيين، الذين منهم سيف الدولة ممدوح المتنبّي، سوى أنَّ آل حمدان المشايخ في
الدروز هم من أعرق البيوتات في الأصالة؛ معدودون في الدرجة الأولى، يصاهرون
آل جنبلاط وشهرتهم تغني عن التعريف. ومقدّمي حمانا آل مزهر، وآل أمين الدين في
عبيه، وهؤلاء من بقايا آل تنوخ، ومنهم آل ناصر الدين في كفرمتى، ويصاهرون آل شمس
في غريفة. وهؤلاء لهم رئاسة من ستّمائة سنة، فأصالة آل حمدان هذه تدلّ على أنهم

(١) المقصود بها «إنّ».

قد يكونون من حمدان حلب. وروى لي ملحم بك حمدان، قاضي الدروز، نقلاً عن المرحوم والده، فقيه عصره، الشيخ سعيد حمدان أنَّ المرحوم الأمير ملحم الأرسلاني ـ جد ابن عمّنا الأمير أمين مجيد أرسلان ـ قال للشيخ سعيد: «قرأت في بعض التواريخ أنكم كنتم أمراء، فلماذا رجعتم مشايخ؟»، فأجابه الشيخ سعيد بقوله: «وأنتم كنتم ملوكًا، فلماذا رجعتم أمراء؟».

وآل كرامة[1] في طرابلس الشام سنّيون، وهم السنام الأعلى في الوجاهة. وقد صرّح عميدهم السيِّد عبد الحميد كرامة بأنَّ بني كرامة الدروز في عين زحلتا العرقوب هم وإيّاهم من أصل واحد. ولم أسمع هل ثمّة على ذلك وثائق خطّية أم لا؟ وإنّما سمعت أنَّ السيِّد عبد الحميد كرامة يروي عن سلفه أنهم من آل كرامة التنوخيين. وفي آل تنوخ بيت يقال لهم آل كرامة. فهل الذين في طرابلس والذين في عين زحلتا جميعًا من بني كرامة التنوخيين؟ الجواب عن هذا: لا مانع من ذلك وإن كان يزداد الثبوت بالوثائق الخطّية.

هذه نبذة من الشواهد على عروبة آل معروف الصريحة، واشتقاقهم من الشجرة الإسلامية المباركة، وليست بجميع الشواهد. فإنَّ هذا البحث يقتضي وقتًا أطول وهذه إنّما هي عجالة حرّرنا فيها ما تيسَّر، ولعلّنا نوفي البحث حقّه في نوبة أخرى.

البرهان السابع، الأخلاق والعادات والمنازع والمشارب، فكلّها عند آل معروف عربية خالصة. فأشرف الأشياء عندهم العرض وضرب السيف وقِرَى الضيف. وترى جميع أحاديثهم وأسمارهم تدور على الشجاعة والكرم. وعندهم بجانب الشدّة والنجدة، الأدب واللطف والتواضع والرقّة والعفو عند المقدرة، ممّا جعل شوقي يقول فيهم:

ولـكـن ذادة وقـراة ضيـف   كينبوع الصفا خشنوا ورقّوا

ولن يتمارى اثنان في أنَّ هذه الأخلاق هي أخلاق الدروز، كما لا يتمارى اثنان في أنها هي الأخلاق العربية التي أقرّت جميع الأمم بأنَّ العرب اتّصفوا بها.

---

(١) وتُكتب اليوم بياء: كرامي. (المحقِّق).

فأولئك الذين يَعِدُون الأجانب بأن آل معروف يكونون إلى جانبهم على الأمّة العربية، قد احتملوا بهتانًا وإثمًا مبينًا. فمهما يكن من العوامل، فإنَّه متى انقسم الناس ولحقَ كلّ فريق بأهله، فأبناء معروف لا يخرجون من الجامعة العربية، ولا من الجامعة الإسلامية، ولن يقدر أحد أن يخلّ بهذه القاعدة. (فمَن نكث فإنّما ينكث على نفسه).

۞ ۞ ۞

الملك فاروق تاج مفرق الشرق
وقرّة عين الإسلام في هذا العصر

قرأت مرّة في « العلم العربي » لمراسل، ما يشبه أن يكون تعريضًا بجلالة فاروق ملك مصر. والحال أنّ هذا الملك الصالح لا يستحقّ شيئًا من التعريض، ويندر أن يوجد ملك، لا في الإسلام وحده، بل في العالم كلّه جامع من السجايا اللائقة بالملوك ما هو مجتمع في هذا الملك الشاب من ذكاء ونشاط وسموّ فكر وتواضع وحميّة وكرم خلق وسعة إدراك، حتّى كأنه، وهو في سنّ العشرين، حائز مدارك الكهول من خيار الملوك. وهو المثل الأعلى في محبّته لرعيّته ومحافظته عليهم والاهتمام برقيّهم المادي والمعنوي، وكما هو مجتهد في إدخال جميع الطرق العلميّة العصرية في حياة مملكته، تراه منصرفًا إلى حفظ الآداب الاجتماعية ونشر الفضائل الأخلاقية التي لا يتوطّد المجتمع الراقي إلاّ بها. وكفاه حلية ومجدًا ما هو عليه من المحافظة على شعائر الإسلام والمواظبة على الفروض الدينية التي هو فيها نعم القدوة لرعيّته والعماد لملّته.

أمّا أنّ مصر اضطرّت إلى قطع علاقتها بألمانيا في أثناء هذه الحرب، فليس هذا وجه لمؤاخذة ملك مصر، ولا رئيس وزرائه علي ماهر باشا الذي بذل كلّ جهده في تنفيذ الاتّفاق المصري البريطاني على وجه لا يجعل فيه سبيلاً لتعنّت إنكلترة، ولكنّه لا يجرّ مصر إلى المشاطرة في هذه الحرب إلى جانب الإنكليز.

وفي الوقت نفسه، متوفّرة عناية الملك ووزرائه إلى الدرجة القصوى بتنظيم الجيش المصري وتسليحه، وبإيتائه من الكمّية والكيفية والعدد، ما يضارع به أحسن الجيوش الأوروبية، وما يجعله الجنّة الواقية لمصر من طوارئ الحدثان. وبديهي أنه متى تمّ تنظيم هذا الجيش وصار إلى القوّة والمنعة اللتين تكفلان سلامة وادي النيل من الغوائل الأجنبية، كان لمصر أن تسيّر دفّة سياستها كما تشاء في لجّة الغمرات السياسية، وكانت من الشرق

مكان القطب من الرحى، فالتفَّت من حولها سائر الممالك العربية وتآلف منها، بطريقة التحالف كتلة واحدة، أعضاؤها، كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضًا ويقف بأطماع الدول الاستعمارية من أيَّة جهة جاءت. أمّا قبل أن يصير الجيش المصري الكفيل بصيانة مصر حقيقة كلّية، فليس من الممكن أن تسلم مصر من نفوذ إنكلترة، وليس من الحكمة أن تسلك معها سبيل المشاكسة؛ وإنّما تكون كلمة الأمّة على قدر قوّة جيشها.

۞ ۞ ۞

الحلفاء يموّهون على الناس
ويدّعون صداقة المسلمين بعد كلّ ما فعلوه بهم ألا إنهم
هم الأعداء حتّى يردّوا الحقوق إلى أصحابها
إنّنا لا نمشي وراء المعتدين

لا يخفى أنَّ الحلفاء قد فشلوا اليوم من جرّ الدول المحايدة إلى ناحيتهم كما كانوا يأملون، وسقط في أيديهم من جهة تجويع ألمانيا كما كانوا يحسبون. وظنّوا أنهم سينالون مأربهم بالحرب البحرية، ويخنقون بها الألمان في مدّة قصيرة، فلم يستفيدوا من حربهم البحرية هذه إلاّ الخسار والعثار والطوام الكبار، وفَقْد ما يقرب من خمسمائة سفينة بين بارجة حربية وباخرة تجارية؛ وإنَّ الذي ظنّوه محصورًا انقلب لهم حاصرًا، وجاءهم بالألغام المغناطيسية التي لم تكن لهم بها حيلة، فصارت تُغرق لهم في الأسبوع أسطولاً. وفي الجمعة[1] الماضية، التي بين ١٠ و١٨ شباط، أغرق الألمان للحلفاء وللمتحايدين الشاحنين إليهم بضائع محمولها ٨٦ ألف طن، باعتراف الإنكليز، و١٣٠ ألف طن بزعم الألمان؛ وهلمّ جرّا والحبل على الجرّار. والأسعار ترتفع في إنكلترة أكثر ممّا ترتفع في ألمانيا. وإذا نظرنا إلى جهة الحرب البرّية، وجدنا عجز الحلفاء عن التقدّم إلى الأمام أعظم، وذلك بما يعترضهم من خطّ «سيغفريد»، ومن متانة الجيش الألماني الذي لا يضارعه جيش؛ وهو الذي قضى على بولونيا في ١٨ يومًا، وقد كان جيشها مليوني مقاتل. وبالجملة، فحالة ألمانيا من الوجهة العسكرية والاقتصادية والسياسية هي اليوم أحسن ممّا كانت في أول الحرب. وحالة الحلفاء هي التي تدعو إلى التفكّر بعد أن ملأوا الدنيا توكيدًا وتثبيتًا أنه لا تمضي إلاّ أشهر قلائل حتّى تدخل ألمانيا في دور الاحتضار. ولذلك رجعوا في هذه المدّة عمّا كانوا يؤكّدونه من قرب أَجَل ألمانيا، وصاروا يقولون إنَّ انتصارهم في النهاية محقّق لكنَّه قد يحتاج إلى سنوات؛ وذلك لأنَّ ألمانيا لا تموت بالهيّن. وما أشبه هذه الأقاويل

(١) تُطلق على «الأسبوع».

مموّهة بالتكاثر والتزيّد والتبجّح بمنابع ثروتهم التي لا تنفد، وحساباتهم المكرّرة عمّا عندهم من المواد الأولية، ومن نحاس ورصاص وقصدير ومطاط وقنّب، إلخ. ونراهم يتبجّحون صباح مساء قائلين: عندنا زبدة أكثر من ألمانيا، وعندنا زيت أكثر ممّا عند ألمانيا، وعندنا حمّص أكثر، وعندنا لوبياء أكثر، وعندنا هكذا نعناع، وهكذا بقدونس، وهكذا خوخ، وهكذا سفرجل، وغير ذلك؛ فنحن أغنى إذن، فنحن أقوى، وإذن فنحن الغالبون. وقد كنت أباحث رجلاً ألمانيًا في هذا الموضوع، فقال: إن كانوا ينتظرون التغلّب علينا بواسطة الحصر البحري والجوع وقلّة العدس والحمّص، فنحن غير محصورين أكثر منهم، وغير جائعين أكثر منهم، ولا تهدّدنا مخمصة فماذا ينتظرون؟

قلت له: يقولون إنّ بنوكهم تغصّ بالذهب، وأنتم لم يبقَ عندكم ذهب. قال لي: ونحن أراضينا تغصّ بالفحم، والفحم هو الذهب. نبيع منه ونقضي حوائجنا، فماذا ينتظرون؟ وكيف ينتصرون؟

والخلاصة أنّ أكثر اعتمادهم اليوم إنّما هو على الدعاية وشراء الجرائد في كلّ بلد، والإنفاق عليها عن سعة، وقولهم عندنا وعندنا ومعنا الحقّ ومعنا القوّة. وقد كرّروا هذه الأقاويل حتّى ملّتها الأسماع ومجّتها الطباع وسئمت منها النفوس وضاقت بها الأنفاس وقاءتها الأفواه. وكلّما كرّروها أملاً بأنها تسحب إلى جهتهم دولاً كانت ملازمة للحيدة، ازداد هؤلاء المتحايدون حذرًا، ورأوا في هذه التأكيدات كلّها علامة ضعف، وما أصدق الحديث الشريف: «ما تزيَّد متزيِّد إلاّ لنقص يجده في نفسه».

وأخيرًا عقدوا آمالهم بسحب الأمّة العربية والمسلمين إليهم، لا لأنهم لا يعلمون ماذا أساءوا إلى العرب وما يضمرون من الشنآن للمسلمين. هذا كلّه يعلمونه، ويعلمون أنه إن أمسك المسلمون بتلابيب غريم يوم القيامة لم يكن غريمهم غير فرنسا وإنكلترة، البانيتين سلطتهما على أنقاض ممالك الإسلام في آسية وأفريقية، والمعتقدتين أنه إذا رفع الإسلام رأسه كان بذلك خفض رؤوسهما. فإلى هذه الساعة، مع شدّة احتياج إنكلترة إلى مصر والعراق وبلاد العرب، ومع تجنيد فرنسا مليونًا وثلاثمائة ألف مقاتل من مسلمي

شمالي أفريقية والسينغال، لا تزال تبدر من أفواههم كلمات تدلّ على ما ورائها في الصدور (قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر). وإنّما يحاولون، لا سيّما في هذه الحزّة الرهيبة، كتمان ما في قلوبهم إلى أن تكون انتهت الأزمة وأمنوا المستقبل. وهذا كما فعلوا بعد الحرب العامّة؛ فإنَّ فرنسا كانت تفكر في تنصير البربر منذ احتلَّت المغرب الأقصى، وتنتهز الفرصة لذلك تقدِّم رِجْلاً وتؤخّر أخرى. فلمّا انتهت الحرب العامّة بفوز الحلفاء، أفرزت هذا المشروع من القول إلى الفعل. وفي هذه النوبة، إن قدّر لهم الفوز ـ وهو بعيد جدًّا ـ يفعلون من عجائب الجبروت بالمسلمين أضعاف ما عملوا عقب الحرب الكبرى؛ وأعجاز الأمور تعرف من صدورها والمستقبل إنّما يُستدلّ عليه بالماضي.

نعم! يعلمون ماذا أساءوا إلى العرب خاصّة، وإلى المسلمين عامّة. ويدركون أنَّ في قلوب المسلمين منهم جراحات لا تندمل، لكنّهم معتمدون على «البروباغندة» الفارغة وشراء ضمائر من جهة، وكمّ أفواه وعقل ألسن بالإرهاب من جهة أخرى، وإرضاء العوام بأمور تافهة ليس فيها أدنى مشقّة، كإرسال باخرة لنقل الحجّاج ـ ونسوا كم منعوا الحجّ في الماضي وكم ثقّلوا شروطه ـ ودفن قتلى المسلمين إلى جهة القبلة ـ ما شاء الله ـ وذبح الكباش في العيد الأضحى، وما أشبه هذا؛ متبجّحين بذلك، يمنّون به على أمّة قد أخذوا من شبّانها مليونًا وثلاثمائة ألف. وهم حراص على أن لا يفكّوا قيدًا من قيودها ولا يعطوها أدنى حقٍّ سياسي، ولا أن يرضوا بالمساواة بينها وبين الجنس الأوربي ولا أن ينشئوا لها مجالس نيابية تمثّلها.

وأساس المجازر التي وقعت في المغرب سنة ١٩٣٧، وفي تونس سنة ١٩٣٨ كان أنَّ جمعيّة من شبان المغرب نهضوا وقدّموا إلى الحكومة الإفرنسية لائحة إصلاحات التمسوها لبلادهم، مآلها المساواة بينهم وبين الإفرنسيين في المعاملات، وطبعوها، ووافقهم عليها، بسبب الاعتدال الذي أفرغت في قالبه، عدد من مشاهير نوّاب فرنسا من الحزب الاشتراكي والحزب الراديكالي. ولا يسع المكان نقل خلاصة هذا الطلب الذي أُعجب به كلّ مَن قرأه. فلم يكن له عند الحكومة الإفرنسية إلاّ أسوأ الوقع، وذلك لأنَّ هذا الاستدعاء فضح سيّئاتها في المغرب، ونشر أمورًا من الظلم لا تقدر فرنسا أن تكابر فيها ولا بحرف واحد.

ولنضرب مثالاً على ذلك كيفية تقسيم فوائد الميزانية المغربية بين المسلمين وبين الإفرنسيين واليهود؛ فمن المعلوم أنَّ الإفرنسيين في السلطنة المراكشية مائة وتسعون ألفًا، واليهود ١٣٠ ألفًا، وأنَّ المسلمين سبعة إلى ثمانية ملايين. فكان ينبغي أن تكون استفادتهم من الميزانية على نسبة العدد، أو بالأقلّ على نسبة التأدية. فالمسلمون هم القائمون بتأدية ٨٠ في المئة من دخل المملكة، أي أربعة أخماس الميزانية. ومع هذا، فإذا وصلوا إلى الاستفادة لم يصل حظّهم ولا إلى الخمسين منها. فإنَّك تأخذ العدلية مثلاً، فتجد مخصّصًا من هذه الميزانية أربعين أو خمسين مليونًا للمحاكم العائدة إلى المائة والتسعين ألف إفرنسي، وعشرة أو ١٥ مليونًا فقط إلى محاكم الثمانية ملايين مسلم، وعدّة ملايين إلى محاكم المائة والثلاثين ألف يهودي - لأنَّ اليهود في المغرب لهم بفضل فرنسا إدارة خاصّة بهم - وخذ المعارف مثلاً، فتجد نفقات تعليم أولاد المائة والتسعين ألف فرنسي هي الثلثين من مخصّصات المعارف، ونفقات تعليم أولاد الثمانية ملايين مسلم هي الثلث، وهلمّ جرًا على هذا النمط في جميع الإدارات. وقد حسبنا مرّة بالتدقيق نسبة استفادة المسلمين من هذه البودجة إلى غيرهم، فوُجد الإفرنسي الواحد مستفيدًا بقدر ٤٠ مسلمًا، واليهودي الواحد مستفيدًا بقدر ٢٠ مسلمًا. ولا تقدر فرنسا أن تكابر ولا أن تناكر في صحّة هذه الأرقام لأننا نحن كنّا أول مَن نشر هذه الفضائح في مجلّتنا «لا ناسيون آراب»، نقلناها عن الجريدة الرسميّة للحماية الصادرة في مدينة الرباط. ولم يكن بودجة سنة واحدة، بل بودجات خمسة أعوام من ١٩٣٠ إلى ١٩٣٥، وكلّها على هذه النسبة. وأغرب ما وجدنا فيها عدّة مئات ألوف من الفرنكات تؤدَّى لمبشّري الديانة الكاثوليكية، ومقدار النصف من ذلك يؤدَّى لمبشّري البروتستانت، ولا يؤدَّى من هذه البودجة فلس واحد لوعّاظ المسلمين. ولمّا كان أربعة أخماس البودجة هو من مال المسلمين، كأنهم يؤدّون من جيوبهم لأجل تنصير أولادهم، إذ ليس هناك دعاية مسيحية سواء للكاثوليك أو للبروتستانت إلاّ بين المسلمين. فهذه البودجة المراكشية التي هي آية الآيات في الظلم والتحامل، وغاية الغايات في خلع الرسن، كنّا نحن السابقين إلى نشرها بحروفها من خمس سنوات، ولم يقدر الإفرنسيون أن ينكروا منها حرفًا. وكيف يقدرون أن ينكروا ونحن نقلناها

عن جريدتهم الرسميّة؟ ثمَّ جاءت جمعية العمل القومي المغربية، فوضعت قضيّة هذه البودجة في جملة المطالب التي قدّمتها إلى الحكومة الإفرنسية، وذكرت مظالم أخرى كثيرة، وطَلَبَت إعادة المحاكم الشرعية التي ألغتها فرنسا في بلاد البربر؛ مع أنَّ البربر مسلمون، ومع أنَّ فرنسا تعهّدت في المعاهدة التي عقدتها مع عبد الحفيظ، سلطان المغرب الأسبق، أن تحترم الشعائر الإسلامية وأن لا تبدّل منها شيئًا. واقترحت عصبة العمل القومي المغربي إصلاحات لا يقدر عاقل أن يماري في ضرورتها. ولكن هذه الإصلاحات لو تمّت، كانت هي المرحلة الأولى في طريق الحرّية المغربية ومنع الاستعمار. فنقمت فرنسا على هذه العصبة نهضتها لمقاومة العبودية التي تحاول فرنسا أن لا تفكّ شيئًا من قيودها وأغلالها عنهم، وصارت تفكّر في القضاء على هذه العصبة واقتلاع جذورها. ولكنَّ الشعب المغربي كان كلّه وراء العصبة يشدّ أزرها. ولمَّا تشكّلت في فرنسا الوزارة المسمَّاة بالشعبية برئاسة المسيو بلوم، ونفوذ الاشتراكيين، نشق المغرب لأول مرّة بعض نسمات الفرج، وأمكن عصبة العمل القومي أن تظهر نفسها، واندمج فيها سبعة آلاف شاب في جمعية واحدة، وكان مقدّرًا أنه سينضمّ إليها ١٢٠ ألف شاب من جميع مدن المغرب، وأصدرت لنفسها جريدة «الأطلس» بالعربية وجرائد في معناها بالإفرنسية، فعرفت فرنسا أنَّ العمل القومي هو المغرب، وأنه إن بقيت عصبته هذه استردّ المغرب استقلاله وسرت عدوى الاستقلال إلى الجزائر وتونس، فقامت قيامة الحزب الاستعماري والعسكري، وأجبروا وزارة بلوم الاشتراكية على تعيين الجنرال نوغيس مقيمًا عامًا بالرباط نظرًا لما يعهدون من شنآنه للمسلمين وشدّة وطأته على الوطنيين. فجاء هذا مصدّقًا لشهرته في الخبث والغشم واستحلال كلّ إثم في سبيل الاستعمار الإفرنسي، وأخذ يتحرّش بالوطنيين تحرّشًا للإيقاع بهم، فأصدر أمره بإعطاء قسم من مياه مكناسة الزيتون إلى ثلاثة من المستعمرين الإفرنسيين غصبًا بلا أدنى مسوغ، فانقطع بذلك جانب من المياه عن الجوامع والحمّامات والبساتين، وضجّ الأهالي وراجعوا رئيس بلدية مكناسة الإفرنسي ـ وكلّ رئيس بلدية في بلدان المغرب لا بدَّ أن يكون إفرنسيًا ولو كان فيها مائتا ألف مسلم ولم يكن فيها إلاّ إفرنسي واحد ـ فلم يحصلوا على طائل. فعرضوا أمرهم للسلطان، فلم يقدر على شيء؛ فراجعوا المقيم العام، فصدر أمره باعتقال خمسة من الأعيان القائمين بالشكاية من هذه المظلمة

الفاحشة. فاجتمع الأهالي وساروا بتظاهرة سلمية في الشوارع احتجاجًا على اعتقال أعيانهم المتظلّمين من قطع مياههم، فجاء الجند الإفرنسي وقمع هذه المظاهر السلمية بالرصاص، وطرح على الحضيض من أهالي مكناسة ٢٣ قتيلاً و٦٠ مجروحًا. وكان هذا تحرّشًا محضًا بأمر المقيم العام يجعله وسيلة لقضاء غرضه من عصبة العمل القومي التي كان يعلم أنها ستقوم بتظاهرات احتجاج على مجزرة مكناسة هذه، فيصطادها حينئذٍ كما يريد بحجّة أنها تشاغب على السلطة. وهكذا كان، فإنَّ هذه المذبحة في مكناسة تلتها مظاهرات احتجاج بفاس والرباط والدار البيضاء ووجدة، وسائر المدن والقصاب، وفي جميعها فتك الجند الإفرنسي بالأهلين.

وطُرح على الأرض عشرات من القتلى ومئات من الجرحى، ومن ثمَّ أصدرت فرنسا الأمر ـ والأمر يصدر من فرنسا لكن بأَسم السلطان كما لا يخفى ـ بإلغاء عصبة العمل القومي واحتلال أنديتها والقبض على المشاغبين بزعمهم. فقبضوا على سبعة آلاف شخص حاكموا منهم ألفين وخمسمائة؛ فحكموا على بعضهم بالحبس سنتين مع الأشغال الشاقة، وعلى آخرين بالحبس سنة. وساقوا إلى الصحراء نخبة أدباء فاس وتلاميذ جامع القرويين، وهناك، بحجّة الأشغال الشاقّة، عذّبوهم عذابًا نكرًا، وكانوا يضربونهم كلّ يوم ضربًا مبرحًا ويهينونهم ويشتمونهم، واستمرّ عذابهم على هذه الحالة شهرًا من الزمن إلى أن مات الأستاذ الشيخ محمَّد القرّي من شدّة الضرب وسقط آخرون مغشيًّا عليهم. وكلّ هذا قام به ضبَّاط إفرنسيون بأمر الجنرال نوغيس نفسه. وجاءنا به تقرير مفصّل نشرنا ترجمته بمجلّتنا «لا ناسيون آراب» ونشرناه بجريدة «الشورى» بمصر، ووصلت هذه الأخبار، ومنها موت محمَّد القرّي إلى باريز، فاستنكرها أناس كثيرون، واحتجّ عليها حزب السوسياليست وأفهموا الحكومة أنَّ هذا العمل يضرّ بفرنسا ويهيّج الأحقاد. واحتجّ عليها حتّى نفس الحزب الكاثوليكي، وكتب أساقفتهم في الجرائد يبرؤن من هذه الفظائع. فأرسلت باريز بأوامر إلى نوغيس بالكفّ عن التعذيب والإهانة، فكفّ عنها بعض الشيء ولكن لم يقم بأدنى تحقيق عن كيفيّة قتل محمَّد القرّي وجرح رفاقه الذين نُقل منهم عدّة إلى المستشفى.

أمّا رؤساء عصبة العمل القومي، فنفوهم إلى جهات بعيدة. وكان أشدّ الغضب على محمَّد علاّل الفاسي الذي يعرفون مقدرته ونبوغه وشدّة نفاذه، ويرون في وجوده خطرًا على الاستعمار الإفرنسي، فأخذوه بالطيَّارة إلى حيث لا يعلم أحد ولا أهله، ولم يدرِ الناس كيف ذهبوا به إلاّ في ما بعد، فعلموا أنهم طاروا به إلى « سان لويس » في السنغال، ثمَّ طاروا به طيرة أخرى ونزلوا به في مكان على البحر الأطلنتيكي، وساروا به منه في باخرة إلى بلاد القابون عند خطّ الاستواء. وقد اختاروا له هذا المكان تعمّدًا حتّى يقضوا على حياته من دون رمي بالرصاص ولا جلد بالسياط، كما فعلوا بمحمَّد القرّي، وذلك أنَّ القابون أكثر بلاد الدنيا حميّات وأشدّها حرًّا. وكثيرًا ما ترسَّل إليها أناس حتّى من أنفس الإفرنسيين بأن ينقلوه إلى منفى آخر غير وبيء، فأبوا له إلاّ القابون لما عندهم من الحرص على تعذيبه إلى أن يموت، ولما يعلمون من نحافة بنيته وعدم تحمّل جسمه. وصادف أنه كان في الباخرة التي أركبوه بها شاب عربي لبناني من آل معروف مهاجر إلى أفريقية، فرأى ضبَّاط الإفرنسيين الموكلين بعلاّل الفاسي يهينونه ويسيئون معاملته، ولم يكن اللبناني يعرفه، ولكنّه أخذته الحميّة القومية إذ رأى هؤلاء يهينون شابًّا عربيًّا مثله، فاعترضهم ووبّخهم، فقالوا له: ما مدخلك أنت؟، فقال لهم: مدخلي أنه عربي مثلي وعار عليكم أن تهينوا أسيرًا هو في قبضة يدكم. ولمّا صعد الشاب المعروفي اللبناني إلى البرّ كتب إليَّ بالبريد الجوّي يخبرني بما شاهد بعينه وسمع بأذنه.

وأمّا سائر رجالات « عصبة العمل القومي »، وكلّهم من نوابغ الأمّة العربية مثل، محمَّد بن الحسن الوزّاني، وعمر بن عبد العزيز عبد الجليل، ومحمَّد اليزيدي، وأحمد مكوار، وغيرهم، فقد نفوهم إلى الصحراء ولم ينجُ من النفي منهم إلاّ أحمد بلافريج الذي كان جاء إلى باريز يبسط قضيّة وطنه، فمرض فيها مرضة شديدة كادت تودي بحياته، فنقله أصحابه إلى مصحّة في سويسرة. ولا يسع هذا المقام ذكر كلّ ما فعله الجنرال نوغيس هذا من الأفاعيل العدائية نحو المسلمين، ولا سيّما إقفاله للمكاتب القرآنية ومحاربته للتعليم الإسلامي وللغة العربية. وهو ممّن يرى وجوب محو الإسلام من شمالي أفريقية تدريجًا حتّى تأمن فرنسا على مستقبلها فيه. ويرى أيضًا أنَّ استعمال العدل والمساواة

مع المسلمين لا يأتي بالفائدة المطلوبة من استجلاب قلوبهم، إذ إنّهم لا يخلصون لفرنسا ما داموا مسلمين. فالطريقة الوحيدة التي تصلح للمسلمين، بزعمه، هي الضغط والعسف وإظهار القوّة، مع تسليتهم ببعض المنافع المادية التي ليس منها محذور سياسي، ومع الاعتماد على الدعاية وشراء ضمائر الذين لا خلاق لهم ولا أخلاق، من المسلمين، ليمدحوا فرنسا ويقذفوا ويطعنوا بمن يشهّر بمظالمها ويجرّس بسوء معاملتها للأمّة الإسلامية. هذه هي مبادئ نوغيس التي لا يزال يقدّم بها التقارير تلو التقارير إلى باريز ويحمل حكومته عليها. وقد وجدت هذه السياسة هوى في قلب دالاديه، رئيس وزراء فرنسا الذي امتاز عن غيره بسياسة الجبروت، وبالعداوة والبغضاء للمسلمين، ونكث بمعاهدة فرنسا مع سورية بحجّة أنّ استقلال سورية يقوّي الأمّة العربية، وأنّ تقوية الأمّة العربية أشدّ الأمور خطرًا على فرنسا لأنها تنتهي باستقلال شمالي أفريقية. فيجب على فرنسا، بحسب زعم دالاديه، أن تنصب للعرب العداء الحقيقي في كلّ مكان وتمنع اتّحادهم، حتّى تمنع نهضتهم وتأمن فرنسا على شمالي أفريقية. يريد دالاديه أن يأخذ موثقًا على الدهر ويتّخذ عهدًا على الفلك الدوّار أن لا يدور إلاّ بحسب شهوة فرنسا إلى الأبد. هكذا يخيّل للناس البطر بالعزّ والسّكَر بالقوّة، ولا يعلمون أنّ الأمر لله لا لفرنسا وأنه: ﴿إذا جاء أجَلَهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾.

وأمّا في الجزائر، فلا يزال المسلمون يُعامَلون كطبقة منحطّة لها قانون خاصّ بها يسمّى L'indigenat، وهو يجعل المسلم غير مساوٍ، لا للإفرنسي فقط، بل غير مساوٍ لأيّ أوربي، وغير مساوٍ لأيّ يهودي، وغير مساوٍ حتّى للمالطي. ولا توجد طبقة أدنى من طبقة المسلم في الجزائر غير طبقة الحيوانات، مع أنّ مسلمي الجزائر أنبل شعوب الأرض.

وبالفعل، وُجد مكتوبًا على أبواب بعض الأندية الإفرنسية هناك هذه الجملة « ممنوع دخول العرب الكلاب إلى هنا». وقتل أوروبي أوربيًا[1] في مدينة الجزائر، فبرّأته المحكمة بقوله إنّه عندما قتله ظنّه عربيًا؛ فكأنّ قتل العربي جائز في قانونهم لا يستحقّ قصاصًا. ولم يعهد أنّ إفرنسيًا قُتِلَ بمسلم، لا في الجزائر، ولا في تونس، ولا في المغرب الأقصى،

---

(١) أوروبيًا.

مع كثرة اعتداءات الإفرنج على المسلمين. كذلك لم يعهد أنَّ مسلمًا حُكِمَ له في دعوى على إفرنسي. وإذا كان لا وجه أصلاً للحكم على المسلم أجبروه على قبول الصلح. ومن كان في شكٍّ من هذا الأمر، فعليه بمراجعة سجلاّت محاكم الجزائر منذ مائة سنة إلى الآن. وفي سنة ١٩٣٠ قتل إفرنسي مسلمًا في فاس، فبعد «اللتيا والتي»[١] والصراخ الشديد ومراجعات لا تنتهي، حكموا على الإفرنسي القاتل بالحبس سنتين لا غير، ولكن لم يحبسوه فعلاً، بل أعدّوا له غرفة كان يجلس فيها نهارًا وعند المساء كان يذهب إلى بيته. وبقي هكذا شهرين أو ثلاثة ثمَّ انقطع عن انتياب الغرفة. وهذه مسألة ليست من المسائل التي سمعناها من أفواه الناس، ولكنَّها اتّصلت بنا في حين وقوعها، وكتب لنا بها أهل الدم أنفسهم من فاس، فنشرنا القصّة في مجلّتنا «لا ناسيون آراب» ونصحنا فرنسا بالإقلاع عن هذه الأعمال الفظيعة المضرّة بها، فضلاً عن ضررها بالمسلمين. فقابلتنا الجرائد الإفرنسية على ذلك بسفاهتها المعهودة، وبالطعن والقذف دون أن تقدر على إنكار الحادثة نفسها. وهذا هو سلاحهم الدائم؛ كلّما ذكر لهم ذاكر سيّئة من سيّئاتهم أو شناعة من شناعاتهم، ولم يقدروا على المكابرة فيها على كثرة مكابراتهم، أوسعوه قذفًا وطعنًا وسبابًا، وجعلوه عدوًّا أبديًّا لفرنسا، قائمًا بدعاية ألمانيّة أو إيطاليّة أو بولشفيّة أو غير ذلك. ولا يوجد في الدنيا صحافة أسهل عليها الافتراء والاختلاق من صحافة فرنسا إذا حملت على شخص لا يريد أن يسكت على موبقاتهم، أو يرفع شكواه من جورهم، أو يبيع ضميره منهم. ونحن مع ذلك نتحمّل أذاهم بالصبر الجميل، ونتمثّل بقوله تعالى: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا وأن تصبروا وتتّقوا فإنَّ ذلك من عزم الأمور﴾.

وكان للجزائر والٍ اسمه «ڤيوليت»، رأى بعينه ما يعانيه المسلمون الجزائريون من الظلم والعسف ومساس الكرامة. وتأمّل أنَّ استمرار هذه الحالة الفظيعة ستكون له عاقبة وخيمة على فرنسا في يوم من الأيام. ففكّر في إرضاء المسلمين بعض الشيء، وتصوّر قانونًا يجوز لهم انتخاب نوّاب منهم للبرلمان الإفرنسي، وذلك على أن يكون لطبقة

(١) تُطلق للدلالة على السجال والأخذ والردّ في أيّ موضوع.

من المسلمين محدودة، عددها ١٥٠ ألفًا، حقّ الانتخاب للبرلمان. وهذه المئة والخمسون ألفًا هي من أصل ستة ملايين ونصف مليون مسلم هم مسلمو الجزائر. وبالرغم من ضؤولة هذه المنحة، قامت قيامة المستعمرين الإفرنسيين من أجلها واستعفى جميع رؤساء بلديات الجزائر - وكلّهم إفرنسيون كما تقدّم - في يوم واحد احتجاجًا على إدخال طبقة من المسلمين في الانتخاب، قائلين إنَّ هذا مقدّمة للمساواة بين الإفرنج والمسلمين وهذا ممّا لا يمكن أن يرضوا به. أمّا أخذ مليون وثلاثمائة ألف شاب مسلم للجيش الإفرنسي، وأخذ ثلثي أرض الجزائر ليتمتّع بذلك الإفرنسيون وعدم السماح للمسلمين بأن يملكوا أكثر من ثلث الأرض، فهذا بأجمعه يلزم أن يكون حتمًا وأن يكون بالقوّة القاهرة. وإيّاك ثمَّ إيّاك أن تقول مع هذا إنَّ فرنسا ظالمة غاشمة أو إنَّها ترهق الوطنيين عسرًا؛ بل إيّاك ثمَّ إيَّاك أن تدع القول إنَّ فرنسا هي محرّرة الشعوب وإنَّها أمّ الحرّية وملجأ الديمقراطية! بل يجب عليك أن تشاهد كلّ هذه الأمور بعينك، وتسمعها بأذنك، وتقرأها في دساتير فرنسا، ثمَّ تغالط نفسك وتكابر حسّك وتقول: حاشا الله أن يكون هذا ظلمًا، وما أبعد العيب والنقصان عن شرف فرنسا! وإنَّ فرنسا هي التي في الدنيا أوجدت حقوق الإنسان (كما قال لطفي الحفَّار)، فإن لم تقل هذا فأنت الفاعل التارك الذي اشترَاكَ موسوليني أو هيتلر أو ستالين لتطعن في فرنسا المنزّهة عن العيب، وتروِّج سياسة أعدائها!

وأمّا في تونس، فإنَّ ثمانين ألف إفرنسي يملكون ثلث المملكة التونسية ومليونين وثلاثمائة ألف مسلم يملكون الثلثين الباقيين. وما أخذ الثمانون ألف إفرنسي تلك الأراضي إلاّ سلبًا وغصبًا من مال التونسيين؛ إذ إنَّ فرنسا سلبت تونس أراضيها الأميرية وكثيرًا من أوقافها، وسلّمتها إلى المستعمرين الإفرنسيين. وما كفى التوانسة غصب أراضيهم حتّى أُجبِروا على دفع فائض القروض التي تُعقد لأجل تقوية المستعمرين الإفرنسيين. ومثله في مراكش التي سلبت فرنسا فيها من أراضي المسلمين ثمانمائة ألف هكتار وسلّمتها إلى المستعمرين من أبنائها، ثمَّ فرضت على المراكشيين أن يدفعوا فائض مئات ملايين أقرضتها فرنسا للمستعمرين على حساب حكومة المخزن. وحسبُك أنَّ ٦٠ في المئة من ميزانية تونس المالية يذهب في رواتب المستخدمين الإفرنسيين، بينما الفلاّح التونسي لا

يكاد يصل إلى قوت يومه من ثقل الضرائب التي عليه. وقد طال ضجيج التونسيين من هذه الحالة ولم تبقَ وسيلة إلاّ استخدموها لإقناع فرنسا بالتناهي عن هذا الإسراف في الظلم والتحامل، فلم يفوزوا بطائل إذ كلّ شيء ممكن في الدنيا أكثر من أنَّ الفرنساوي يغيّر طبعه. وغاية ما فعلوا هي أنهم أوجدوا الشقاق بين حزب الدستور التونسي المُطالب بالإصلاحات، أملاً بأن يشغلوا التونسيين بعضهم ببعض كما شغلوا الجزائريين بعضهم ببعض، وما أسهل الشقاق بين الضعفاء! وفي سنة ١٩٣٨، عندما ضمّت ألمانيا النمسا إليها بدأ الناس يتكلّمون على قرب وقوع الحرب ـ ولم يخطئوا ـ فنهض الحزب الدستوري الجديد برئاسة الحبيب أبي رقيبة وصار يطالب فرنسا في الخطب والجرائد بتأسيس حكومة دستورية ذات مجلس نيابي وحكومة دستورية، وقال زعماء هذا الحزب للإفرنسيين: غدًا ستدعون التونسيين إلى الحرب كما دعوتمونا في الحرب العامّة فذهب منّا في سبيلكم ٤٥ ألف قتيل، (وأَخْذُ فرنسا عسكر تونس للقتال في سبيلها محض اعتداء، إذ إنَّه مخالف للمعاهدة التي بين فرنسا وتونس) فهذه المرّة لا نريد أن نقاتل ولا أن نُقتل في سبيلكم إلاّ إذا كانت لنا حكومة نيابية تمثيلية.

وهذا كلّ ما طالب به التونسيون، وساروا بمظاهرة سلمية في الشوارع. فساقت عليهم فرنسة الجنود، فأمطرتهم وابلاً من الرصاص، فقُتِل في مظاهرة تونس وحدها ثلاثون شخصًا، وقُتِلَ في صفاقس وقُتِلَ في القيروان، وغيرها. وهذا عدا مذبحة كان العسكر الإفرنسي قد أجراها في « متلوية » قبل ذلك بسنة، قتلوا فيها من العَمَلة التونسيين ٣٠ شخصًا لأجل أنهم أضربوا عن العمل. ثمَّ قبض الإفرنسيون على الحبيب أبي رقيبة ورفاقه وعلى ألفي شخص من المطالبين بالحكومة النيابية، ثمَّ حكموا على سبعمائة منهم بالحبس سنتين. وكذلك حكموا في الجزائر على مسالي الحاج (رئيس الحزب الوطني الجزائري) وعلى بضعة عشر شخصًا من رفاقه بالحبس سنتين، وأهانوهم وعذّبوهم لأنهم طالبوا بحكومة نيابية للجزائر، وطلبوا مساواة المسلمين مع الأوروبيين.

ـ فرنسا مستعبدة الشعوب الحرّة

انظروا إلى هذا الحوب الكبير، فهذه هي الدولة الزاعمة أنها أُمّ الحرّية، وكهف «الديمقراطية»، ومحرّرة الأمم المستعبَدَة، ولو تأمّل الإنسان أعمالها لعلِمَ أنها مستعبدة الأمم الحرّة، والدولة التي لم يوجد أسوأ حالاً من الأمم التي يبتليها الله بالوقوع تحت حكمها.

ـ فظائع الفرنسويين في سورية

وأمّا سورية، فتاريخ أعمال فرنسة فيها من ٢٢ سنة إلى اليوم ليس بالتاريخ الذي يرويه الخَلَف عن السَلَف، أو يقرؤونه في الكتب والسِّيَر، بل هو تاريخ شاهده الناس بأعينهم، وسمعوه بآذانهم، ولمسوه بأيديهم، وفقهوه بقلوبهم، وعرفوا مقدار الحرّية التي تزعم فرنسة نشرها بين الأمم، ومبلغ الشفقة التي تعامل بها الضعفاء! وعرفوا أيضًا مقدار حفظها للعهود والمواثيق، وهي التي بعد ثلاث عشرة ثورة في سورية عقدت مع سورية معاهدة سنة ١٩٣٦، وشرعت في إنفاذها فعلاً. وبعد أن وقّعت عليها، ووعدت بأخذ التصديق اللازم لها من «برلمانها»، عادت فعرجت فيها العرجة الأولى حتّى تضمّ إليها علاوات لم تكن في صلب المعاهدة، فأمضالها لها جميل مردم، رئيس الحكومة السورية، رجاء أن يصدِّق «البرلمان» الفرنسي المعاهدة ويتمّ الأمر. ولمّا رأت هذا التساهل من جميل مردم، ازدادت طمعًا فيه وراودته على علاوات أخرى شديدة الإجحاف بحقوق السوريين، فأمضاها أيضًا بلا علم أهل سورية، وارتكبها شنعاء كانت سبب سقوطه من الوزارة. ولكن نال بهذه العلاوات تصديق فرنسة على هذه المعاهدة مرّة ثانية في سنة ١٩٣٨، وعلى الرغم من هذا التوقيع المكرّر والعهد المؤكّد، رجع «المسيو دلادييه» فنقضها من أصلها، وأعاد الأمر في سورية إلى ما كان عليه قبل المعاهدة. وحلّ المجلس النيابي السوري الممثِّل للأمّة أتمّ التمثيل لإعلانه استقلال سورية ورفضه الانتداب، رَضِيَت بذلك فرنسة أم لم ترضَ.

ـ دعوى فرنسة باطلاً المحاربة لأجل نقض العهود

فهذه هي أيّها الناس تلك الدولة التي تزعم أنها إنّما تحارب هيتلر لنقضه العهود وخيسه بالمواثيق واعتدائه على استقلال بولاندة[1] بعد أن كان قد اعترف بها. ولا تنسَ تعهّد فرنسة لجمعية الأمم بالمحافظة على كلّ شبر من تراب سورية، ثمَّ نزولها لتركية عن مقاطعة اسكندرونة ناسية ما أخذت على نفسها من هذه الأمانة، وناظرة إلى العهد نظرها إلى الحلس الملقى، وذلك في مقابلة تعهّد تركية بخوض الحرب إلى جانب الحليفات ضدّ ألمانية؛ كأنَّ المائة والعشرين مليون جنيه التي أخذها الأتراك من الحليفات على وجه قرض، لا يدفع الترك منه فلسًا واحدًا غير كافٍ لإرضاء تركية وإشباعها، فأهدوها اسكندرونة وتوابعها. ويقال إنَّ بين الفريقين اتفاقًا خفيًّا على ولاية حلب، أنهم إن خرجوا من الحرب ظافرين يعطونهم إيّاها ويلحقون الحبل بالدلو. وماذا عليهم من كلّ ذلك وهم يجدحون من سويق غيرهم؟

ـ تصرّف فرنسة غير الشريف وتصرّفها بالأمانة

أمّا أنهم يخرجون من هذه الحرب ظافرين، فقضيّة أملهم فيها ضعيف. ولكن على كلّ حال وكيف انتهت الحرب، فقد خاس الإفرنسيون بالعهد، وتصرّفوا بالأمانة التي عهد إليهم بها تصرّفًا أقلّ ما يقال إنّه تصرّف غير شريف سجّل عليهم الذم الشنيع في التاريخ، ويوجب مذ اليوم هزوء الذين يسمعون فرنسة تعلن كونها لم تحارب هيتلر إلاّ من أجل نكثه بالعهود! وكونها تساعد فنلاندة[2] حنوًا على الضعفاء! ونحن جميعًا نكره عمل روسية بفنلاندة، ولكنّنا نعلم أنه لو كانت روسية سارت مع الحليفات لما انتطح لهم عنزان من أجل فنلاندة.

---

(١) بولندا.

(٢) فنلندا.

ـ متزعّمو العرب يتاجرون بأوطانهم على ظهر شعوبهم

هذه هي الدولة التي قام أناس من متزعّمي العرب المتاجرين بأوطانهم على ظهر الشعب العربي المسكين، يمتدحونها ويدعون الناس إلى نصرها وتأييدها، وينعتونها بنعوت الحرّية و«الديمقراطية». ويقولون إنّها هي التي أسّست حقوق الإنسان، وهم يعلمون أنهم في أقوالهم هذه يكذبون، وأنهم لا يزدادون إلاّ صغارًا في نظر هذه الدولة التي يتزلّفون إليها بالكذب والبهتان (انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون)، لشدةّ ما ألحق هؤلاء العار بالأمّة العربية ولشدّة ما أمعنوا في خيانة وطنهم وأمّتهم!

ـ الدولة الإنكليزية والإسلام

وأمّا الدولة الديمقراطية الأخرى، حليفتها وشريكتها في القضاء على استقلال العالم الإسلامي وهدم ممالكه الواحدة بعد الأخرى، فهي تلك الدولة التي شادت مملكتها في الشرق على أنقاض الدول الإسلامية. وما اكتفت بأخذها سلطنة الهند العظمى من أيدي المسلمين وضربها المسكنة على سلطنتي عمان وزنجار وإمارات البحرين والكويت ودبي وممالك حضرموت والكلاء والنواحي التسع ولحج، حتّى جاءت تحاول تشييد سلطنة لليهود على قلب الأمّة العربية. ووضعت يدها على شرق الأردن، وانتزعت العقبة من أرض الحجاز المقدّسة، وأجبرت مصر على الاعتراف لها بأنها قسيمتها في السودان، وغير ذلك من الأفعال والاعتداءات التي حاولت بها عرقلة سير الأمّة العربية إلى الأمام. وهي التي كانت قد أعدّت العداوة والبغضاء بين العرب والترك صدعًا لبيضة الإسلام، فأثارت العرب على الترك في الحرب العامّة ووعدتهم المواعيد، ومنّتهم الأماني، حتّى قاموا وانفصلوا عن الدولة العثمانية، ثمّ طالبوا الإنكليز بما وعدوهم به. فلمَّا انتهت الحرب، غدروا بهم وأرادوا أن يستعمروا مصر والسودان والعراق وأطراف جزيرة العرب من جهاتها الأربع. وزادوا الطين بلّة بالمشروع اليهودي ـ الصهيوني الخبيث الذي، إن تمَّ، كان أعظم ضربة على الأمّة العربية، وهو المشروع الذي ارتكبت إنكلترة لأجل إنفاذه من الأعمال

الوحشية في فلسطين ما لا عين رأت نظيره، ولا أذن سمعت بمثله. ثمَّ لمّا رأت أنَّ العرب لا يتركون فلسطين، عادت فاتّفقت مع الترك عليهم ووعدت هؤلاء غنائم من كيس العرب. وهي هي التي برئائها الشهير المضروب به المثل، تزعم أنها أعلنت الحرب على هيتلر من أجل نقضه العهود وارتكابه القسوة في معاملة المستضعفين. وقد تناست إنكلترة أعمال نفسها من هذا القبيل، وأنَّ تاريخها طافح بالفظائع والفجائع، وذهب عنها أنَّ دولتين كإنكلترة وفرنسة، قد غصبتا حرّية ستمائة مليون آدمي من سكّان الكرة الأرضية، ليس لهما أن تفتحا الفم في ذكر الدفاع عن حرّية البشر، ولا سيّما حرّية المسلمين الذين منهم ١٥٠ مليون نسمة يرسفون في قيود هاتين الدولتين، بينما هيتلر ليس عنده مسلم يضيمه. فإن قيل إنَّه إن صحّ له لم يقصّر في استعباد المسلمين، أجبنا بأنه ما تفعله إنكلترة وفرنسة بالمسلمين هو واقع راهن ثابت لا جدال فيه، وليس الواقع الراهن الثابت الملموس باليد، المحسوس بالجوارح الخمس، ممّا يوضع في كفّة واحدة بإزاء الشيء الذي لا يزال في عالم الغيب مهما كان من إمكانه. ونحن لسنا ممّن يدافع عن سياسة هيتلر ولا ممّن يماري في كونه، لو أتيحت له الفرصة، لما قصّر في إرهاق المسلمين. ولكنّنا نقول إنَّ على الذين يحذّرون الناس من سلطنة هيتلر المستقبلة أن يرفعوا عن الناس سلطتهم الحاضرة، لأنَّ الحاضر أحقّ وأبرز من المستقبل. وقد أشار هيتلر في خطبته أوّل من أمس (٢٤ شباط) إلى خداع الإنكليز ورئائهم، وكيف كذبوا على إيطاليا ونكثوا بعهدهم إليها، وكيف كذبوا على الهنود وعلى العرب على أثر الحرب العامّة؟ وليس في الدنيا إنسان يقدر أن يكابر في صحّة كلام هيتلر هذا بحقّ إنكلترة إلاّ من سلبه الله الحياء والوجدان، وأسقطه عن درجة الإنسان.

- كلمتنا الأخيرة بعد أن نكثت الحليفات بوعودهنَّ

والآن بعد أن نكثت الحليفات بعهودهن إلى العرب - وعهد سورية لم يمضِ على النكث به إلاّ أشهر معدودات - لم يكثر عليهنّ أن يطالبن العرب بالسير معهنَّ إلى محاربة الروس والألمان بحجّة أنَّ الأمّة العربية إن لم تنهض لمقاتلة الروس تعرّضت لخطر البلشفة.

فنقول للحليفات: أيا ترى لو كان ستالين رضي بمحالفتكنّ في شهر آب الماضي، عندما كانت بعثتكنّ العسكرية في «موسكو» تذاكر أركان حرب الروس في كيفيّة الهجوم على ألمانيا، فما كان يومئذٍ خطر للبلشفية؟ أفلم يولد خطر البلشفية هذا إلاّ من بعد أن أبى ستالين أن يحارب هيتلر في صفكنّ؟ أتهزأن بعقول الناس إلى هذا الحدّ وتَنْسَين أنكنّ إنّما تهزأن بأنفسكنّ؟ أفتجعلن الأسوَد أبيض عندما تشأن، وتجعلن الأبيض أسوَد عندما ترغبن، أفلا تخجلن؟ ثمَّ، لماذا يجب على العرب أن يسيروا في صفوفكنَّ لمحاربة الروس والألمان الذين أنتنّ قاصدات إلى قتالهنّ. أفلأَجْل أن يكافؤكنَّ على جميلكنَّ ويجزوكنَّ عن معروفكنَّ بما اعتديتنَّ على بلدانهم، وبما ذبحتنَّ من رجالهم، ويتّمتنَّ من أطفالهم في عقر دارهم سواء في سورية أم في فلسطين أم في أفريقية وذلك في أثناء استعبادكنَّ لهم؟ أم تظنّنَّ أنكنَّ بشرائكنَّ عددًا من الجرائد الساقطة الصادرة في سورية وفي فلسطين والعراق وتونس والمغرب لتقول لكنَّ ما تشتهين، قد طمستنَّ الحقائق، وقلبتنَّ الأمور رأسًا على كعب، فأصبحتنَّ في حلّ من عهودكنَّ إلى العرب. وأمكنكنَّ أن تذعن في بلدانكنَّ أنَّ العرب غير سائلتكنَّ عن شيء، وأنهم أنصار «للديمقراطية» التي أنتنَّ تمثّلنها في العالم! إن كنتنَّ تعلّلن أنفسكنَّ بهذه الخيالات، فإنكنَّ في ضلال مبين. وستهبين من نومكنَّ، فترين حقائق أليمة. نحن لا نسير معكنّ إلاّ على شرط استقلالنا التامّ، ولسنا لكنَّ عبيدًا.

اذهبن إلى الترك الذين أديتنَّ إليهم مائة وعشرين مليون جنيه قروضًا، لن يردّوا منها فلسًا واحدًا، وسلّمتموهنَّ سنجق اسكندرونة، ووعدتموهنَّ بأعظم منّه[1] من أملاك العرب، فلعلّهم يزحفون معكنّ لمحاربة الروس والألمان، وإن كنّا نعتقد أنهم سيصبحون في يوم من الأيام نادمين على هذه الصفقة. أمّا العرب، فكلّ عربي يسير في جانبكنَّ إلى حرب الروس أو الألمان، أو أيّة أمّة أخرى قبل أن تسلّمن سورية وفلسطين إلى العرب أهلهما، فإنّه خائن لوطنه وقومه، مارق من الوطنية والعروبة مروق السهم من الرمية، جدير بأن تبرأ منه الأمّة العربية وأن تحاسبه على خيانته حسابًا عسيرًا، كائنًا من كان. وكلّ

(١) منّة.

عربي يُظهر رضاه بأعمالكنَّ ويتجاهل الحقائق بائعًا وطنه بحطام الدنيا من دون أن ترددن البلاد إلى أهلها وتوفّرن الحقوق لأصحابها، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

جنبرة، شباط سنة ١٩٤٠

شكيب أرسلان

۞ ۞ ۞

الحرب في النورفيج
بدأ الحقّ يتّضح والكذب ينفضح

أمّا أنَّ احتلال الألمان للنورفيج كان اعتداءً منهم على النورفيج، فهذا يقرّ به كلّ ذي وجدان، ويعترف به أنفس الألمان؛ إلاّ أنه ثبت الآن بالوثائق التي لا تقبل الرد، ولا ينفع فيها التكذيب، أنَّ الحلفاء كانوا قد قرّروا هم أنفسهم احتلال النورفيج حتّى يمنعوا شحن الحديد منها ومن السويد إلى ألمانيا. وفي هذين اليومين، وقع في أيدي الألمان أسرى من الإنكليز بينهم كولونل اسمه فورد، وكولونل آخر اسمه جرمن، سيقوا إلى برلين، وفيها استُنطِقُوا واعترفوا بأنهم خرجوا من إنكلترة في ٧ أبريل [نيسان] قاصدين النورفيج، ونزلوا فيها في ١٠ منه وهم غير منتظرين أن يروا فيها ألمانًا. فما راعهم إلاّ الألمان الذين قبضوا عليهم وأخذوا الأوراق التي وجدوها معهم، والتي منها يثبت، فضلاً عن اعترافهم الشفوي، أنَّ الإنكليز كانوا ساقوا العساكر صوب النورفيج قبل الألمان، ولكن الألمان سبقوهم إليها لا أكثر ولا أقلّ. ولقد جاءت الحكومة الألمانية في برلين بمراسلي جرائد الممالك المتحايدة كلّها، وأطلعتهم على الأوراق التي وجدتها في محفظتي الكولونلين فورد وجرمن وعلى خلاصة استنطاقهما مع رفاقهما.

وأرسلت الحكومة الألمانية هؤلاء الأسرى الإنكليز إلى مقرّ الأسرى البولونيين. فلمّا شاهدهم البولونيون انقضّوا عليهم وكادوا يفتكون بهم قائلين لهم: سحقًا لكم، أنتم الذين كنتم السبب في هلاكنا وسقوط ملكنا... إلخ. وما أنقذ الألمان الأسرى البريطانيين من أيدي الأسرى البولونيين إلاّ بشقّ الأنفس، وبعده جعلوا الإنكليز في مقرٍّ آخر.

وكان الحلفاء قبل نيّتهم احتلال نورفيج بالفعل قد خرقوا حيادها مرّتين: أوّلاهما عندما ضربوا الباخرة الألمانية «التمارك» وهي في بحر نورفيج، واسترجعوا أسراهم الذين فيها؛ والثانية عند وضعهم الألوف من الألغام في بحر نورفيج ليقطعوا الاتّصال بين

وبين ألمانيا. وكانوا يعلنون أنَّ حرب حياة أو ممات كهذه لا يلزم فيها التقيّد بالحقوق الدولية، وإنّما يلزم التقيّد بالموجبات العسكرية.

فالألمان لم يزيدوا على أن سبقوا الحلفاء إلى خرق حياد نورفيج. وكان لا بدَّ لهم، حتّى يتّصلوا بها، من خرق حياد الدانمرك. وقاموا بكلّ ذلك بسرعة البرق كما هي عادتهم. فأرسل الحلفاء أسطولاً نَازَل الأسطول الألماني بينما هذا ينقل العساكر إلى نورفيج، فَجرَت معركة بحرية هائلة فقد فيها الفريقان بوارج حربية ونقّالات وغوّاصات. وكانت خسائر الألمان أكثر قليلاً. فإذا بالحلفاء يجعلون هذه المعركة ظفرًا عظيمًا لهم وهزيمة للألمان؛ والواقع أنّه لم تكن ثمّة دبرة على الألمان، ولبثوا ينقلون عساكرهم إلى نورفيج تباعًا وسراعًا.

ولمّا كان معظم اعتماد الحلفاء إنّما هو على الدعاية وتضليل الأفكار، لا سيّما في هذا الشرق التاعس، امتلأت الجرائد العربية والتركية بأخبار انتصار الحلفاء في المعركة البحرية وعدّوا هذا الانتصار حقيقة من الحقائق.

ثمَّ أرسل الحلفاء جيوشًا إلى نورفيج وانزلوها في بعض المواقع، وافتخروا بأنَّ طيّارات الألمان لم تقدر على أن تمنع وصول عساكرهم إلى نورفيج وعدّوا ذلك ظفرًا ثانيًا. ثمَّ نهد الفريقان بعضهم إلى بعض، وبمجرّد أن التقت العين بالعين ظهر تفوّق الألمان وثبت كون الطائلة لهم. ولكنَّ الحلفاء شرعوا يسلّون أنفسهم بالخيالات. وجاء المسيو رينو، رئيس وزراء فرنسا، إلى مجلس الشيوخ وخطب قائلاً إنَّ ألمانيا فقدت ثلث قوّتها في البحر، وإنَّ البحر هو في أيدي الحلفاء، وإنّهم بثّوا الألغام في بحر البلطيق، فانقطعت كلّ صلة بين ألمانيا وجيشها في نورفيج؛ وحدّث قومه بترّهات ما أنزل الله بها من سلطان، فصدّقها الإفرنسيون وأذنابهم وفرحوا بهذه الأكاذيب عدّة أيام.

ولكن لمَّا كان لا بدَّ للحقّ أن يتّضح وللباطل أن يفتضح؛ لم يطل الأمر حتّى أخذت الهزائم تتوالى على الحلفاء وأحلافهم النورفيجيين. فكان الحلفاء يموّهونها بالإنكار، ويسمّونها حركات عسكرية مقرّرة من قبل، وربّما اعترفوا «بنكوص موضعي»، أو

بتقهقر خفيف. وجرائدهم وجرائد أذنابهم تطبّل وتزمّر بحوادث يجسّمونها في نظر الناس ممّا ليس له بال حتّى يلفتوهم عن الحقائق، منتظرين أن ينزل عليهم النصر. فدرجت الأيام وهم على أحرّ من الجمر ليأخذوا من الأخبار ما يسرّهم، فلم ينزل عليهم سوى القهر، ولم تزدد أخبارهم إلاّ سوءًا إلى أن اضطرّوا من أربعة أيام إلى الاعتراف بأنَّ الحالة قد ساءت في نورفيج، وزعموا أنَّ ذلك قد طرأ أخيرًا. وذلك بأنَّ الألمان أتوا بإمدادات جسيمة مع وجود أهمّ المواقع بأيديهم من قبل، فاضطرّوا[1] جيوش الحلفاء إلى النكوص - أي إلى الانهزام، وأحيانًا إلى الفرار - وكيف يقولون هذا القول ومن عشرة أيام كانوا يقولون إنَّ أسطول الحلفاء أكمل الحيلولة بين ألمانيا والنورفيج، وإنَّ عسكرها هناك لا بدَّ أن يؤخذ أسيرًا بعد أن انقطع ما بينه وبين بلاده! ومن صرّح بذلك رئيس وزارة فرنسا المسيو رينو الذي أكّده في مجلس الشيوخ.

ليس هذا هو التناقض الأول في بيانات الحلفاء، بل في كلّ يوم وفي كلّ ساعة كلامهم يصدم بعضه بعضًا ويكذب منه لاحق سابقًا؛ وذلك أنَّ كثرة الكذب تنسي الكذّاب في الغالب ما يكون قاله من قبل: "كن ذكورًا يا أبا يحيى إذا كنت كذوبًا".

ومَن شاء أن يعرف ولو إنموذجًا من أكاذيبهم، فما عليه إلاّ أن يأخذ بعض جرائد فرنسا وإنكلترة الصادرة من تاريخ ١٥ إلى ٢٥ أبريل [نيسان] مثلاً، ويقابل بين ما كانت تقوله يومئذٍ من الجزم بالنصر، وما تبديه الآن من بارد العذر. وقد كانوا يقولون إنَّ هيتلر نسي أنَّ حملة عسكرية إلى ما وراء البحر لا يمكنها أن تفلح إلاّ إذا كان البحر في يد صاحب الحملة؛ والحال أنَّ البحر إنّما هو للحلفاء لا للألمان. وهذا كان من جملة بيانات رينو وتشرشل وغيرهما. فكيف تسنّى إذن للألمان أن يرسلوا عشر فرق عسكرية - ١٣٠ ألف مقاتل بالأقلّ - إلى نورفيج في مدّة خمسة عشر يومًا؟ لا جرم أنَّ الحلفاء كذبوا في قولهم إنّهم قطعوا بألغامهم في بحر البلطيق اتّصال الألمان بعساكرهم في نورفيج. وهم الآن يكذبون في بياناتهم الجديدة التي يريدون أن يبرّدوا بها أكبادهم الحرّى بما أصابهم من الهزائم الأخيرة في نورفيج.

---

(١) فاضطرّت.

فمن هذه الأكاذيب قولهم إنَّ الأسطول الألماني فقدَ ثلث قوّته في المعارك الأخيرة، والحال أنَّ خسائر الحلفاء في قعر البحر[تشهد بالواقع، فقطعها البحرية] منها ٦٢ قطعة قد صارت في قعر البحر، والباقي تعطّل إلى حدٍّ أنه لا يُنتفع به. فخسائر الحلفاء في البحر تربى على خسائر الألمان سواء في السفن الحربية أو في السفن التجارية.

والآن بعد هزائمهم في نورفيج، اختلقوا فنًّا جديدًا من الأفك ليأفكوا به الناس عن معرفة الحقائق. فزعموا أنَّ تناقص الأسطول الألماني جعلهم يستغنون عن جانب من قوَّتهم البحرية في بحر الشمال، فأنفذوها إلى شرق البحر المتوسِّط احتياطًا للطوارئ، وأشاروا إلى موقف إيطاليا. والحال أنَّ البحر المتوسِّط فيه لهم أساطيل كافية لا تحتاج إلى تقوية، ولكنّهم أرسلوا هذا الجانب من أسطولهم عمدًا إلى البحر المتوسِّط لينقذوا أسطولهم من غارات الطيَّارات الألمانية التي ثبت تفوّقها على طيَّارات الحلفاء. فخافوا أنَّ القوّة الجوّية الألمانية تقضي على معظم قوَّتهم البحرية في بحر الشمال، ففرّوا بها إلى البحر المتوسِّط؛ ولهم في ذلك مآرب أخرى وهي الابتهار والتكاثر وإظهار الحول والطول أمام الأمم الشرقية، وفي العالم الإسلامي. فإنَّهم يعلمون علم اليقين أنَّ أخبار هزائمهم في النورفيج سيكون لها صدًى بعيد جدًّا؛ لأنَّ الأمم التي ظلموها وهضموها مشتاقة أشدّ الشوق إلى سماع أخبار انكسارهم، ولا سيّما المسلمين الذين أذلّوهم إذلالاً وقهروهم قهرًا وأخنوا على ممالكهم شرقًا وغربًا، ولم يبقوا قارعة إلاّ أنزلوها بهم. فإذا سمعوا بشائر فشلهم الفظيع في النورفيج لم يكن بهم شامت أكثر منهم، فيريدون في الحقيقة أن يهوِّلوا على المسلمين ليقولوا لهم بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال: لا تأملوا الخلاص من حكمنا، فمهما أصابتنا دوائر في أوربا فنحن لن نبرح أقوى منكم ولن تقدروا على زحزحة النير الذي وضعناه على أعناقكم.

وهم في ظاهر الحال يعلّلون إرسال قسم من أساطيلهم إلى بحر الإسكندرونة بالتأهّب لمواجهة إيطاليا في ما إذا أرادت النزال. والحال أنَّ إيطاليا، وإن كان هواها مع ألمانيا التي تأمل معها التخلّص من سيطرة الحلفاء العالمية، فإنّها في الوقت الحاضر ساكنة تتربّص مآل الحوادث، وكلّ شيء يدلّ على أنها ستنتهز الفرصة عندما تجدها ملائمة.

نعم، إنَّ إيطاليا لا تسكت إذا كان الحلفاء يحاولون جرّ دول البلقان إلى الحرب، وهو العامل الوحيد الذي بقي عندهم لتوسيع دائرة المجزرة البشرية التي يظنّون أنَّ لا خلاص لهم إلاّ بتوسيعها.

ـ موقف الدول البلقانية

وما من دليل على أنَّ البلقانيين سيزجّون أنفسهم في هذه النار الحاطمة لأجل سواد عيون الحلفاء. فرومانيا التي هي أكبر دول البلقان وعدد سكّانها عشرون مليونًا، إذا خطر لها أن تتحرّك، جاءها الجيش الألماني منقضًّا انقضاض الصواعق، كما هي عادته، وذلك من جهة الغرب. وجاء معه الجيش المجريّ المطالب إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم بولاية ترانسلفانيا التي استلحقتها رومانيا من بلاد المجر على أثر الحرب العامّة؛ وجاءها الروس من الشمال مسترجعين ولاية بسارابيا التي كانت لهم، وهي نحو الثلث من رومانيا. ثمَّ جاءها البلغار من جهة الجنوب مسترجعين ولاية الدبروجة التي انتزعتها رومانيا من بلغاريا عقب الحرب البلقانية. فأيّ عاقل يصدّق أنَّ رومانيا تتعرّض لغارات أربع من هذه الدول الأربع؟! وإن قيل إنَّ الحلفاء يأتونها بالنجدات، فالأرجح أنها تصير نهبًا مقسّمًا قبل وصول نجدات الحلفاء.

ثمَّ من أيّ طريق سيكون مجيء نجدات الحلفاء؟ فإن قيل: من طريق الدردنيل بحرًا، فالجواب أنه لا تفتح تركيا بابَي الدردنيل والبوسفور للحلفاء حتّى تعلنها الروسية الحرب. ولم يفقد الأتراك عقولهم حتّى يتعرّضوا لحرب مع الروسية برًّا وبحرًا ولو كان جيش الجنرال فيغان في سورية لهم ظهيرًا. وإن قيل: بل تنزل جيوش الحلفاء بسلانيك من اليونان، ثمَّ تزحف إلى يوغوسلافيا، فرومانيا، فالجواب عن ذلك أنَّ إيطاليا، التي جيوشها مرابطة في ألبانيا، لا تتردّد حينئذٍ عن صدّ جيوش الحلفاء الزاحفة من سلانيك. ونفس يوغوسلافيا لا يمكنها الموافقة على مرور الحلفاء من بلادها، إذ هي كلّ يوم تعلن اعتصامها بالحياد التام. وكيف لا تعتصم به وهي مجاورة لدولتين عظيمتين ألمانيا وإيطاليا،

كلتاهما قادرتان على أن تفكّك أوصال يوغوسلافيا التي سكّانها ١٣ مليونًا من أجناس مختلفة؟! إذن، جميع الدسائس التي يحوكها الحلفاء لأجل استدراج البلقانيين إلى الحرب هي حابطة. وأمّا بلغاريا، فهواها الحقيقي مع الروسية لا مع الحلفاء. وإن كانت تركيا تظاهر الحلفاء وتتظاهر لهم بالمودّة لأجل أخذها من أيديهم سنجق إسكندرونة وفوقه مائة وثلاثة مليون[1] جنيه قروضًا، فإنَّ تركيا ليس لها حدود متجاورة مع ألمانيا لتحاربها من أجلهم، وغاية ما كانوا يأملون هو أن تنضمّ إلى البلقانيين الذين يكونون قد أعلنوا الحرب على ألمانيا. والحال أنَّ البلقانيين لا ينوون محاربة ألمانيا إلاّ إذا هي بادأتهم بالقتال. والحال أنَّ ألمانيا أفهمتهم مرارًا أنها لا تريد أن تتعرّض لهم بأدنى سوء إلاّ إذا سمعوا وساوس الحلفاء وحدّثوا أنفسهم بمحاربتها. وكذلك هم يعلمون أنَّ إيطاليا ستؤذنهم بحربها إذا حطبوا في حبال الحلفاء. أمّا مهاجمة تركيا للقوقاس لأجل قطع زيت باكو عن ألمانيا، فقد ثبت الآن أنه من الآمال الفارغة؛ فتركيا لا تجرأ [تجرؤ] على مهاجمة الروسية.

ـ موقف تركيا الحاضر

وأيضًا، فإنَّ انتصار الألمان على الحلفاء في نورفيج أخيرًا أحدث انقلابًا في أفكار الشرقيين الذين كان قد أقنعهم الحلفاء، بكثافة دعايتهم وببذل الأموال الطائلة لجرائدهم، أنَّ الحلفاء متغلّبون على الألمان لا محالة. فظنّوا أنهم إن طبّلوا وزمّروا للحلفاء يحسنون صنعًا، ويكونون مالوا مع الراجحة. أمّا الآن، فبدأت الأفكار تتحوّل عن ضلالها الأوّل؛ ففي تركيا قد جدّ تيار قويّ من الميل إلى ألمانيا، صديقة الأتراك القديمة؛ وفي الأيام الأخيرة أخذت جريدة "يني صباح" تندّد بالحلفاء وتقول إنَّ بلاغاتهم العسكرية على ما أحرزوه من النصر في أوّل حرب النورفيج كانت كذبًا خدعوا به الناس عمدًا، وها هي الحقيقة الآن قد اتّضحت وظهر أنهم كانوا كاذبين. وبلغني أنَّ جريدة "تصوير أفكار" التي عادت إلى الظهور مؤخّرًا ولم أطّلع عليها، هي من الجرائد الناهية عن متابعة الحلفاء. وأغرب منه أنَّ حسين جاهد، زميلنا القديم في مجلس النوّاب العثماني الذي امتاز في

(١) ملايين.

الأشهر الأخيرة بشدّة الطعن على الألمان، وطالما تلذّذت التيمس[1] بنقل أقواله عاد اليوم يقول إنَّ الحلفاء قد نشروا عن انتصاراتهم الحربية أخبارًا كاذبة تهوَّر الناس فيها.

ـ موقف مصر إزاء القضيّة العربية

وسمعنا أمس أنَّ من الجرائد فئة تنهي عن متابعة مصر للحلفاء إلى درجة الحرب، وتقول: محالفتنا لإنكلترا لا ينبغي منها أن نكون أعداء لمن ليست بيننا وبينهم عداوة. وهذا بعد أن قدّم الوفد المصري مذكّرة إلى الحكومة الإنكليزية بمطالب أساسية لمصر يريد أن تأمن عليها مصر من اليوم. وفي الأسبوع الماضي، جرت خطب في مجلس النوَّاب تناول فيها عدد كبير من الخطباء قضيّة فلسطين وسوريا، وطلبوا إلى الحكومة المصرية أن تتدخّل في حلّهما، وذكروا ما جرى في مجلس النوَّاب العراقي من المناقشات الشديدة التي أدّت إلى سقوط وزارة نوري السعيد أوّل مرّة وثاني مرّة بحجّة أنه قصَّر في انتهاز الفرص الملائمة لحلّ القضايا المعلّقة بين العرب والحلفاء. وكما اقترح العراقيون على حكومتهم السعي الحثيث بإجابة الحلفاء إلى مطالب العرب في فلسطين وفي سورية، وأدخلوا قضيّتهما في برنامج وزارة رشيد عالي الكيلاني؛ كذلك المصريون ـ وهي حركة مباركة؛ هي من إرهاصات الجامعة العربية ـ قاموا يطالبون حكومتهم باستئناف السعي في حلّ مسئلتَي[2] سورية وفلسطين؛ بدأ بذلك النائب سعد اللبَّان، وقال إنَّ مصر وقفت بجانب الحلفاء موقفًا يجدر بهم أن يقدّروه لها فيسمعوا كلامها في القضيّة العربية. ثمَّ قال عبد المجيد ابراهيم إنَّ مصر أخلصت الودّ للحلفاء وجعلت قضيّتهم قضيّتها، وأثّرت في البلاد العربية بسياستها هذه؛ فلمصر إذن حقوق لا تُنكر. وها نحن أولاء نسمع عن سورية أخبارًا مروّعة؛ فالإفرنسيون حكموا على سبعة بإعدامهم الحياة، وعلى بضعة عشر بعشرات السنين من الحبس. وقد تجمّعت الأحكام الصادرة ضدّ بعضهم، فبَلَغَت ثمانين سنة. فإن كان لا بدَّ من تنفيذ هذه الأحكام، فإنّها ستخلق في العالم العربي جوًّا قاتمًا خانقًا. ثمَّ قال: «نحن وسورية شركاء في العروبة، فما من قبيلة هناك

---

(١) التايمز.

(٢) مسألتي.

إلاّ لها أبناء عمومة بمصر، فإذا شكا الشام خفق قلب مصر لشكواه». واقترح على الحكومة أن تسعى لدى الحلفاء، أصدقاء مصر، في وقف أحكام الإعدام وتأجيل إنفاذ الأحكام الأخرى. قال، ولله دَرّه: «فإذا تُوِّج هذا السعي بالنجاح، وسيُتَوَّج إن شاء الله، فيتّسع ميدان النشاط أمام حكومتنا لتوثيق عرى الاتّحاد بين أبناء العروبة جميعًا».

ثمّ تكلّم فكري بك أباظة على سقوط وزارة العراق بسبب تقصيرها في المساعي لدى إنكلترة وفرنسا لأجل حلّ القضايا المعلّقة بينهما وبين العرب، واقترح على الحكومة أن تناصر القضيّة العربية، فجزاه الله خيرًا. نعم، إنّ عبد الملك حمزة لم يُظهِر في هذا الموضوع الحماسة التي ظهرت من زملائه. وأشار على مصر باستعمال الحكمة في هذه القضيّة، وأومأ إلى أنّ مصالح العرب والحلفاء واحدة، وأنه إن كانت ثمّة خلافات «بسيطة أو معقّدة»، فمصر تقدر أن «تسوّي علاقات هذه البلدان مع الحلفاء». وبعبارة، جَعَلَ أخونا عبد الملك حمزة هذا الخَطْب أيسر ممّا جعله إخوانه النوّاب الآخرون. وتكلّم على الإصلاح بين العرب والحلفاء. بعبارة، نشعر بخوفه من إزعاج الحلفاء... هذا لمن قرأ بين السطور. ولهذا نَوّهَتْ كثيرًا بخطابه جريدة «الطان». وكنّا نرجو من وطنيّ مثله موقفًا أصرح من هذا الموقف، وهو الذي، في أوائل الحرب العامّة، هاجر مع رهط من رفاقه أرض مصر احتجاجًا على الإنكليز، وأقام أربع سنوات في برلين يُصدِر بالألمانية جريدة «العالم الإسلامي» الأسبوعية ويخطب في محافلها مستصرخًا ألمانيا لمساعدة مصر والعالم الإسلامي الذي يئنّ تحت نير الحلفاء. ولعلّه يقول إنّ إنكلترة التي كان يكرهها من قبل قد صار يحبّها اليوم بعد أن تصالحت مع مصر. ونحن لا نلومه على ذلك، ولكنّنا نؤاخذه على امتداحه لخطّة اللجنة المالية في المجلس في إيجازها الكلام على موقف مصر تجاه الشرق؛ كأنّ الكلام في مطالبة الحلفاء بحقوق العرب ـ في مسئلة[1] هي لهم حياة أو موت ـ ممّا ينبغي الاقتصاد فيه ما أمكن... ويجدر بمصر أن لا تتعرّض له كثيرًا. ولمّا كان لا بدّ أن يذكر كلّ بعمله وأن يُوفى حقّه، نقول إنّ النائب الشيخ عبد الوهاب سليم قد تكلّم على ديمقراطية الإسلام وأراد مجاملة الحلفاء، وقال:

(١) مسألة.

«إنَّ أمم الحلفاء تربطنا بهم صلات سياسية، لكن هذه الروابط فيها قيود. فإذا نحن طالبنا بفكّ هذه القيود، فإنّما ندعو إلى ذلك لأنَّ مبادئ الإسلام تدعو إلى ذلك. وإذا دعوت إلى أن ينال الإسلام حرّيته، فيكون ذلك تأييدًا لقضية الحلفاء». ولندع عبارات المجاملة التي حاول هذا النائب أن يخفّف بها عن الحلفاء وقع كلامه، فمراده أنَّ الحلفاء المتلبّسين بدعوى الديمقراطية، عليهم أن يتذكّروا أنَّ الديمقراطية تدعو إلى تحرير الشعوب؛ والحال أنَّ عشرات الملايين من المسلمين لا يملكون حرّيتهم بسبب قهر الحلفاء لهم. وقد ختم خطبته بقوله: «إنّي أدعو إلى شيء أسمى ممّا دعا إليه زملائي وإن كان ما دعوا إليه عظيمًا»، يعني أنَّ زملاءه دعوا إلى فكّ عناء سورية وفلسطين، وأمّا هو، فيدعو إلى فكّ عناء عشرات الملايين من المسلمين الذين حرمهم الحلفاء حرّيتهم. ولقد صرّح علي ماهر باشا في جوابه لمجلس النوَّاب بما يفيد اهتمام مصر الخاصّ بالأمم الشرقية التي تربطها بها روابط عديدة، وأوّل الفرص التي سنحت لمصر، بصفتها دولة مستقلّة، لإظهار تأييدها للدول العربية، كانت في مؤتمر فلسطين الذي فيه كسبت مصر مركزًا ممتازًا. وثبت لجميع الدول العربية أن ليس لمصر مأرب خاصّ بذلك، وإنّما عملت بدافع من الروابط القديمة التي تربطها بهذه البلاد، وأرادت لها أن تعيش سعيدة كريمة. وبعد هذا المؤتمر استمرّت الصلات بين مصر وبين هذه الدول العربية جميعًا على أحسن حال. وفي الأسبوع الماضي، حدث تطوّر جديد بالنسبة لمسألة فلسطين، فقد وضع أساس موفّق سيكون تنفيذه وسيلة لوجود الحلّ النهائي لهذه المسألة.

ثمَّ قال علي ماهر باشا: أمّا مسألة المحكوم عليهم من رجال فلسطين، فقد جرى تخفيف كثير من الأحكام الصادرة بحقّهم، وصدر الإذن لكثير من المبعدين بالعودة إلى بلادهم. وفي الوقت الحاضر تقوم مصر بوساطة جديدة في هذا المعنى بالاشتراك مع الدول العربية الأخرى.

ثمَّ أشار إلى تسوية الخلاف الذي وقع بين الدولة العربية السعودية ودولة العراق، وقال إنَّ الفريقين أقاما مصر حكمًا وقبلت مصر ذلك. وهذا دليل على متانة الصلات بين مصر والدول العربية الباقية. وأشار إلى الإصلاحات الجارية في الحجاز بالاشتراك

بين مصر والحكومة السعودية. وقال إنَّ كلّ هذه الأعمال التي تقوم بها الحكومة المصرية هي صادرة عن روح الشعب المصري وروح مجلسه. ثمَّ قال إنَّ بعض النوَّاب أثاروا مسألة سورية في المجلس، وعليه نجيب: إنّنا كنّا دعينا إلى الاشتراك في مسألة فلسطين، أمّا مسألة سورية، فإنَّ الوضع مختلف فيها، وعلى أيّ حال متى وصلت إلى الحكومة المصرية البيانات اللازمة تقوم بما يمكن عمله لأجل سورية. انتهى كلام رئيس الحكومة المصرية الذي أجاب به عن اقتراحات بعض النوَّاب الكرام. وكان قد وفد عليه عدّة من كبار السوريين والفلسطينيين، وتحدّثوا إليه في موضوع الأحكام التي صدرت أخيرًا على بعض زعماء سورية وفلسطين، فلم يتأخّر علي ماهر باشا طرفة عين عن السعي لدى فرنسا وإنكلترا في إلغاء تلك الأحكام، أو تخفيفها بالأقلّ. فأبرق إلى وزير مصر المفوّض في باريز، وإلى سفيرها في لندن، وطلب إليهما السعي لدى وزارة الخارجية الفرنسية ووزارة الخارجية البريطانية في هذا الأمر. كما أنه قابل سفير فرنسا وسفير إنكلترة في مصر، وكلّ منهما أبلغ حكومته اقتراح الحكومة المصرية في قضيّة المحكوم عليهم؛ ثمَّ إنَّ رئيس وزراء مصر أبلغ الحكومة العربية السعودية والحكومة العراقية ما قام به من المساعي.

- قضيّة الوحدة العربية وكيف تتقدّم بخطى واسعة

وقد استوفينا هذا الشرح قصدًا وعمدًا لأننا، ولله الحمد، منذ انتهت الحرب العامّة توجّهت جميع مساعينا إلى إيجاد الوحدة العربية تدريجًا. ومنذ عشرين سنة كنّا نراجع كلاًّ من ملك العربية السعودية وإمام اليمن وملك العراق في هذا الموضوع، بينما غيرنا من أنفس العرب كانوا يعارضونه بكلّ قواهم، أو يقولون فيه إنّه خيال في خيال! وفي يدنا، ولله الحمد، أكثر من مائة وخمسين كتابًا من هؤلاء الملوك الثلاثة، كلّها أجوبة عن كتاباتنا إلى جلالتهم في قضيّة الوحدة العربية وما يتعلّق بها. وكان المرحوم الملك فيصل كتب إلينا يقول: أشهد أنك أوّل عربي تكلّم معي في الوحدة العربية، وأراد أن تكون وحدة عملية. أقول هذا، لا من باب تزكية نفسي، ولكن من باب التحدّث بنعمة الله، وكوننا لم نزل وراء قضيّة هذه الوحدة حتّى خرجت من دور الآمال إلى دور الأعمال،

وانعقدت بين الدول الثلاث العربية المشار إليها تحالفات سياسية وعسكرية وثقافية، وصارت تختلف البعثات العلميّة والعسكرية والزراعية وغيرها بين هذه الدول الثلاث، فما كان يقال إنّه خيال في خيال أصبح حقيقة في حقيقة، تنظرها الأعين وتمسّها الأيدي. وكلّ هذا في مدّة لا تزيد على خمس عشرة سنة. ثمَّ إنَّه بمجرّد ما حصلت مصر على استقلالها وصارت مالكة لزمام أمرها، اقترحنا على الدول العربية الثلاث الدخول مع الدولة المصرية في حديث الوحدة العربية حتّى تكون مصر أيضًا هي في مقدّمتهن، وينعقد بين هذه الدول الأربع تحالفات عسكرية وسياسية واقتصادية وثقافية تجعلهنَّ كتلة واحدة لأجل الدفاع عن ذمار العرب وعن ذمار الشرق، بل عن ذمار الإسلام. فإنّه ليندمج تحت هذه الكتلة لا أقلّ من ٤٥ مليون نسمة من شأنها أن تقف بأطماع أيَّة دولة أجنبية مهما كانت عظيمة.

ولمّا هبطنا إلى مصر في الشتاء الماضي، ألقينا عدّة خطب في هذا الموضوع، وأفضينا بعدّة مقالات فيه، ووجدنا استعدادًا عظيمًا بمصر لتحقيق هذه المحالفة الرباعية الذي طالما تمنيناها وأشرنا إلى فوائدها، وأوضحنا كونها من أقرب الأمور إلى الإمكان فيما إذا صحّت النيّات وسمت الهمم. وعندما تشرّفنا بمقابلة جلالة الملك فاروق، زاده الله تمكينًا وتأييدًا ووهبه عمرًا مديدًا، عرضنا لديه بكلّ صراحة أنه لا ينبغي أن يظلّ العرب منفصلين عن مصر في شيء من الأشياء. فالأمّة واحدة، والأغراض واحدة، وإن طرأ على مصر حادث يوجب دفاعها عن نفسها، فليست الخمسة والعشرون مليون نسمة من رعايا جلالته في مصر والسودان هم الذين وحدهم سيدافعون عن حياض مصر، بل هناك خمسة وعشرون مليونًا أخرى في آسيا بجوار مصر يدافعون عنها بالهمّة التي تدافع هي بها عن نفسها. وها نحن أولاء نرى كلّ يوم أنَّ هذه الوحدة التي كان يقاتلها كثيرون من العرب أنفسهم سائرة في طريق التحقيق، تتوطّد يومًا فيومًا، بل ساعة فساعة. ولم تكن مقاومة أولئك لوحدة أمّتهم إلاّ فلسفة فارغة، أو بسائق إيثار الأغراض الشخصية على المصلحة العمومية؛ فمن الناس مَن لا يريدونها إلاّ حامية بين ملوك العرب حتّى يكون لهم شأن لديهم، ولو كان في ذلك ما فيه من الخطر على كيان العروبة،

بل على كيان الإسلام وكيان الشرق. ولكنَّ المصلحة العامّة من عادتها أن تتغلّب في آخر الأمر على جميع العوائق. ولقد تغلّبت، بحول الله وقوّته، وصارت مصر، والدولة السعودية العربية، والدولة المتوكّلية اليمنية، والدولة العراقية، كلّها عصبة واحدة في السياسة. ونحن نطمع أن تكون أيضًا عصبة واحدة في الدفاع عن هذه الأمّة، ويرتبط بعضها ببعض بمحالفة عسكرية واتفاقات اقتصادية ومالية وثقافية واجتماعية، تحقّق قوله تعالى: ﴿ وإنَّ هذه أمّتكم أمّة واحدة وأنا ربّكم فاتّقون﴾.

- بُطلان دعوى فرنسا أنَّ القضيّة السورية هي قضيّة إفرنسية داخلية

ثمَّ نعود إلى ما ذكره علي ماهر باشا في مجلس النوّاب المصري بشأن قضيّتي سورية وفلسطين. فإنَّه قال إنَّ مصر لم يسبق أنها دُعيت إلى التدخّل في قضيّة سورية، فتدخّل مصر فيها، مسألة فيها نظر. يعني بذلك أنَّ فرنسا لا تسمح بأن يفاوضها أحد في قضيّة سورية. وقد سمعت عن ثقة أنَّ فرنسا زعمت كون القضيّة السورية هي في نظرها من القضايا الداخلية، ولا يوجد دعوى أعرق في البطلان من دعوى فرنسا هذه، فإنَّ جمعيّة الأمم نفسها، وهي التي تلجأ فرنسا إليها عندما تعجز عن أخذ حقّها بيدها، لا تعترف لفرنسا بأدنى مزيّة على سائر الدول في سورية، وتعدّ سورية مملكة مستقلّة وُضع عليها، بمعرفة جمعية الأمم، شيء من الوصاية المؤقّتة لا بدَّ له من انتهاء قريب. وهذه الوصاية أيضًا لم يعترف بها السوريون الذين يعلمون استقلال بلادهم ناجزًا؛ فعلى أيّ حال لا تكون مسألة سورية مسألة إفرنسية داخلية، ولا يكون لفرنسا حقّ في التصرّف بسورية كأنها مستعمرة أو بلاد تحت الحماية. وهذا ما اعترضت عليه ألمانيا وإيطاليا من بعد نشوب هذه الحرب، وأبلغتا اعتراضهما إلى فرنسا وإنكلترة وسائر الدول. ولذلك يأمل السوريون عند الوصول إلى عقد الصلح، حيث كانت الحرب لا تستمرّ أكثر من سنوات معدودات بالكثير، أن تقف ألمانيا وإيطاليا موقف المدافعين عن استقلال سورية وفلسطين. وهكذا تكون الأمّة العربية عارفة عدوّها من صديقها، وتعلم أنَّ فرنسا وإنكلترة هما أعدى أعداء العرب، بينما هاتان الدولتان تزعمان أنهما عاملتان بالديمقراطية التي أساسها

الحرّية، وتضحكان من ذقون العرب من دون حياء وتجاملانهم بالألفاظ الفارغة، وأعمالهما هي مناقضة للأقوال، (يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم).

والخلاصة، لمصر حقّ، بصفتها من أعضاء جمعيّة الأمم، وبكون روابطها مع سورية ولبنان لا تحصى ولا تعدّ، أن تتدخّل في قضيّة استقلالها. وإن كانت تتردّد بعض الشيء في ذلك، فلا يكون إلاّ من باب إيثار المرونة على الخشونة، والأمل بإيصال السوريين إلى استقلالهم بالتي هي أحسن، ومراعاة للأحوال الاستثنائية الحاضرة.

ـ لا تزال قضيّة فلسطين على الوجه الذي تقترحه إنكلترة غير مقبولة عند العرب

فأمّا قضيّة فلسطين، فإنَّ إنكلترة عندما أَعيتها فيها الحيل، ورأت مصر تراجعها في أمر فلسطين، أجمعت أن تدعوها هي وسائر الدول العربية إلى مؤتمر أطلقت عليه اسم "المؤتمر الفلسطيني"، وأملَت أن تؤثّر بنفوذ كلمتها في الوفود العربية ليقبلوا للقضيّة الفلسطينية حلاً موافقًا لسياستها، فخاب أملها في ذلك، ورجعت الوفود العربية من لندن وهي مصرّة على مطالبها، متّحدة فيها؛ وكان هذا أفضل مقدّمة للوحدة العربية. ولو أنَّ إنكلترة لم تقبل وجهة نظر العرب بتمامها في هذا المؤتمر، إلاّ أنه لمّا نشبت هذه الحرب، أخذت إنكلترا، تحت الرغبة في تخدير أعصاب المسلمين، تصرِّح بمواعيد لم يسكن إليها العرب ولا وثقوا بها نظرًا لما سبق من تلوّنها وتقلّبها، وغرابة تخريجها لكلّ معاهدة تعقدها. فالعرب، وفي مقدّمتهم بطل فلسطين الأوحد الحاج أمين الحسيني، لا يأمَنون انقلاب إنكلترة، ويأبون إلاّ أن تؤسّس حكومة فلسطين المستقلّة مذ اليوم، ويتسلّم زمامها أهل فلسطين مذ اليوم بلا تأخير ولا تأجيل. فإن لم يوفّق علي ماهر باشا، رئيس حكومة مصر، هو ورجال الحكومات العربية، إلى تحقيق هذا المطلب على هذا الوجه، فيستحيل على أمين الحسيني ورهطه، ورجال فلسطين أن يقبلوا حلاً معلّقًا مؤجّلاً تحت مواعيد أثبت التاريخ أنها لا تكون إلاّ عرقوبية؛ ومن جرّب المجرّب حلّت به الندامة.

ـ خيبة آمال فرنسا وإنكلترة في حلّهما أنّ القضيّة العربية قد تلاشت

وخلاصة القول، إنَّ فرنسا وإنكلترا اللتين بشرائهما تلك الجرائد البائعة لأوطانها بثمن بخس، ويا للعار، وبدناءة أولئك النفر القليل الذليل من العرب الذين أوهموهما أنَّ القضيّة العربية ماتت وصارت تحت الثرى، وأنَّ العرب فوّضوا مقاليد أمورهم إلى الدولتين الديمقراطيتين، أو غير ذلك من الأكاذيب التي، حركة الأمّة العربية في العراق والحجاز ونجد واليمن وسورية وفلسطين، وحركة مصر نفسها، تثبتان بطلانها. نعم، إنَّ فرنسا وإنكلترا، وخصوصًا فرنسا، قد علمتا أخيرًا أنهما كانتا في ضَلال مُبين، وأنَّ القضيّة العربية هي اليوم أشدّ وأنشط وأثبت وأوطد ما كانت، ولتعلمن نبأه بعد حين.

جنيف، في ٤ أيار ١٩٤٠ شكيب أرسلان

منع فرنسا رسالة عطوفة الأمير شكيب أرسلان

«لماذا تأخّر المسلمون؟»

تأثير هذا المنع وتأثير هذه الرسالة الغالية ـ نبذة من هذه الرسالة المخطوطة ونبذة من رسالة جديدة ـ بين عطوفة الأمير شكيب أرسلان و الإمام المرحوم السيّد محمّد رشيد رضا، وأمير الشعراء المرحوم أحمد شوقي بك

المقال التاريخي الآتي هو لِعَلَم من أعلام الأدب بمصر، وقطب من أقطاب السياسة العربية. وهو صنو عطوفة الأمير شكيب أرسلان وزميله بالجهاد الحيّ. وهو نفس كاتب مقالة «الأمير شكيب أرسلا ن لا يُباع ولا يُشرى»؛ ويظهر في هذه المقالة فضل الأمير شكيب أرسلان على القضيّة العربية، وجهوده هو وزملاؤه، رجالات الوفد السوري في أوروبة، وما حاكه الاستعمار وأذنابه، والمستثمرون لفشل حركة الوفد وإيقاع الفتن بينه وبين أمراء العرب وإيقاد جذوة الفتنة.

والرسالة وصلتنا في البريد الجوّي، وقد ذكر لنا سماحة الكاتب الموقَّر برسالته الخاصّة المقدِّمة التالية:

«إنَّ الناس غير مطَّلعين على شيء، وإنَّ التهم (بحقّ عطوفة الأمير الجليل صديقي الحميم الأمير شكيب أرسلان)، وإن كانت باطلة مخترَعة، قد تؤثِّر في الأذهان إذا لم يوجد عليها ردود يميِّز فيها العاقل الحقّ من الباطل».

ثمَّ قال لنا سماحته بأنَّ هذه الرسالة لها علاقة بالرسالة الفائتة (تقريبًا) التي أشرنا إليها أعلاه. وإلى القارئ الرسالة المذكورة البليغة لهذا الكاتب البليغ:

كان الأمير شكيب أرسلان من عشر سنوات تلقّى بواسطة مجلّة «المنار» سؤالاً

من أحد الفضلاء المصريين المقيمين بالجاوي، معناه: لماذا المسلمون متأخِّرون ضعفاء في جميع الدنيا مع كثرة عددهم، ومع كون القرآن واعدًا إيّاهم بالنصر؟ وكيف تطبَّق حالتهم الحاضرة على المواعيد التي وعدهم الله بها في كتابه الكريم؟ فأجابه عطوفة الأمير بما معناه أنَّ الله قد وعد المسلمين بالنصر على شروط بيَّنها كلّها في كتابه. فلمّا قاموا بها في الأعصر السالفة، انتصروا وعزّوا وبزّوا، وظهرت فيهم آيات الله تعالى. ثمَّ، لمّا قعدوا عن العمل بها، وتخلَّفوا عن امتثال ما أمرَهم الله به، وصاروا مسلمين بالاسم دون العمل، صاروا إلى حالة الضعف التي يسأل عن أسبابها ذلك السائل، وهو الأستاذ الشيخ بسيوني عمران. وكان هذا الأمر عدلاً، وكان طبيعيًا، وكان بديهيًّا. وحاشا الله أن يخلف وعده، ﴿إنَّ الله لا يغيِّر ما يقول[1] حتّى يغيِّروا ما بأنفسهم﴾. وحرّر الأمير شكيب في هذا الموضوع رسالة وقعت يومئذٍ في مائة صفحة وطبعها في مطبعة "المنار". فلمّا انتشرت في العالم الإسلامي، راجت رواجًا عظيمًا، حتّى أنَّ الناس كانوا يشترونها في شمالي أفريقيا بأضعاف ثمنها عشر مرّات؛ إذ كان ثمنها خمسة قروش، فكان بعضهم يدفع بها خمسين قرشًا. وأصدرت الحكومة الإفرنسية الأوامر تلو الأوامر بمنعها، ومع ذلك بقي الناس يتدارسونها، حتّى أنَّ أحد علماء تونس جعلها درسًا في أحد الجوامع استمرّ مدّة ثلاثة أشهر؛ فكان يقرأ منها ويشرح معانيها على المئات من السامعين. ولمّا عجزت فرنسا عن منع المسلمين من مطالعة هذه الرسالة، أرسلت أُناسًا من قِبَلها يشترونها من أيدي الناس، فيؤدّون في النسخة الواحدة خمسين وستّين فرنكًا، ومرادها بذلك محو أثرها من تونس والجزائر ومراكش، ولكنَّ الرسالة بقي الناس يطلبونها ويحرصون عليها، فأُعيد طبعها. وكما أنها انتشرت في البلاد العربية، انتشرت أيضًا في سائر بلاد الإسلام؛ فانتشرت في بلاد الجاوى وتُرجمت إلى لغة الملايو، وكذلك تُرجمت في الهند إلى لغة الأوردو. وأقبل الناس إقبالاً مدهشًا بما تضمّنته من البراهين الساطعة، وتُرجمت أيضًا في بلاد البوسنة والهرسك إلى اللغة السلافية التي هي لغة المسلمين هناك. وفي السنة الماضية، عندما كان الأمير شكيب في مصر، عَلِم أنَّ نُسخ هذه الرسالة قد نفدت كلّها، فجدَّد طبعها

(١) وهي "بقومٍ"، ولعلَّ ما مرّ هو خطأ مطبعي ليس إلاّ، ولكنّنا نتوخّى الأمانة في نقل النصّ المحقّق كما جاء. (المحقّق)

وأضاف إليها علاوات حتّى بلغت مائتي صفحة، فبرزت في حلّة قشيبة، وأقبل الناس عليها كأنّهم لم يقرؤها[1] من قبل. وقد جاء في صحف الأخبار أنَّ الحكومة الإفرنسية، التي تزعم كونها حكومة ديمقراطية حرّة، وأنها إنّما تحارب هيتلر من أجل ضغطه على حرّيّة البشر، قد منعت انتشار هذه الرسالة في سورية، ومنعت أن يُنقل عنها أو يُترجم منها، وهذا الأمر سيزيد حِرْص الناس على مطالعتها. وفي السنة الماضية، نشرت جريدة "الطان" والصحف الإفرنسية أمرًا صادرًا في الجزائر يتضمّن منع قراءة رسالة "لماذا تأخّر المسلمون؟" تأليف الأمير شكيب أرسلان؛ ويجعل جزاءً على مَن يقرأها.

وهكذا فلتكن الحرّية، وهكذا فلتكن الديمقراطية التي تتشدّق بها فرنسا وأذنابها في الشرق.

ونحن مورِدون الآن بعض أمثلة من هذه الرسالة، قائلين: كان ينبغي لفرنسا بدلاً من منعها أن تأتيَ في أعمالها بما ينفي صحّة الكلام الوارد فيها؛ فأمّا هذا الكلام مطابق بجميع حروفه لأعمال فرنسا والدول الاستعمارية كلّها، فإنَّ هذه الرسالة ستكون أعظم كتاب في هذا العصر يحرص المسلمون على اقتنائه ﴿ يريدون أنْ يطفئوا نورَ الله بأفواههم ويأبى الله إلاّ أنْ يتمَّ نورَه ﴾.

ـ مثال من نسق رسالة "لماذا تأخّر المسلمون"

ويا ليتَ المسلمين وقفوا عند هذا الحدّ في خذلان الريفيين، بل قامت منهم فئات يقاتلون الريفيين بأشدّ ممّا يقاتلون به الأجانب. وتألّبت على محمَّد بن عبد الكريم قبائل وافرة العدد، شديدة البأس ومالؤوا الفرنسيس والإسبانيول على أبناء ملّتهم ووطنهم تزلُّفًا إلى الفرنسيس والإسبانيول، وابتغاء الحظوة لديهم. وقد جرى مثل ذلك عندنا في سورية يوم الثورة على فرنسا، وجرى في بلاد إسلامية كثيرة. أَفبمثل هذه الأعمال يطالب أخونا الشيخ بسيوني عمران ربّه بما وعد تعالى به من جعل العزّة للمؤمنين؟!

(١) يقرأوها.

وإذا سألت هؤلاء المسلمين الممالئين للعدوّ على إخوانهم: كيف تفعلون هذا وأنتم تعلمون أنه مخالف للدين، وللشرف، وللفتوّة، وللمروءة، وللمصلحة السياسية؟ أجابوك: كيف نصنع؟ فإنَّ الأجانب انتدبونا ولو لم نفعل لبطشوا بنا، فاضطررنا إلى القتال في صفوفهم خوفًا منهم. ونسوا قوله تعالى: ﴿ أتخشونهم فالله أحقّ أن تخشوه إنْ كنتم مؤمنين ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فلا تخافوهم وخافوني إنْ كنتم مؤمنين﴾.

وكلام مثل هؤلاء في الاعتذار غير صحيح، فإنَّ الأجانب قد ندبوا كثيرًا من المسلمين إلى خيانات كهذه. فلم يجيبوهم ولم تنقضّ عليهم السماء من فوقهم، ولا خسفت بهم الأرض من تحتهم. ثمَّ إنَّه كان الأجانب المحتلّون لبلاد المسلمين قد أصبحوا يغضبون على المسلمين الذين لا يلبّون دعوتهم إلى خيانة قومهم، فإنّما كان ذلك من أجل أنَّ كثيرين من المسلمين كانوا يعرضون عليهم خدمتهم في مقاومة إخوانهم، ويقومون بها بكلّ نشاط ومناصحة، ويبدون كلّ أمانة لهم في أثناء تلك الخيانة. ولولا هذا التبرّع بالخيانة، والتبرّع إلى مظاهرة الأجنبي على ابن الملّة، لما استأسد الأجنبي وصار يتحكّم في المسلمين هذا التحكّم الفاحش، ولما صار يتقاضاهم أن يخالفوا قواعد دينهم ومقتضى مصلحة دنياهم من أجل مصلحته، ولما قام يحملهم على الموت لأجل الموت.

فإنَّ الموت موتان: أحدهما الموت لأجل الحياة، وهو الموت الذي حثَّ عليه القرآن [الكريم] المؤمنين إذا مدَّ العدو يده إليهم، وهو الموت الذي قال فيه الشاعر العربي:

تأخّرت أستُبقي الحياة فلم أجد   لنفسي حياةً مثل أن أتقدّما

وهو الموت الذي يموته الإفرنسي لأجل حياة فرنسة، والألماني لأجل حياة ألمانيا، والإنكليزي في سبيل بريطانية العظمى، ويجده على نفسه واجبًا لا يتأخّر عن أدائه طرفة عين.

وأمّا الموت الثاني، فهو الموت لأجل استمرار الموت. وهو الموت الذي يموته المسلمون في خدمة الدول اللاتي استولين على بلادهم، وذلك أنهم يموتون حتّى ينصرونها على أعدائها كما يموت المغربي مثلاً حتّى تنتصر فرنسا على ألمانيا، ويموت الهندي حتّى تتغلّب

إنكلترة على أيّ عدوٍّ لها، ويموت التتري في سبيل ظفر الروسية. والحال أنه بانتصار فرنسا على أعدائها تزداد في المغرب غطرسة وظلمًا وابتزازًا لأملاك المسلمين وهَنًا لحقوقهم؛ وذلك كما حصل بعد الحرب العامّة، إذ ازداد طمع الفرنسيس في أهل المغرب وحدّثوا أنفسهم بتنصير البربر.

وبالاختصار، يموت المغربي على ضفاف الرين أو في سورية حتّى يزداد موتًا في المغرب، لأنّ كلّ طائلة تفوز بها فرنسا في الخارج هي زيادة في قهر المغربي وإعناته وإذلاله ممّا لا سبيل للمناكرة فيه، وممّا قد ثُبّت بالتجربة. وكذلك موت الهندي في سبيل نصرة إنكلترة هو تطويل في أجل عبودية الهند. وكذلك موت التتري في خدمة الروسية لا عاقبة له سوى ازدياد قهر الروس للتتر، وهلُمَّ جرّا.

وهذا الموت لأجل الموت هو ما كان بخطٍّ منحنٍ، كما يقال، أي باعتبار النتيجة. ولكن هناك موت لأجل الموت مباشرة، بدون واسطة، وهو عندما يموت المغربي في قتال أخيه المغربي الذي قام يحاول أن يزحزح شيئًا من النير الإفرنسي الذي كان يدقّ عنقه؛ وإن لم يدقّ عنقه بتاتًا استحياه حياة هي أشبه بالموت، إلخ.

ومن أعظم عوامل تقهقر المسلمين، الجبن والهلع بعد أن كانوا أشهر الأمم في الشجاعة واحتقار الموت؛ يقوم واحدهم للعشرة، وربّما للمائة من غيرهم. فالآن أصبحوا ـ إلاّ بعض قبائل منهم ـ يهابون الموت الذي لا يجتمع خوفه مع الإسلام في قلب واحد. ومن الغريب أنَّ الإفرنج المعتدين لا يهابون الموت في اعتدائهم هيبة المسلمين إيّاه في دفاعهم، وأنَّ المسلمين يرون الغايات البعيدة التي يبلغها الإفرنج في استحقار الحياة والتهافت على الهلكة في سبيل قوميّتهم ووطنهم، ولا تأخذهم في ذلك الغيرة، ولا يقولون: نحن أَوْلى من هؤلاء باستحقار الحياة، وقد قال الله تعالى: ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم أن تكونوا تألمون فإنَّهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾.

وقد انضمّ إلى الجبن والهلع اللذين أصابا المسلمين، اليأس والقنوط من رحمة الله. فمنهم فئات قد وقر في أنفسهم أنَّ الإفرنج هم الأعلون على كلّ حال، وأنه لا سبيل لمغالبتهم

بوجه من الوجوه، وأنَّ كلّ مقاومة عَبَثٌ، وأنَّ كلّ مناهضة خَرْقٌ في الرأي. ولم يزل هذا التهيّب يزداد ويتخمّر في صدور المسلمين أمام الأوروبيين إلى أن صار هؤلاء يُنصرون بالرعب، وصار الأقلّ منهم يقوم للأكثر من المسلمين؛ وهذا بعكس ما كان في الزمن الأول.

يرى الجبناء أنَّ الجبن حزمٌ ... وتلك خديعة الطبع اللئيم

نسي المسلمون الأيام السالفة التي كان فيها العشرون مسلمًا، لا غير، يأتون من برشلونة في الأندلس إلى " فراكين"، من سواحل فرنسا بقرب " نيس"، ويستولون على جبل هناك ويبنون فيه حصنًا، ويتزايد عددهم حتّى يبلغوا مائة رجل مسلم منقطعين عن جميع أمم الإسلام. ومع ذلك يؤسِّسون هناك إمارة يكون لها شأن وتعصف ريحها بجنوب فرنسا وشمالي إيطاليا، وتهادنها ملوك تلك النواحي وتخطب ولاءها، وتستولي على رؤوس جبال الألب وعلى المعابر التي منها الطرق الشهيرة بين فرنسا وإيطاليا، مثل معبر "سان برنار"، وتضطرّ جميع قوافل الإفرنج أن تؤدّي للعرب المكوس لأجل المرور، ثمَّ تتقدَّم هذه الدولة العربية الصغيرة التي نواتها مائة رجل لا غير في بلاد "البيامون" مسافات بعيدة إلى أن تبلغ سويسرة، وإلى أن تبلغ بحيرة "كونستانزا" في جنوب ألمانيا وفي قلب أوروبا، وتضمّ القسم العالي من سويسرة إلى أملاكها، وتبقى خمسًا وتسعين سنة مستولية على هذه الديار إلى أن تتألّب الأمم الإفرنجية عليها، ولا تزال تناجزها إلى أن تتغلّب عليها؛ وكانت تلك العصابة العربية، يوم انقرضت، لا تزيد على ألف وخمسمائة رجل. فليتأمّل المتأمِّل في قوّة قلوب المسلمين عندما كانت منهم عصابة ضئيلة كهذه، مستقلّة عزيزة فاتحة محاربة في وسط قارّة تموج بمئات الملايين من الأمم الأوروبية (مَن شاء مطالعة تاريخ هذه الواقعة فليراجع كتاب "غزوات العرب في أوروبة").

- شبهات الجهلاء الجبناء وردّها

من السخفاء مَن يقول: " نعَم، قد كان ذلك قبل أن يخترع الإفرنج آلات القتال الحديثة وقبل المدافع والدبّابات والطيّارات، وقبل أن يصير الإفرنج إلى ما صاروا إليه

من القوّة المبنيّة على العلم». وهذا القول هو منتهى السخف والسفه والحماقة، فإنَّ لكلّ عصر علمًا وصناعة ومدنيّة تشاكله، وهي فيه كما هي العلوم والصناعات في هذا العصر؛ وأمور الخلق كلّها نسبيّة. ولقد كانت، في العصر الذي نتكلّم عليه، آلات قتال ومنجنيقات ودبّابات ونيران مركّبة تركيبًا مجهولاً اليوم. وكانت في ذلك الوقت، كما هي المدافع والرشّاشات وقنابر الديناميت، وما أشبه ذلك في هذه الأيام! على أنه ليست الدبّابات ولا الطيّارات ولا الرشّاشات هي التي تبعث العزائم وتوقد نيران الحميّة في صدور البشر، بل الحميّة والعزيمة والنجدة هي التي تأتي بالطيّارات والدبّابات والقنابر؛ وما هذه إلاّ مواد صمّاء لا فرق بينها وبين أيّ حجر. فالمادّة لا تقدر أن تعمل شيئًا من نفسها، وإنّما الذي يعمل هو الروح. فإذا هبَّت أرواح البشر وتحرَّكت عزائمهم، فعند ذلك تجد الدبّابات والطيّارات والرشّاشات والغوّاصات، وكلّ أداة قتال ونضال، على طرف الثمام. يقولون: «إلاّ أنَّ هذا ينبغي له العلم الحديث، وهذا العلم مفقود عند المسلمين، فلذلك أمكن الإفرنج ما لم يمكِّن المسلمين». والجواب أنَّ العلم الحديث أيضًا يتوقّف على الفكرة والعزيمة، فمتى وجِدَت هاتان، وجِدَ العلم الحديث ووُجِدَت الصناعة الحديثة. أفلا ترى أنَّ اليابان إلى حدِّ سنة ١٨٦٨ كانوا أمّة كسائر الأمم الشرقية الباقية على حالتها القديمة، فلمّا أرادوا اللحاق بالأمم العزيزة تعلّموا علوم الأوروبيين وصنعوا صناعاتهم. والعلم والصناعة لا وطن لهما، فاتَّسق لهم ذلك في خمسين سنة، وكلّ أمّة من أمم الإسلام تريد أن تنهض وتلحق بالأمم العزيزة يمكنها ذلك وتبقى مسلمة مستمسكة بدينها وأوضاعها. كما أنَّ اليابانيين تعلّموا علوم الأوروبيين كلّها وضارعوهم، ولم يقصِّروا في شيء عنهم، ولبثوا يابانيين مستمسكين بدينهم وأوضاعهم.

وأيضًا، فمتى أرادت أمّة مسلمة أدوات أو أسلحة حديثة ولم تجدها؟ إنَّ ملاك الأمر هو الإرادة، فمتى وُجِدَت الإرادة وُجِدَ الشيء المُراد. فلو أنَّ أمّة من أمم الإسلام أرادت أن تتسلّح، لوجدت السلاح الحديث اللازم بأنواعه وأشكاله من ثاني يوم. ولكنَّ اقتناء السلاح ينبغي له سخاء بالأموال، وهم لا يريدون أن يبذلوا ولا أن يقتدوا بالإفرنج واليابان في البذل، بل يريدون النصرة بدون سلاح وعتاد، أو السلاح والعتاد بدون بذل

أموال. وإذا تغلّب العدوّ عليهم من بعد ذلك صاحوا قائلين: "أين المواعيد التي وعدنا إيّاها القرآن [الكريم] في قوله تعالى: ﴿وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين﴾؟"؛ كأنَّ القرآن ضَمِنَ للمؤمنين النصر بدون عمل، وبدون كسب، وبدون جهاد بالأموال والأنفس، بل بمجرّد قولنا إنّنا مسلمون، أو بمجرّد الدعاء والتسبيح! وأغرب من ذلك، بمجرّد الاستغاثة بالأولياء والتمسّح بالقبور، فأصبح الكثير من المسلمين، وهم عُزَّل من السلاح الحديث، وغير مجهَّزين بالعلم اللازم لاستعماله، لا يقومون للقليل من الإفرنج المسلّحين المجهّزين، وصاروا إذا التقى الجمعان تدور الدائرة في أغلب الأحيان على المسلمين.

فتوالى هذا الأمر عليهم مدّة طويلة إلى أن فقدوا كلّ ثقة بنفوسهم، واستولى عليهم القنوط، ودبَّ فيهم الرعب، وألقوا بأنفسهم إلى العدو. وبعد أن كانوا مسلمين صاروا مستسلمين، وقد ذهلوا عن قوله تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، أن يمسّكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾، ونسوا أنه لا يجوز أن يتطرّق اليأس إلى قلب أحد، لا عقلاً ولا شرعًا، ولا سيّما المسلم الذي يخبره دينه بأنَّ اليأس هو الكفر بعينه، والذي يتلو قوله تعالى: ﴿إنّه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون﴾، وغفلوا عن قوله تعالى في سلفهم: ﴿الذين قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونِعْم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾ الآية. فتجدهم إذا استنهضتهم لمعاونة قوم منهم يقاتلون دولة أجنبية تريد لتمحوهم، كان أوّل جواب لهم: "أية فائدة من بذل أموالنا في هذا السبيل وتلك الدولة غالبة لا محالة؟". ولو تأمّلوا لوجدوا أنَّ الاستسلام لا يزيدهم إلاّ ويلاً ولا يزيد العدوّ إلاّ استبدادًا وجبروتًا ـ سنّة الله في خَلقه ـ ولو فكّروا قليلاً لرأوا أنَّ هذا الشحّ بالمال على إخوانهم الذين في مواطن الجهاد، لم يكن توفيرًا، وإنّما كان هو الفقر بعينه؛ لأنَّ الأمّة المستضعفة لا تعود حرّة في تجارتها وزراعتها وصناعتها وجميع اقتصاديّاتها، بل يمتصّ العدوّ الغالب عليها كلّ ما فيه علالة رطوبة في أرضها، ولا يترك للأمّة المستضعفة إلاّ عظامًا يتمششونها[1] من قبيل "قوت لا يموت". وكثيرًا ما

---

(١) يمصّونها.

تحصل مجاعات ومساغب[1]، ويموتون جوعًا، كما يقع كثيرًا في جزائر الغرب ومراكش والهند وغيرها. ترى المجاعات واقعة في الهند ولا يموت منها ولا إنكليزي، وتراها تنتشر في الجزائر ومراكش، ولا يموت منها إلاّ المسلم. وما السبب في ذلك إلاّ أنّ الأجانب قد استأثروا بخيرات البلاد ولم يتركوا للمسلمين إلاّ الفقر. فقام المسلمون اليوم يعتذرون عن عدم بذل الأموال لمساعدة إخوانهم بعدم وجودها، وهذا صحيح إلى حدٍّ محدود، وذلك أنهم بخلوا بها في الأول فَجَنَوا من بخلهم على الجهاد الذلّ والخنوع للأجنبي أولاً، والفقر والجوع ثانيًا. فإنّ من سنن الله في أرضه أنّ الذلّ يردفه الفقر، وأنّ العزّ يردفه الثراء. والمثل العربي يقول: «مَن عزَّ بزَّ». وشاعر العرب الإيَّادي يقول:

لا تذخروا المال للأعداء إنَّهمو ... إن يظهروا يأخذوكم والتلاد معا

هيهات لا خيرَ في مال ٍوفي نِعَم ٍ ... قد انتفعتم بها إن أنفكم جدعا

والمتنبّي يقول:

فلا مجدَ في الدنيا لِمَن قلَّ مالُهُ ... ولا مالَ في الدنيا لِمَن قلَّ مجده

فالمسلمون عزّ عليهم المال ففقدوه، وعزّت عليهم الحياة ففقدوها، وأبى الله إلاّ تصديق كلام النبي الموحى إليه حيث يقول: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعى الأَكَلَة على القصاع». قالوا: «أو من قلّة فينا يومهذٍ يا رسول الله». قال: «لا، ولكنّكم غثاء كغثاء السيل يجعل الوهل في قلوبكم وينزع من قلوب أعدائكم من حُبِّكم الدنيا وكراهيّتكم الموت». (هذا الحديث رواه أبو داود في سننه والبيهقي في دلائل النبوّة عن ثوبان مرفوعًا وجميع المحدثين يعرفونه). وقد تمّ ذلك كلّه في هذا العصر وصدق الرسول(ﷺ).

ونورد أمثلة أخرى من هذه الرسالة منقولة بالحرف عن كتاب «السيِّد رشيد رضا وإخاء أربعين سنة»[2].

---

(١) مجاعات.

(٢) (ص.٦٥٧).

يقول السيِّد رشيد، رحمه الله، في أحد مكاتيبه إلى الأمير شكيب ما يلي:

«مسألة مكتوباتك إلى الخِديَوي لا تستحقّ أدنى اهتمام، فالذي حملها أطلع عليها فلانًا (يذكر شخصًا معروفًا بالعداوة للأمير شكيب)، ونحن بالمرصاد لِما عسى أن يظهر. فلا يكن في صدرك حرج ولا تُضعْ شيئًا من وقتك في هذه المسألة». وقد كتب الأمير شكيب في الحاشية خلاصة علاقته بالخِديَوي وذكر كلّ شيء، ونفس الخِديَوي لم يقدر أن ينكر حرفًا ممّا ذكره الأمير شكيب. قال:

في سنة ١٩٢٢ كان سموّ الخِديَوي السابق من كرم أخلاقه تعرّض لي إذ أنا في جنيف، بواسطة بعض الأصحاب، مجتهدًا أن تكون لي به علاقة. ولكنّني بقيت مدّة أشهر أتردَّد في الدخول معه في علاقات وأتجنّب أن أزوره، إلى أن غلب عليَّ الحياء أخيرًا من كثرة مراجعة الأصحاب في هذا الموضوع، فذهبت معهم وزرناه في فندق سفواي في لوزان، وكان شديد السرور بذلك. ثمَّ لم تمضِ مدّة حتّى جاءني زميلي وصديقي سليمان بك كنعان اللبناني وقال لي: «إنَّ جناب الخِديَوي يعلم النفقات التي تتحمّلها أنتَ في غربتك من أجل القضيّة السورية والقضيّة العربية عامّة، ولا يرى من العدل في شيء أن تتجشّم ذلك أنتَ وحدك لأنها قضيّة عامّة لا تخصّك وحدك. فلهذا يريد أن يساعدك براتب ٣٠ جنيهًا في الشهر، فالرجاء منك أن لا ترفض هذا المرتّب الذي فيه بعض المساعدة لك على نفقاتك في أوروبا». فاعتذرتُ في البداية، ورويت لسليمان كنعان كيف أنَّ الخِديَوي أراد تكرُّمًا منه أن يساعدني بمبلغ من المال عندما مررتُ بمصر ذاهبًا إلى جهاد طرابلس الغرب، وأنه أبدى إذ ذاك وأعاد كثيرًا، وبقيتُ مصرًّا على الرفض، فلا أقبل الآن ما كنت رفضته من قبل. فقال: «تلك أيام مضت، وأنت الآن في جهاد طويل لا تقدر على القيام به منفردًا. وليس في قبول هذه المساعدة لقضيّة عمومية أنتَ واقف نفسك عليها أدنى شيء يُشينك». فقلت له: «أخشى أنَّ الخِديَوي يكلّفني أمورًا تمسّ مهمّتي التي هي عضوية الوفد السوري الفلسطيني، فأنا أشترط أن أكون بإزائه حرًّا في كلّ شيء». فقال: «إنَّ شيئًا من تقييد حرّيتك لا يخطر بباله، وتعالَ معي لنشكره على صنيعه».

فذهبنا إلى فندق شعراوي وقابلناه وقلنا له: «إنّما قبلنا هذا البرّ من سموّك التزامًا للأدب معك لا غير». فقال: «إنَّ هذه إنّما هي مساعدة ضئيلة لا تفي بعظيم حقّك، وأنا لا أتقاضاك بمقابلتها أدنى عمل خاصّ بي». وقد كان هذا منه فضلاً في بداية الأمر إلى أن طرأت بعض عوارض حملتني على التباعد عن سموّه والاستعفاء من قبول الراتب. فأصرّ على إبقائه لي، وكان يُرسل إليَّ بالحوالة وأنا في حال الانقطاع عنه. ولم يكن الخِديَوي يحدِّث الوفد السوري الفلسطيني بشيء ممّا يتعلّق بعرش سورية، لمعرفته بالشروط التي وضعناها لأجل الدخول معه في علاقة، وغاية ما كان يتطلّب - بواسطة مستشار أرمني كان عنده اسمه أنطون بك - أن نكتب إليه في الأحايين لإثبات اتّصالنا به. ثمَّ شرع أنطون بك هذا، الذي كان في الماضي من جواسيس السلطان عبد الحميد، وكانت له شهرة في الأستانة، بهذا الأمر، يغري الخِديَوي بأمور مخالفة للشروط التي كانت بيننا، فصرنا نجد من سموّه أطوارًا لم تكن من قبل. وصادف أنَّ بعض الحسَّاد المعلومين غمز بنا في إحدى الجرائد الفلسطينية، (هي جريدة فلسطين المعروفة بالعداوة للأمير شكيب) زاعمًا أننا بعنا سورية من الخِديَوي السابق بثلاثين جنيهًا في الشهر، وما أشبه ذلك من الأقوال السافلة. فرددنا عليها في جريدة «الشورى» قائلين ما معناه إنَّ شكيب أرسلان لم يطلب أدنى رفد من الخِديَوي، وإنْ كان الخِديَوي أجرى هذا الراتب فيكون كرَم خلق منه، ولا عيب في قبول شكيب أرسلان مساعدة من خِديَوي مصر السابق حفيد محمَّد علي؛ على أنه ما سعى شكيب أرسلان ولا أحد من زملائه، أعضاء الوفد السوري الفلسطيني، أقلّ سعي ليكون الخِديَوي ملكًا على سورية؛ لا لأنه غير لائق لعرش سورية، بل لأنَّ مهمّة الوفد السوري منحصرة في السعي بالحصول على استقلال سورية لا غير. وقضيّة العرش هي خارجة عن اختصاصه، بل عائدة للأمّة السورية. فالذين هم أنفسهم نشروا أننا بعنا سورية من الخِديَوي السابق، أرسلوا بكتابتنا هذه إليه لأجل أن يغتاظ منّا، فأرسل إلينا يعاتبنا على هذه الكتابة بواسطة أنطون الأرمني مستشاره. فأجبناه بأننا في هذا لم نخرج عن الشرط المعلوم، وهو أننا لا نتعاطى سوى ما يتعلّق باستقلال سورية. فلم يعجبه هذا الجواب ووجد علينا من أجله.

وصادف مرّة أنَّ لجنة الانتدابات في جمعيّة الأمم كانت انعقدت في رومة للبحث في مسألة سورية والثورة الكبرى في إبّان اشتعالها، وكنّا مضطرّين للذهاب إلى رومة لأجل تقديم شكاياتنا المتعلّقة بالثورة إلى لجنة الانتدابات المشار إليها. وكان علينا القيام بنفقات غير قليلة على المطبوعات والدعاية وما أشبهها، فقال لي زميلي إحسان بك الجابري: «إنَّ الخِديَوي لا يزال يذكر اهتمامه بقضايانا الوطنية، أفَلا تكتب إليه في أن يساعد الوفد في هذه الرحلة إلى رومة؟»، فكتبتُ إليه في هذا الموضوع بالأسلوب الذي أعلمه يؤثِّر به فلم يفعل شيئًا، ولكنّه بقي يتطلّب ويقترح أشياء نعتقد أنَّ مستشاره أنطون كان هو المغري له بها. وكان الخِديَوي لا يقدر أن يدخل إلى لندرة[1] وهو يسعى سعيًا حثيثًا في ذلك، فقيل لنا في أحد الأيام إنّه تمكّن من هذا الأمر بواسطة بعض ذوي النفوذ من اليهود، وإنَّ الإنكليز ـ بعد ذلك ـ قد ساعدوه في قضيّة أملاكه التي بمصر، وقد كانت الحكومة المصرية باعتها بثمن بَخس ممّا حمله على إقامة دعوى عليها. فلمّا توسّط الإنكليز في الأمر، رتّبت الحكومة المصرية من باب التعويض على الخِديَوي ثلاثين ألف جنيه كلّ سنة. فعند ذلك، شرع الخِديَوي في التقرّب من الإنكليز، ونشر بالإنكليزية كتابًا طبعه وجعل فيه توقيعه وصورته، وذلك في معنى النصح للمصريين بعدم مطالبة إنكلترا في شيء. فلا حاجة إلى جيش يحمي مصر لأنَّ إنكلترة هي حامية لمصر من كلّ اعتداء خارجي، ولا حاجة لمصر بالمطالبة بالسودان، لأنَّ إنكلترة تحفظ النيل لمصر، إلى غير ذلك من الآراء التي تضمّنها هذا الكتاب المطبوع المنشور الذي عندنا منه نسخة، ولا يقدر سموّ الخِديَوي أن يؤاخذنا على ذكر هذا الكتاب لأنه ما نشره ووضع عليه توقيعه وصورته ليكتمه. ونحن دُهشنا في الحقيقة لنشره كتابًا كهذا، لكنّنا لم نكلّمه بشأنه أولاً لِما نعلمه من استقلاله بفكره، وثانيًا لأنَّ الكتاب كان قد انتشر قبل علمنا به وقضي الأمر. غير أنَّ الخديوي لم يقتصر على التقرّب من الإنكليز، بل رأى من واجباته، مكافأةً على حسن الصنيع، أن يصلح بين العرب واليهود، وألحّ كثيرًا عليَّ وعلى زميلي الجابري في هذه القضيّة. وبديهي أنَّ هذا كان بتحريك اليهود أنفسهم الذين بذلوا لدينا

---

(١) لندن.

كلّ مجهود حتّى نرضى بالدخول معهم في موضوع كهذا، وكرّروا هذه المساعي من ١٥ سنة، فخابت آمالهم. فيظهر أنهم قد استغاثوا بسموّ الخديوي على أمل أن يقدر، بنفوذ كلمته، على إقناعنا؛ فكنّا ندافعه ونعتذر لديه بعدم إمكان تدخّلنا في هذا الأمر. وأخيرًا، جاءني وحده بمنزلي في لوزان وألحّ في قضيّة اليهود إلحاحًا زائدًا، فقلت له: "يا أفندينا، لست قادرًا على إطاعة أمرك في هذا الموضوع، لأنَّ عرب فلسطين يرون كلّ صلح مع اليهود مجحفًا بهم". فقال: "يجب عليكم أن تنصحوا لهم أنتم الزعماء، فإنَّه يستحيل أن يقدر العرب على مقاومة اليهود". فقلت له: "كلّ مَن يتكلّم في صلح بين العرب واليهود يعتقد العرب أنَّ اليهود قد اشتروه، فأنا لا أقدر على هذا. ثمَّ يا أفندينا، هذا الصلح الذي أنتَ تطلبه غير قابل الإجراء لأنَّ اليهود يريدون فلسطين أن تكون لهم، فأين يذهب عرب فلسطين؟"، فأجاب: "إلى شرق الأردن". فعندما سمعتُ هذا الكلام، لم أملك نفسي وأخذَتني الحدّة فقلت: "ما الذي يحملك يا أفندينا، وأنت أمير مسلم من أعظم أمراء الإسلام، أن تتفوّه بكلمات إذا نُقلت عنك تضرّ بسمعتك؟". فظهر الغيظ على وجهه وما عتم أن نهض وانصرف، وبعد أيام قطع الراتب المعهود. ثمَّ جاءني زائرًا وقال إنَّه يعتقد أنَّ هذه الوحشة سحابة صيف زائلة...إلخ، فرجوته أن يعرض لسموّ الجناب العالي كلّ ما تحمّلته من عداوة الملك فؤاد وغيره، ومن كلام الناس من جرّاء هذا المرتّب الضئيل الذي أشقّ ما عليَّ فيه أني لم أكن مستعدًّا أن أقبله منه، وأني ما رضيت بقبضه إلاّ حياءً وتأدّبًا. فلذلك لا أريد أن يحدِّث الخديوي نفسه بإعادته، وأنا مع هذا شاكر له عمّا مضى. ثمَّ لقيت عبد الله بك البشري في أحد المقاهي بلوزان فأعدتُ عليه الكلام نفسه.

ومضى على ذلك برهة، فصرتُ أسمع عن لسان الخديوي شيئًا أشبه بالمنّ. فكتبت إليه بغاية الأدب، كما هو الواجب، وذكرت له شكري على كرم أخلاقه الماضي ولكنّي استحلفته قائلاً له: "أنا أرضى بقولك، أفأنا سعيت لديك رأسًا أو بالواسطة، أم أنت تُجري عليَّ هذا الراتب، أم أنت استعملت كلّ وسيلة حتّى أقبله؟"، وذكّرته بما مضى من امتناعي عن قبول أية معاونة منه لمّا استأذنته في الذهاب إلى طرابلس الغرب. ثم

ذكرت له العداوات الشديدة التي تعرّضتُ لها والمكاره التي رأيتُها بسبب هذا الراتب. وختمتُ الكلام قائلاً له: «قد ارتكبت خطأ قبول رفدك بما سمعت من كلام بعض أصحابي مثل سليمان بك كنعان وغيره، ولكنّي لن أرتكب هذه الغلطة مرّة أخرى». فيظهر أنه لمّا قطع أمله من رجوعي إليه، صمّم على الانتقام وذلك بإبراز المكاتيب التي كان قد سبق أن كتبتها إليه. وأكثر ذلك كان بإلحاح سليمان كنعان وأنطون الأرمني، وظهرت حكمة اقتضاء المراسلة معه بما ثبت من جمعه لهذه المكاتيب وحرصه عليها إلى حدٍّ أنه كان يضعها في البنك بـ«لوسِّرن»[1] في الصندوق الذي فيه الجواهر الكريمة.

والخلاصة أنه استدعى مَن عاونه في إفراز هذه المكاتيب، وراجعوا كلّ حرف فيها، فلم يجدوا شيئًا يثلم شرفي ليتسلّوا بنشره؛ وإنّما وجدوا المكتوب الذي أقول فيه إنّنا ذاهبون إلى رومة نظرًا لانعقاد لجنة الانتدابات فيها، وإنَّ زميلي يقول إنّه يجدر بسموّه أن يساعدنا على نفقات المصلحة العامّة التي نحن ذاهبون من أجلها. وكتابي هذا صريح بأنَّ طلب المساعدة إنّما هو للقضيّة التي نحن في صددها لا لأشخاصنا. فظنّوا أنهم يشفون غليلهم بنشر هذا المكتوب ومكاتيب أخرى يفهم منها القارئ بأني كنت أقبض راتبًا من الخديوي ـ الأمر الذي ما أنكرته قطّ، بل أعلنته في جريدة «الشورى» ـ ونقلوا بضعة مكاتيب منها بالزنكوغرافيا، واستدعوا شابًّا سوريًّا معروفًا بما هو معروف فيه ممّا نُمسك عن الخوض فيه وسلّموه هذه المكاتيب، وأدّوا إليه أجرته ليذهب إلى مصر ويسلِّم المكاتيب إلى شخص اشتهر بعداوتنا ـ وبدون سبب ـ ليفعل بها ما يشاء ـ فهذه هي المكتوبات التي يشير إليها السيِّد رشيد ويقول لنا بأن لا نبالي أمرها. فبقيَت هذه المكاتيب مدّة في يد ذلك العدو ـ بلا سبب ـ من سنة ١٩٣١ إلى سنة ١٩٣٥، وهو يترصّد فرصة لنشرها بإحدى المناسبات، إلى أن لاحت له أخيرًا الفرصة الآتية:

في سنة ١٩٣٥، خطر ببال السفلة من عرب فلسطين الذين قضوا ١٥ سنة في خدمة اليهود والإنكليز أن يقلّدوا خطّنا ويضعوا عن لساننا مكتوبًا منّا إلى الحاج أمين الحسيني، بزعمهم، ندعوه فيه إلى بثّ الدعاية الإيطالية في بلاد العرب! وكان المقصود من هذه

(1) مدينة سويسرية ضمن المقاطعة الألمانية.

الدسيسة إسقاطنا وإسقاط الحاج أمين الحسيني تشفّيًا شخصيًا منّا، وخدمة لليهود والإنكليز. فهذا المكتوب، بخطّه وإملائه وإنشائه ومناقضاته الكثيرة للوقائع، ظهر في يوم نشره أنه مزوّر لا أصل له، وملأ خبر تزويره الآفاق برغم كلّ ما بذل الأعداء من مال اليهود لإثباته. ولكن مَن صارع الحقّ صرعه الحقّ وكبّه على أمّ رأسه (وقد خاب مَن افترى)، فسقط في أيدي عصابة التزوير وتحيّروا في أمرهم كيف يفعلون لتلافي هذه الفضيحة التي افتضحوها. ولمّا كانوا على صلة بذلك العدو - بلا سبب - دفع إليهم هذا المكتوب الذي استنجدنا فيه الخديوي يوم ذهبنا إلى رومة سنة ١٩٣٥ حيث انعقدت لجنة الانتدابات، وظنّوا أنهم بنشره يعوّضون من فشلهم الفظيع في التزويرة المعهودة. إلاّ أنَّ الذين تأمّلوا هذا المكتوب بعين الإنصاف لم يجدوا فيه شيئًا يثلم من شرفنا لأنه لا يُعاب وفد سياسي ذاهب لأجل الدفاع عن استقلال أمّة شرقية؛ أعضاء الوفد منها ثلاثة، هم ثلاثة أشخاص من ملايين، إذا استمدّوا أحد كبار أمراء الشرقيين وموسريهم ممّن طالما تحكّك بهم وعرض عليهم المدد أن يعاونهم في نفقات هذه الرحلة. ولم تجرِ العادة أنَّ الوفود السياسية تنفق على القضايا العامّة من جيوب أصحابها. فهذا الوفد المصري تحت رئاسة زغلول باشا لمّا ذهب إلى أوروبة سنة ١٩١٩، جمع له المصريون ٤٠٠ ألف جنيه. وهذا الوفد الفلسطيني الذي ذهب إلى لندرة للدفاع عن عرب فلسطين، أنفق جميع نفقاته من الأموال المجموعة من بلاده. وهذه الوفود العراقية التي تذهب إلى أوروبة لا تنفق إلاّ من الخزينة العراقية. فلا نفهم لماذا جاز هذا كلّه لوفود مصر وفلسطين والعراق، ولم يُجزْ مثله للوفد السوري الذي يجب عليه أن يقضي ١٥ سنة في أوروبة مدافعًا عن الوطن والأمّة، ولا يستمدّ أميرًا شرقيًّا موسرًا ولا غيره، بل أن تكون نفقاته كلّها من جيوب أصحابه؟ ففي أيّ شرع أو في أيّ عُرف وجد هذا؟ وأغرب من هذا أنَّ المكتوب إلى الخديوي الذي فيه هذا الاستمداد قد وقع فيه التزوير أيضًا، فإنَّهم نشروه ناقصًا على حدّ ﴿ولا تقربوا الصلاة﴾ لمَن حذف ﴿وأنتم سكارى﴾، فرفعوا منه التاريخ والديباجة والأسطر التي يعرف منها أنَّ استمداد الوفد السوري لم يكن شخصيًّا، بل لأجل المصلحة العامّة. وبالرغم من هذا الحذف كلّه لم يُخفَ على أحد أنَّ هذا المكتوب ليس فيه ما يشفي

غليلاً، لا لناقله بالزنكوغرافيا، ولا لناشره، ولا للذين حاولوا به تخفيف فضيحتهم من هذه التزويرة التي وصمتهم بالعار أبد الدهر.

أطلنا الكلام على القارئ في قصّة مكاتيبنا هذه إلى الخديوي، لأنه قلّما وُجِد في الشرق مَن لم يسمع بها، ولأنَّ المتشدِّقين تشدَّقوا بها كثيرًا كما لا يخفى، فأحببنا نقلها من أولها إلى آخرها بدون احتجان[1] شيء منها. ولو أردنا المقابلة بالمثل، لوجدنا في قمطرنا[2] مكاتيب فيها ما فيها... ولكن ربأنا بنفسنا عن المقابلة بالمثل في عمل نترك الحكم فيه للقرّاء.

هذا ما نقلناه عن كتاب الأمير شكيب في سيرة السيِّد رشيد رضا، ومنه يُعلَم أنَّ الأمير لم يساوم الخديوي على شيء، وأنه لم يقبل منه ذلك المرتّب الضئيل إلاّ بعد إلحاح ومراجعات كثيرة من الخديوي، وأنه لم يقبله إلاّ على شرط عدم تكليفه بالسعي له بعرش سورية، وأنه كان استعفى من أخذ هذا المرتّب وأصرّ الخديوي على إبقائه، وأنه لمّا قطع الخديوي هذا المرتّب عن الأمير أرسل إليه بكتاب استحلفه فيه بشرفه قائلاً له: «هل أنا التمست من سموّك يومًا من الأيام، رأسًا أو بالواسطة، أن ترتّب لي ثلاثين جنيهًا في الشهر، أم أنت عملت كلّ الوسائل حتّى أقبل هذا المرتّب؟». ولم يقدر الخديوي أن ينكر هذه الحقيقة، وصورة مكتوب الأمير للخديوي موجودة. كما أنه لمّا كان الخديوي في الأستانة سنة ١٩٢٠، استكتب السيِّد محمَّد العتابي المراكشي من أصدقاء الأمير كتابًا إليه يقول له فيه: «إنَّ جناب الخديوي يريد أن يبعث إليك بمبلغ من المال تستعين به على مصاريفك في أوروبا، فأخبرْني بعنوانك ليرسل إليك بالمال»؛ فوصل هذا الكتاب إلى الأمير شكيب وهو في مونيخ من ألمانيا، فأجاب السيِّد العتابي قائلاً: «قدِّم شكري لسموّ الجناب الخديوي، وقُلْ له إنَّه لا يلزمني شيء وإنَّ الله كافيني الاحتياج. فالذي يريد سموّه أن يبعث به إليّ أرجو أن يحوّله إليك نظرًا لكونك غريبًا من مراكش، قذفَت بك الغربة إلى استانبول. وإذا فعل ذلك كأنه أسدى هذه العارفة

(١) احتفاظه لنفسه بشيء منه.
(٢) ما يُصان فيه الكتب.

إليّ». والسيّد العتابي لا يزال حيًّا يُرزق، ولله الحمد، وهو ناظر التكية الكلشينة في مصر، فمَن شاء فليسأله هو ليس ببعيد.

وقد ذكر الأمير شكيب في كتابه «شوقي أو صداقة أربعين سنة» (صفحة ٣٦) كيف أنَّ جناب الخديوي عرض عليه مبلغًا من المال عندما أجمع السفر إلى بنغازي للجهاد في محاربة الطليان، فقال: «وعاد الخديوي فاستدعاني مرّة ثالثة وأرادني على الإقامة بمصر وصرف النظر عن الذهاب إلى برقة. أرادني على ذلك بكلّ ريدة، فلم أقتنع. وقلت له: إنّي ما جئت من لبنان إلاّ قاصدًا لجهاد في طرابلس. فلمّا يئس من إقناعي بالبقاء في مصر وودّعته لأجل السفر، أراد تكرّمًا منه أن يساعدني مساعدة متوالية، فاعتذرت له قائلاً إنَّه لا يلزمني شيء من ذلك، وإنَّه موجود في جيبي مالية ما يسدّ حاجتي في هذه الرحلة. فألحّ في قبول المساعدة إلحاحًا شديدًا لم أقدر على صرفه عنه إلاّ بقولي: إنّي إذا أنفقت ما لديّ ومسَّت بي الحاجة إلى شيء فلا أتأخّر عن أن أستمدّ عاطفة سموّكم. وكان هذا الحديث أمام أحمد بك العريس، ومحمَّد بك عثمان من رجال المعيّة الخديوية».

فليتأمَّل المتأمِّل ماذا تجني الوطنية على صاحبها من المكاره بسبب مقاومته للاستعمار في إبّان صولة الاستعمار على بلاد الشرق... مبلغ ضئيل، ثلاثون جنيهًا في الشهر لم يكن هذا الرجل هو الملتمس له، بل اعتذر ملتمسًا إقالته منه، جعله الحسّاد وأذناب الاستعمار موضوع طعن وقذف طافوا به في كلّ العالم. وبيت له في برلين اشتراه في أيام سقوط المارك، ولا يزال هذا البيت مرهونًا تحت واحد وعشرين ألف مارك، يطبق هذا البيت الشرق والغرب ويدور ذكره في الخارجية الإفرنسية. وكلّما أراد حاسد أو ذَنَب من أذناب الاستعمار الإفرنسي أو الاستعمار الإنكليزي أن يهاجم الأمير، يتكلّم عن هذا البيت الذي يفضل من دَخْله في السنة ثلاثة إلى أربعة آلاف مارك. فلو كان الأمير شكيب من سماسرة الاستعمار وكانت قد دخلت عليه الملايين وكانت أنعل أفراسه عسجدًا ـ كما قال المتنبّي لما كان أحد تكلّم عليه بكلمة. وإنَّ مئات وألوفًا من الشرقيين ومن العرب يقبضون من فرنسا ومن إنكلترا الرواتب الباهظة جزاء مساعيهم ضدّ أمّتهم وأوطانهم، ويستدرّون أخلاف الخيانة استدرارًا وما أحد يتكلّم بكلمة، وذلك لأنَّ

الاستعمار في الشرق هو السائد؛ فالذي يخدمه ينعَم ويطمئنّ ويأمن من الشرق والفرق.

وأمّا الوطنية، فهي الخطّة الشاقّة التي يضطهدها الاستعمار ويُنفق على أذيّة أهلها الأموال الطائلة حتّى يخنق أصواتهم. ولكنَّ الحرّ حرّ ولو منه الضرّ، والأحرار الذين أخذوا على أنفسهم أن يرفسوا النير الأجنبي عن بلادهم لن يثبطهم عن ذلك افتراء جاسوس إفرنسي ولا اختلاق سمسار إنكليزي، وهم يعتزّون بما أصاب الرسول (ﷺ) والصحابة الكرام (رضي الله عنهم) في تأدية مهمّتهم، حتّى أنه قد ورد في حقّهم قوله تعالى: ﴿ولتبلون في أموالكم وأنفسكم وتسمعون من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والذين أشركوا أذى كثيرًا وأن تصبروا وتتّقوا فإنَّ ذلك من عزم الأمور﴾.

وسنذكر في فصول تالية العداوة التي وقعت بين الأمير شكيب وبين جمال باشا بسبب أعمال جمال باشا في سوريا أيام الحرب الكبرى. وسنذكر أيضًا علاقة الأمير شكيب بالسيِّد أحمد الشريف السنوسي، قدَّس الله سرَّه، وكيف أنه عندما أخرجت حكومة أنقره السيِّد السنوسي من تركيا وكافأته أشنع مكافأة على حسن صنيعه بحقّها، كان الأمير شكيب أول مَن أقام النكير على تركيا، ونشر ذلك في جريدة "كوكب الشرق" بمصر، وكانت هذه الواقعة من جملة أسباب حملاته الشديدة على الحكومة الكمالية. ولا نقصد في إثبات هذه الحقائق، التي يعرفها الجميع، تكذيب جاسوس إفرنسي ـ من أهالي حلب الشهباء ـ يتزلّف إلى سادته الإفرنسيين باختلاق أمور لم يقل بها أحد؛ فإنَّ مثل هذا السافل هو أسقط من أن يؤخذ كلامه بعين الاهتمام. ولكنّنا نقصد بيان حقائق تاريخية كانت مطويّة، فأوجب الحسّاد وأذناب الاستعمار الوسيلة لنشرها وحقَّقوا قول أبي تمّام:

وإذا أراد اللهُ نشرَ فضيلةٍ ... طُويتْ أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يُعرف طيب عرف العود

العالم الإسلامي
يفقد اثنين من خيار رجاله

فقد العالم الإسلامي في الأيام الأخيرة اثنين من خيار رجاله كلّ منهما اسمه عبد الحميد؛ فقد انتقل إلى دار البقاء منذ شهر السيِّد عبد الحميد البكري، نقيب نقباء الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية بالديار المصرية. وقد كان هذا الفقيد الكريم، فضلاً عن مركزه الاجتماعي العظيم ونزاعة بيته الشهير، هو في ذات نفسه فاضلاً كبيرًا وسريًّا خطيرًا على جانبٍ عظيم من سموّ المدارك وسعة الأفكار ومكارم الأخلاق، وكانت له منزلة راسخة في علم التصوّف مشاركًا العلوم الأخرى، وكانت له اليد الطولى في الجامعة الشرقية، ورَأَسَ جمعيّة الرابطة الشرقية مدّة طويلة.

وبالإجمال، فقد كان نقيب نقباء الأشراف بحقّ وشيخ مشايخ الطرق الصوفية نظرًا وعملاً، رحمه الله وأعلا مقاومه. وقد أتيح لي الاجتماع معه في زيارتي لمصر منذ أشهر، وزرته وزارني وقلّما راقني مجلس من مجالس العظماء أكثر من مجلسه. وكان صديقًا وجارًا لسعادة صديقي الأستاذ العلاّمة الدكتور منصور فهمي، مدير خزانة الكتب المصرية. فكانت لنا نحن الثلاثة مجالس لا تبرح الذهن ذكراها؛ فالله نسأل أن يُمطر هذا الفقيد شآبيب عفوه وغفرانه، وأن يُفرغ صبرًا على آله وإخوانه وأبناء أوطانه.

وأمّا الفقيد الثاني، السيِّد عبد الحميد باديس، رئيس جمعيّة علماء الجزائر، فقد كان ركن الجزائر الأوحد وعلمها المفرد ومرجعها المُشار إليه بالبَنان. لا يختلف في زعامته اثنان؛ عالمًا عاملاً فاضلاً كاملاً، بليغ العبارة، سيّال القلم، محدِّثًا محقِّقًا مفسِّرًا، صحيح الفكر، قويّ الحجّة، ساطع البرهان، عالي الهمّة، نهض بمسلمي الجزائر نهضة عظيمة اعترف بوجودها المسلمون كما اعترف الفرنسيس، وأسَّس ورَأَسَ جمعية العلماء التي كان لها من المآثر في تأييد العقيدة الإسلامية ونشر الثقافة العربية في ذلك القطر

الذي مُنِي بالتفرنُج والتفرنُس، وبذلَت فيه فرنسا جميع مجهوداتها حتّى تجرّد أهله من عقيدتهم ولغتهم وأخلاقهم وعاداتهم. فجاء عبد الحميد باديس سدًّا منيعًا دون نفوذ مآرب فرنسا هذه، وأيقظ العيون النائمة، وأثار العزائم الكامنة، وأحدث انقلابًا روحيًّا نفضت من بعده الجزائر غبار الخمول الذي كان قد ران عليها وقلب أوضاعها وكاد يسلخها من الإسلام والعروبة. وكان الأستاذ باديس، رحمه الله، ورهطه الذين اقتفوا أثره يجولون في البلاد ويرشدون الأمّة ويقوّمون المتأد من أحوالها، وينظرون في حاجاتها الروحية والعلمية، ويفتحون المدارس والكتاتيب.

ولمّا اشتدّ تضييق فرنسا على المعاهد الدينية الإسلامية، وأقفلت دار الحديث في تلمسان وكثيرًا من المكاتب القرآنية، وعلّلت فظيع عملها هذا بكونها لا تسمح بفتح الكتاتيب من دون رخصة من الحكومة، وتناست كون أصحاب هذه الكتاتيب طالما قرعوا أبواب الحكومة والتمسوا منها الرخصة بفتحها، فامتنعت عن إعطائها، رَفَع الفقيد العلامة المُشار إليه صوته بالاحتجاج الشديد في مجلّته القيّمة «الشهاب» التي أخرجها منذ عشر سنوات ونشر فيها من الفصول وبثَّ من الفوائد ما جعلها من أرقى المجلاّت الإسلامية، فصارت شيئًا أشبه بمنار فقيد الإسلام السيِّد رشيد رضا، رحمه الله. وقد كان الأستاذ باديس من المعجبين بالمشرب الرهوي الجامع بين الريعة والثقافة العصرية، النازع إلى إعادة الإسلام نقاوته الأُولى لعهد الصحابة الكرام قبل أن يدخل فيه ما لم يكن منه، ولذلك كان حسّاد السيِّد باديس كحسّاد السيِّد رشيد رضا، ينبزونه باتّباع مذهب ابن تيمية ويعيبونه بما يسمّونه بالوهّابية. وحقيقة الحال أنَّ كلاًّ من هذين الحَبرين لم يكن ليريد إلاّ إحياء السُّنة المحمَّدية خالصة من الشوائب. ولم يقتصر الأستاذ باديس على الاجتهاد في تثقيف الناشئة الجزائرية بالإسلام والعربية في وقت حاولت فيه فرنسا طمس معالمهما في ذلك القطر الكبير، بل قام من خلال مواعظه الدينية ومساعيه الاجتماعية بحركة سياسية هدفها تحرير الجزائريين من العبودية التي هم يرسفون في قيودها، ونيل درجة المساواة في الحقوق بينهم وبين الإفرنسيين الذين لهم عليهم جميع الامتيازات، وإلغاء القانون الخاصّ بالمسلمين الذي يجعلهم طبقة دنيا عن الإفرنسيين وعن سائر الإفرنج،

بل عن اليهود أنفسهم. ويطول بي هنا المجال إذا أردت شرح مآثر عبد الحميد باديس في مكافحة امتيازات الفرنسيين في الجزائر ومقاومة ضروب استعمارهم بالرغم ممّا كان يعلم من بوادر استعمارهم؛ فقد بلغت بالفقيد جرأته أنه كان لا يجمجم في أقواله ولا يمشي الضرّاء ولا يتوارى وراء الأعذار والتعلات. وكان الإفرنسيون يضمرون له كلّ السوء، ويتربّصون به الدوائر ليقضوا عليه وعلى رهطه القائمين بتنفيذ أهدافه. ولذلك لمّا بلغهم موته منذ أيام قلائل، أظهروا الشماتة بموته وقرنوا الكلام على خطّته المخالفة لسياسة فرنسا بالثناء على مَن يتزلّف إليهم من علماء الجزائر، وسمّوا أُناسًا لم نكن نحبّ لهم هذا الثناء. فإنَّ قيمة الرجل، لا سيَّما في هذا العصر الذي غلب فيه الاستعمار الأوروبي على المسلمين وجعلهم أشبه بالعبيد منهم بالأحرار، هي على قدَر سخط المستعمرين، وإنَّ أعظم مصيبة أدبية على المسلم هو أن يكون حائزًا رضاهم. اللهُمَّ أجزِ عبد الحميد باديس عن الإسلام خيرًا وانفعْ مسلمي الجزائر بسيرته، واجعله لهم سراجًا منيرًا.

هذا، ولم أكن ممّن عرفوا المرحوم شخصيًّا، وإنّما وقعَت بيننا بعض المكاتبة. وغاية ما هناك أنَّ التواتر يشهد له بما ذكرت وبما هو فوق ما ذكرت، وقد نقل إلى مجلّته كثيرًا من كتاباتي. ولمّا تحامل عليَّ سليمان الباروني منذ سنتين لينال رضا الإنكليز الذين جعلوه بدل ذلك مستشارًا لسطان مسقط، انبرى للردِّ على الباروني بعض الجلّة من علماء الجزائر حتّى من الفرقة الأباضية التي منها الباروني، وأدحضوا أقواله انتصارًا للحقيقة؛ وكان في مقدِّمة المنتصرين لهذا العاجز العلاّمة السيِّد عبد الحميد باديس، رحمه الله. أمّا نسَب الفقيد، فقيل لي إنَّه نسب المشاهير آل باديس الذين كانوا ملوك البربر، ومنهم المعزّ بن باديس الذي ثار على الدولة الفاطمية في القرن الرابع للهجرة. وقد كان تحصيل الفقيد المرحوم في جامع الزيتونة بتونس، وهو معدود من نوابغ المتخرّجين في ذلك المسجد الشهير.

جنيف، في ٢٧ نيسان ١٩٤٠

شكيب أرسلان

ولا تجزون إلاّ ما كنتم تعملون

اليوم دخل الألمان باريز*

ليس في ما نحن فيه مجال للتفاصيل، ولعمري ستضيق الكتب وما وسعت، وتجفّ المحابر وما سقت، وتحفى الأقلام وما نسقت، ولا توفي حقّ المعركة الكبرى المشتبكة في ضواحي باريز التي يسمّيها الفرنسيس بمعركة فرنسا.

معركة بدأت من أسبوع، وكانت فيها الجيوش الألمانية تنتقل من نصر إلى نصر. ويُقدَّر عدد العساكر الألمانية التي اشتركت في هذا الزحف بمائة وعشرين فرقة، أي مليون وثمانمائة ألف مقاتل. وقد بدأ الإفرنسيون يعترفون اليوم بأنَّ الألمان أكثر عددًا وأجود عتادًا منهم. وعلى كلّ حال، فالجيش الإفرنسي الذي يدافع الجيش الألماني عن ذمار فرنسا هو أعظم جيش ملكته فرنسا، ولكنّه لم يقدر على مقاومة الجيش الألماني ولا مَنَع سقوط باريز في أيدي الألمان.

إنَّ المعركة الكبرى بين ألمانيا ودول الحلفاء، أي فرنسا وإنكلترة وفلول بولونيا وفلول التشيك وشاردي بلجيكا وغيرهم. هذه معركة لا يقال إنَّها انتهت وجفّ القلم، ولكن للجيش الألماني أن يقول: "كما أحسن الله في ما مضى كذلك يحسن في ما بقي". وجميع الأدلّة متظاهرة على أنَّ الألمان ستكون لهم الطائلة الأخيرة، والله هو الناصر الحقيقي ﴿يؤيِّد بنصره مَن يشاء﴾.

لعلَّ هذا الدرس القاسي الذي لم تعرف مثله فرنسا ولا إنكلترة، يكون لهما تأديبًا وموعظة وذكرى وعبرة، فتعرفان أنَّ للخَلق ربًّا هو الله تعالى، وأنهما هما لم تقوما مقامه على الخلق. ولعلّهما تعلمان أنهما سُقيَتا بكأسٍ كانتا تَسقيان بها عباد الله.

---

* باريس.

سُقيتَ كأسًا كنتَ تسقي بها أمرّ في الحلقِ من العلقم

مكّنهما الله من رقاب كثيرة، فتحكّمتما فيها ما أرادتا ولم ترعيا حقًّا ولا حرمة، ولا حسِبَتا للدهر حسابًا، وظنّتا أنَّ هذه الكرة الأرضية إنّما وجدت إقطاعًا لهما ليس فوق يدهما يد ولا يقدر أن يناقشهما في أمرها أحد.

نزَّت[١] بهما البطنة[٢] وأبطرتهما النعمة ورانتا على طول الجمام، وأشرتا من كثرة الطعام، وظنّتا أنهما لأجلهما دارت الأفلاك وكوّرت الأيام على الليالي وكوّرت الليالي على الأيام. وبينما هما جاريتان في ميدان بغيهما، ممعنتان في ما ألِفتا من غيّهما إذ قال الله لهما: قِفَا تبكيان على خطيئاتكما وتقرعان سنَّ الندم على موبقاتكما، وتتذكّران أنَّ من عبادي خمسمائة مليون سلكتما رباق الرقّ في أعناقهم وحِلتما بينهم وبين معايشهم وأرزاقهم وذلك لتملاءا[٣] من جنى أيدي هؤلاء العبيد جيوب أهل لندن وباريز اللتين إحداهما سقطت والأخرى تنظر إليها ولا تقدر أن تغيثها، أشبه بالرفيقين اللذين أحدهما غرق في اليمّ والآخر عاجز عن أن ينتشله ﴿وإذا أردنا أن نُهلِك قرية أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها، فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميرًا﴾.

نعم، جاء الوقت الذي تجني فيه باريز ثمرة اعتدائها وكبريائها. وكان عدلاً أن تحصد ما زرعت وتُجزى بما صنعت؛ ولكلّ جنب مصرع، وكما قال المَثَل العامّي: «ما من شجرة وصلت إلى السماء». نعم، لمثل باريز أن يدوسها العدوّ بقَدَمه، وأن يجوس خلالها وأن يجدع أنفها، وأن يكون آلة عقاب يعذِّبها به الله تعالى لا على الظلم والجور وغصب بلاد الناس ونزع أراضيهم والاستبداد بأعناقهم وأرزاقهم فحسب، بل على الرئاء والكذب والبهتان وتصوير الباطل بصورة الحقّ، والزعم بأنها هي ولندرة مركزًا الحرّية وموطنًا الديمقراطية ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولوا إلاّ كذبًا﴾، والحقيقة أنهما هما الخانقتان لحرّية الأمم التي أوقعها سوء عملها تحت نير الاستعمار الإنكليزي والإفرنسي. ولِيّ صوت حرّية يمكن أن يرتفع باللسان أو بالقلم! وأيّ نداء إلى عدالة أو إنصاف يستطيع

(١) تحلّب منها النزّ، وهو ما يتحلّب من الأرض من الماء (فارسي معرَّب).
(٢) النهم.
(٣) لتملأا.

المظلوم أن يجهر به في ظلّ هذين الطاغوتين الجائرين اللذين يقال لأحدهما فرنسا وللآخر بريطانيا العظمى! وأية إرادة يملكها شعب من هذه الشعوب التي أراد الله تمحيصها وابتلاءها بهذين التّنينين الملتقمين لكلّ ما يمرّ بهما.

لو لم يكن من سيّئاتهما سوى إفساد أخلاق البشر وتعويد الناس بيع الضمائر بالدراهم، وتسليط الأموال على الحقائق الساطعة كالشمس الواقعة تحت البصر والسمع واللمس، يملأون بطون أناس لا خلاق لهم من أمّتك، فيقومون ويجحدون ما أنت، والثقلان بمرأى منه ومسمع. ويزعمون أنّ أمّتك غير مظلومة ولا مهضومة، وإنّما جاءت فرنسا لتعلّمها وتهذّبها وإن كان مَن يطالب باستقلال هذه الأمّة وتخليصها من استعباد فرنسا لها إنّما هو مارق خارج خائن لقومه! وينهالون عليه بأقذع الشتائم، ويرمونه بأعظم العظائم، وذلك بدلاً عن الأموال التي تنقدها فرنسا لأولئك البائعين لأوطانهم. نعم، لو لم تكن لهم سوى هذه السيّئة التي هي أعظم معول لهدم الأخلاق التي عليها قيام بناء الأمم لكبر ذلك مقتًا عند الله، واستحقّ النكال الصارم الذي يبقى عبرة على الأيام لكلّ مَن أراد أن يفسد الأخلاق العامّة في سبيل منافعه الخسيسة.

انظر إلى هذه المعركة الكبرى التي لم يمض عليها إلاّ شهر وأربعة أيام، في خلالها سقط في يد ألمانيا هولاندة وبلجيكا والجانب الأعمر من فرنسا. وأخذ الألمان مليونًا وثلاثمائة ألف أسير منهم ومن الإنكليز وإطلالهم على إنكلترا من أقرب السواحل إليها. وقد انتهى الأمر اليوم بدخولهم إلى باريز ظافرين غالبين. فهذا هو شهر ولكنّه دهر. ﴿وكذلك أخذ ربّك القرى إذا أخذها وهي ظالمة إن أخذه أليمٌ شديد﴾.

مهما كانت ألمانيا قويّة وكان جندها باسلين مستبسلين، ومهما كانت أعتدتها العسكرية متّفقة وكانت لها اختراعات آليّة مدهشة. ومهما كان هيتلر عبقريًّا خارقًا للعادة، وكانت له في السرعة آيات بيّنات كالصواعق، فلا تظنّن هيتلر هنا إلاّ آلة إلهية قد هيّأها العزيز الجبّار للانتقام من أولئك الطواغيت الذين استعبدوا ثلث العائلة البشرية، ثمَّ بلغت بهم الجرأة على الله أن زعموا أنهم إنّما يحاربون لأجل حرّية

الشعوب، ويسفكون دماءهم ويحثّون[1] الذهب حثيثًا لأجل الدفاع عن الضعفاء! لشدّ ما احتقر هؤلاء عقول البشر، وظنّوا أنهم بدعاياتهم الكاذبة يقلبون حقائق الأشياء.

وأبلغ من ذلك وأبعد مدى في الهزوء بعقول الناس، أنَّ حكومَتَي فرنسا وإنكلترة جعلتا تصلّيان في الكنائس وتستغيثان بالله وبالقدّيسين والقدّيسات حتّى ينصرهما الله على العدو الذي أخذ بخنقهما. ولم تكن هذه الصلوات وهاتيك الضراعات لأجل السلام وإغماد الحسام وإقرار الوئام، ولكنّها كانت لأجل اطِّرادهما سياسة استعباد البشر واستمرار الظلم والترف، وذلك متوقِّف على هزيمة ألمانيا التي جاءت تُنافسهما وتنازعهما السيادة العالمية.

ولكنَّ الله العالِم بالسرائر، المحيط بالضمائر، لم يسمع دعاءهم ولا لبّى نداءهم وأجابهم بحكم قوله تعالى: ﴿حتّى إذا أخذنا مُترفيهم بالعذاب إذا هُم يجأرون لا تجئروا اليوم إنّكم منّا لا تنصرون﴾.

ما كان هذا الواقع بهم من رزايا تفوق تصوّر العقول في المال والرجال ـ لا تصدّقوا أنَّ خسائر الألمان كانت أفحش من خسائرهم، بل خسائرهم كانت أعظم من خسائر الألمان ـ إلاّ جزاءً على بطرهم وأشرّهم وكبريائهم وجبروتهم وطغيانهم على الناس، ولا سيّما على المسلمين الذين عاملوهم، سواء في المغرب أو في الهند أو في سائر الأقطار التي غلبوا عليها، معاملات ليس فوقها إلاّ معاملة الحيوانات.

ما كانت هذه الداهية الدهياء والنازلة القاصمة للظهر، الواصمة لهم أبد الدهر إلاّ جزاء إعمالهم السيوف في المساكين من أهل المغرب غير عافين حتّى عن النساء والأطفال والعاجزين. وسننشر من أخبار هذه الفظائع ما نحن ناقلوه عن أنفس الفرنسيس، بل عن أنفُس الذين ارتكبوا تلك الأعمال الوحشية. وإن كان منها ما مضى عليه قرن أو نصف قرن أو ثلث قرن، فإنَّ منها ما هو حديث العهد مثل تجريدة فرنسا على جبل الأطلس سنة ١٩٣٢؛ إذ قتلوا بالآلاف ودمّروا بالآلاف، وحوّلوا مجاري المياه حتّى

---

(١) من حثَّ: قبضه ورماه.

أماتوا المسلمين بالعطش، وأحرقوا بعض زعماء القبائل بالنار. وكان بطل هذه الأعمال الوحشية هو نفس الجنرال نوغيس الذي كافأته فرنسا على موبقاته هذه، وعلى نهائه الدائم إلى باريز بأنَّ كلّ اعتدال في معاملة المسلمين هو خطأ مُبين يستثمره المسلمون في تقوية حركاتهم ضدّها، وذلك بأن جعلته المقيم العام في سلطنة المغرب. وهو الذي حلّ عصبة العمل القومي المغربية وفَتَكَ برجالاتها سنة ١٩٣٧، وقمع مظاهرات احتجاجها في الشوارع بالسيف والنار، وحكم على ألوف من الوطنيين بالحبس والأشغال الشاقّة، ممّا سبق لنا أن ذكرناه.

هذه الوقائع السود الجارية في أرض فرنسا على الفرنسيس هي جزاء تعرُّض فرنسا للدين الإسلامي في المغرب وعملها لمحوِهِ من بين البربر تمهيدًا لتنصيرهم. ومَن شاء أن يعلم حقيقة هذه المأساة فليقرأ كتاب الكاتب الكبير السيِّد مكّي الناصري، صاحب جريدة «الوحدة المغربية» الصادرة في تطوان، وهو الكتاب الموسوم بـ«فرنسا وسياستها في المغرب الأقصى»، قدَّمه للمؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس ووضع تحت العنوان ما يلي:

ـ صراع عنيف بين الحقّ والقوّة

• مراكش تريد:

١ـ أن تظلّ أمّة محمَّدية.

٢ـ أن تظلّ خاضعة للقوانين الإسلامية.

٣ـ أن تظلّ عربية روحًا ولغة.

٤ـ أن تظلّ متمتّعة بوحدتها القومية.

٥ـ أن تبقى في الغرب سندًا للعائلة العربية.

٦ـ أن تستفيد من «الحماية» معونة وسندًا.

٧ـ أن تستعيد استقلالها كدولة إسلامية.

٨ـ أن تكون كلمة الحقّ هي العالية.

• **فرنسا تريد:**

١ـ أن تُكرِهها على المسيحية.

٢ـ أن تُخضعها لأعراف جاهلية ثمَّ إفرنسية.

٣ـ أن تجعلها إفرنسية روحًا ولغة.

٤ـ أن تجزِّئها بشعوبية بربرية.

٥ـ أن تدمجها بالعائلة الفرنسية.

٦ـ أن تكتب من الحماية سطوة ومددًا.

٧ـ أن تحوِّلها إلى مستعمرة كاثوليكية.

(أن تنتصر) القوّة الباغية، وهو جزاء استئثار فرنسا بأجود أراضي مراكش وثلثي أراضي الجزائر وثلث أراضي تونس، وإعطائها إلى المستعمرين الإفرنسيين؛ هذا عدا أخذها أكثر الضرائب المفروضة عليها لأجل عقد قروض تُدفع على سبيل التقوية لأولئك المستعمرين. وهذا جزاء بقاء ثمانمائة ألف ولد من أولاد الجزائريين ـ وهو إحصاء رسمي ـ المسلمين أُمّيين لا يتعلّمون شيئًا، ولا من القرآن الكريم. وهذا جزاء حرمان المسلمين كلّ حقٍّ في منازعاتهم مع الإفرنسيين، كما تشهد به سجلاّت محاكمهم ومعاملتهم بقانون، ومعاملة الإفرنج واليهود بقانون آخر حتّى لا تكون مساواة بين الفريقين، وهذا إلى ساعتنا هذه.

هذا جزاء أخذ فرنسا من مسلمي شمالي أفريقية مليونًا وثلثمائة ألف شاب تزجّ بهم في هذه النار الحاطمة بينها وبين ألمانيا. وهي، مع ذلك، تأبى أن تكافئهم على هذه المتالف الهائلة بإجراء المساواة بينهم وبين الإفرنج واليهود، وتحكم على المطالبين بها بالحبس والأشغال الشاقّة. وقد فعلت بهم الأفاعيل بتونس سنة ١٩٣٨، وقتلت جنودها وجرحت من المطالبين بها مئات ولم تجبهم إلى شيء من مطالبهم. فهذا هو جزاؤها الآن وكما تُدين تُدان.

هذا جزاء إنكلترة عمّا فعلته ولا تزال تفعله بالهند. وعلى ما فعلته بعرب فلسطين ممّا جراحه سائلة في قلوب العرب أجمعين وعلى ما بيّتت من المكايد للعرب في المشارق والمغارب، وعلى اتفاقها الأخير مع الترك وإطماعها إيّاهم في أملاك العرب بدل محاربتهم في صفوفها. وبينما هي وفرنسا تنتظران من تركيا خوض هذه الحرب في جانبهما، إذا بأخبار اليوم أنَّ تركيا أحجمت وقالت لهما إنَّها لا تحارب إلاّ دفاعًا عن نفسها، وتناست القروض التي أقرضوها إيّاها، ١٢٣ مليون جنيه منها ١٤ مليونًا ذهبًا، ونسيت نزولهما لها عن إسكندرونة. ويقال إنَّ سفيري فرنسا وإنكلترة وصلا في خطاب تركيا إلى حصر التهديد، وإنَّ تركيا أجابت بأنها ستقف في الموضوع على خاطر الروسية. هذه هي أخبار تركيا الأخيرة، أكلت الطعم و... على السنّارة.

هذا جزاء غدر فرنسا بالسوريين، وعقدها معهم معاهدة تنكث بها بعد ثلاث سنوات من عقدها. وهذا جزاء تأريثها نيران العداوات في سورية بين المسلمين والنصارى، وبين الفرق الإسلامية بعضها مع بعض، وبين العربي والكردي والجركسي وغيرهم، وإيقاع كلّ دسيسة من شأنها صدع الوحدة السورية وبقاء فرنسا سيِّدة على سورية ولبنان، تتجر ببلاد ليست لها، وتجدح من سويقها في أغراضها الخاصّة.

وهذا أيضًا جزاء جبروتها وجبروت إنكلترة وعظموتها وعظموت إنكلترة. وعرض هيتلر عليهما الصلح مرارًا، آخرها في ٦ أكتوبر ١٩٣٩، ورفضهما أيّ بحث في قضيّة الصلح قبل سحق ألمانيا في ميدان الحرب، وذلك من شدّة بأوهما بنفسهما وظنّهما أنهما ستقضيان القضاء التامّ هذه المرّة على ألمانيا. ورُبَّ حامٍ لأنفه وهو جادعه.

فإن كان الإنكليز والفرنسيس أصيبوا اليوم بما أصيبوا به وسقط في أيديهم، فببغيهم وغيّهم وجبروتهم وعظموتهم. ومن الأمثال العربية: "يداك أوكتا وفوك نفخ". فهم المسؤولون عمّا حلّ بهم، وقد قيل: "لا يحزنك دم هراقه أهله".

ليس مرادنا هنا أن نشمَت بمصائبهم، ولكنَّ قلوب المسلمين ملأى منهم جراحات،

وصدور الشرقيين، ولا سيَّما العرب، مفعمة منهم حزازات. ولا بدَّ للمصدور من أن ينفث، والله القاهر من فوق عباده.

شكيب أرسلان

جنيف، ١٤ حزيران ١٩٤٠

حاشا لجمهرة العرب أن تكون مع الحلفاء

العرب أعلى من هذا

لا يوجد في العرب قاطبة ولا في المسلمين عامّة، مَن يود من صميم قلبه تأييد فرنسا في هذه الحرب: فإن قُدِّر لفرنسا الظفر بألمانيا ـ لا سمح الله ـ في هذه الحرب، ستسلب الثمانية عشر مليون مسلم الساكنين في شمال أفريقيا البقيّة الباقية لهم من أموالهم ومرافقهم، وستتجاوز بعد ذلك على دينهم الإسلامي ولغتهم العربية.

ـ بيان عن المذكّرة الخطيرة التي قدّمها الوفد المصري إلى الحكومة الإنكليزية وجواب هذه عليها

لا يخفى أنَّ الدولتين اللتين تزعمان أنهما عماد الديمقراطية في العالم، وهما في الحقيقة عماد الاستعمار ومصدر استعباد الشعوب، ليس لهما شغل أهمّ من الدعاية الكاذبة وتصوير الحوادث بغير حقيقتها، وتكرار ذلك في العشي والإبكار إلى الحدّ الذي يوهم الجاهل ويقنع الغافل بأنه على شيء من الصحّة. ومن هذه الدعاية أموال دافقة وأُعطيات جزيلة يأخذها هؤلاء المستعمرون من عرق جبين الفقراء والضعفاء، وينفقونها على شراء الضمائر والذمم، وعلى ادّعاء أنَّ الستّمائة مليون نسمة الراسفين في قيود الاستعمار البريطاني والإفرنسي هم سعداء متمتِّعون بالحرّية والمساواة، عائشون في بحابح الديمقراطية! ﴿كَبُرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولوا إلاّ كذبًا﴾.

فلا يوجد في الحقيقة أشقى حالاً من سكّان هذه المستعمرات التي ضربت إنكلترا وفرنسا بجرائهما عليها، فاستأثرت بدماء أولئك المساكين الذين يبلغون ثلث العائلة البشرية وليس لهم إلاّ الدأب الدائم في خدمة أربعين مليون إنكليزي وأربعين مليون

إفرنسي، تتنعّم هذه الثمانون مليونًا بشقائهم وتعتزّ بذلّهم، وتكبر بصغارهم، وتثري بفقرهم، وتصحّ بأمراضهم، وتسمن بجوعهم، وتعلو في الأرض بانحطاطهم، حتّى كأنّه ليس لهم من أنفسهم شيء، بل كأنهم يحيون ويموتون لأجل إنكلترة وفرنسا لا غير.

وكَمْ قائل ما لي رأيتك راجلاً ... فقلتُ له من أجل إنَّك فارس

ولا يظنّ ظانٌّ أنَّ هذه الأمم التي ابتُليت باستعمار الإنكليز والفرنسيس هي أمم ضربت عليها الذلّة والمسكنة من قديم الدهر، وفقدت استقلالها من عهود متوغِّلة في القِدَم! كلاّ، فإنَّ هذه الأمم هي من أعرق بني آدم في الأصالة وأسبقها إلى حياض المدنيّة، وأعزّها نفرًا، وأكثرها عددًا وعددًا، وما على الباحث إلاّ أن يقرأ تاريخ الهند ليعلم ما كان هناك من سلطان وعزٍّ ومجد شامخ وشرف باذخ وثراء كالرمال وجيوش كالبحار، وكلّ هذا ذهب كأمس الدابر ولم يبقَ منه إلاّ التواريخ والسيَر وبعض الآثار الفخمة التي يشاهدها السائح إذا طوّف في تلك القارّة التي يطلق عليها اسم الهند؛ وهي قارّة عظيمة في سنة آفاقها وكثرة نفوسها وتدفّق خيراتها. وذلك السقوط من السماك الأعزل إلى الحضيض الإنزال[1] إنّما كان بفقد الهند لاستقلالها وتحكّم الغريب الأجنبي فيها، ومجيء شركة إنكليزية تجارية دخلت في جسم الهند دخول السمّ الناقع، فاعتلّت الهند من ذلك الوقت وأخذ الإنكليز يثيرون ما بين الأهالي من عوامل الشقاق، وهي كثيرة، فجعلوا بعضهم لبعض عدوًّا، واستغلّوا هاتيك العداوات والأحقاد بما أوتوا من الحِيَل التي اشتهروا بها، وانتهى الأمر بأنهم حكموا في رقاب ٣٧٠ مليون هندي، منهم ثمانون مليونًا من المسلمين.

وكذلك بلاد شمالي أفريقية التي أراد الله تمحيصها بتسليط فرنسا عليها؛ فقد كانت لها دول عظام تجاذب أوروبا الحبل، وكان ملوك فرنسا وإسبانية وإنكلترة يعدّون أنفسهم سعداء إذا نالوا مودّة مولاي اسماعيل، سلطان المغرب. وكان الأسطول الجزائري مدّة مائتين إلى ثلاثمائة سنة هو السيِّد المُطاع في البحر المتوسِّط، وهذا عدا ما كان من

---

(١) الأنزل.

الدول السابقة من الأدارسة والمرابطين والموحِّدين وبني مرين في فارس، وبني عبد الواد في تلمسان، والحفصيين في تونس؛ وكلّها دول كان تُقام وتقعد لها الجيوش الزاخرة، والأساطيل العزيزة، والمآثر العمرانية الباهرة، فتعرّضت فرنسا لها وأخذت تجوس خلالها، ولم تبرح تدوخ منها وتفتن بين أهاليها، وتعمل بجميع أساليب الاستعمار الشيطاني فيها حتّى استولت على أقطارها وجعلت أهلها أشبه بالعبيد منهم بالأحرار، ولم تبقِ لهم أدنى حرّية ولا أقلّ مكانة في دين ولا دنيا. وها هي اليوم تجنِّد منهم مليونًا وثلثمائة ألف مقاتل لأجل أن يسفكوا دماءهم في سبيل فرنسا التي هي في الواقع أعدى أعدائهم. فيا ويل مَن يموت أولاً لأجل أن يموت ثانيًا. فلو أنه مات ليحيا، لكان ذلك سبيل الأعزّة في الحياة الدنيا؛ ولكنّه مات ليموت، وهذا أشقّ وأشقى حالة يمكن أن يهبط إليها الإنسان. وترى المغاربة، في هذا المأزق العظيم الذي لم يسبق مثله في التاريخ، يتساقطون في ساحة الحرب المشتركة في بلجيكا وشمالي فرنسا، تهافت الفَراش على النار بالألوف وعشرات الألوف لأجل قضيّة هم أبرياء منها وأجانب عنها، بل لأجل قضيّةٍ عين مصلحتهم أن تخيب فرنسا فيها. وإذا فازت فيها ـ لا قدّر الله ـ انطوى بساط الإسلام والعروبة من جميع أقطار المغرب؛ إذ ستبطر فرنسا بعد ذلك بطرها المعهود، وتسكر وتفعل فيهم الأفاعيل. ولئن كانت استصفت الثلثين من أملاكهم بنزعها من أيديهم وتسليمها إلى مستعمري الفرنسيس، فإن قُدِّر لها الظفر بألمانيا ـ لا سمح الله ـ ستسلب هؤلاء الثمانية عشر مليون مسلم الساكنين في شمالي أفريقيا البقيّة الباقية لهم من أملاكهم ومرافقهم، وستتجاوز بعد ذلك على دينهم الإسلامي ولغتهم العربية، وستقضي على اللغة البربرية نفسها وهي التي تزعم الآن إحياءها لأجل تمكين الشقاق بين العرب والبربر. وسوف يأتي يوم ـ إن سمح الله بانتصار فرنسا على ألمانيا ـ لا يبقى فيه مَن يقدر أن يتكلّم بالعربية في شمالي أفريقية؛ وليس في هذا مبالغة لمَن عرف حقائق نيّات الإفرنسيين بحقّ هذه البلدان. وكذلك يبقى هناك مَن يُدين بالإسلام إلاّ مَن كان يدين به في قلبه، كما حصل في الأندلس قبل جلاء المسلمين الأخير عن إسبانية؛ وليس في ذلك أيضًا أدنى مبالغة عند مَن اطّلع على ضمائر الإفرنسيين الذين يعتقدون أنهم لا

يأمنون على مراكش والجزائر وتونس إلاّ إذا تحوّل أهلها عن الإسلام بتاتًا. وما قضيّة الظهير البربري وإلغاء المحاكم الشرعية بين عدّة ملايين من البربر، وإقفال الكتاتيب القرآنية في بلادهم، ومنع تعليم العربية فيها سوى مقدِّمة لهذا المشروع الذي تعدّه فرنسا مشروعًا حيويًّا لها؛ إذ عندها أنها، بدون شمالي أفريقيا، تنحطّ إلى درجة دولة من الدول الصغيرة، أو بالأقل، الثانوية، وأنَّ ألمانيا البالغة ثمانين مليونًا من النسم، وإيطاليا البالغة خمسة وأربعين مليونًا، ستتغلّبان على فرنسا وتضربان عليها الذلّة والمسكنة، كلّ واحدة من جهتها. فهي تفكّر أن لا دواء لهذا الداء إلاّ في إدماج الثمانية عشر مليون مسلم، الساكنين في المغربين الأقصى والأوسط وتونس الخضراء، في الأمّة الإفرنسية، شاؤوا أم أبوا. وفرنسا هي التي- لأجل أن تمنع هذه البلدان كلّ حركة استقلال وكلّ حسيس تملّص من ربقة الاستعمار- جعلت دستورها في الشرق الأدنى مقاومة الأمّة العربية بالوسائل الباطنة والظاهرة، وإلقاء الشقاق بين أقسامها، وإرهاف حدّ المنافسات الطائفية والمناظرات الإقليمية فيها حتّى تتمكّن من استعمار سوريا واستلحاقها، ثمَّ إدماجها تدريجًا بما ترجو أن تدمج به مسلمي شمالي أفريقية، وما كان عدولها عن تنفيذ المعاهدة السورية ـ الإفرنسية إلاّ لأجل هذا الغرض الخبيث التي تأمل فرنسا مع تمادي الزمن أن تصل إليه.

وبالاختصار، فمهما ادَّعت هذه الدولة كذبًا وبهتانًا أنها دولة ذات صبغة مدنيّة، وأنها لا تفرِّق بين الأديان والمذاهب، فإنَّ دعواها هذه أرقّ من خيط باطل، وجميع الأدلّة المحسوسة قائمة على بطلان هذه الدعوى؛ فقضيّة تنصير البربر هي من أنصع هذه الأدلّة، وقضيّة السعي في سورية بتنفير العلويين والتضريب بين هذه الطائفة بعضها مع بعض حتّى تنفصل عن الكتلة العربية، هما من الشواهد على ما تضمره فرنسا، بل على ما تظهره أحيانًا من نشر دعاياتها الدينية المسيحية. ونحن لا نعترض على فرنسا في أن تكون دولة مسيحية، وفي أن تعلن اليوم بلسان رئيس وزرائها الحالي المسيو رينو بأنها إنّما تحارب ألمانيا لأجل تأييد اللاّتينية والمسيحية. ولا نعجب للاحتفال الديني الذي حضره رئيس جمهورية فرنسا وجميع وزرائها وقوّادها ـ وذلك في كنيسة نوتردام في باريس،

من يومين، لأجل الدعاء بانتصار العساكر الإفرنسية؛ بل نعدّ هذا من قِبَل فرنسا عملاً شريفًا لها الحقّ في أن تتباهى به وتجعله أمثولة للمسلمين الذين نجمّ منهم في أخريات هذه الأيام طبقة تزعم أنَّ الدول الأوروبية الراقية لا تحفل بالدين ولا تقيم له وزنًا؛ ولذلك يجب على المسلمين إذا أرادوا الرقّي أن ينسلخوا من مباديهم الإسلامية. فأمثولة فرنسا هذه البارزة للعيان هي حجّة من حجج لا تُحصى تثبت عماية هذه الفئة المعتوهة القائلة بهذا القول من المسلمين: «وما أنتَ بهادي العمي عن ضلالتهم». ونؤكّد أنَّ احترامنا لفرنسا في اعتصامها بنصرانيّتها وإقامتها شعائر دينها هو احترام حقيقي لا نذهب فيه مذهب الأسلوب الخطابي لإقامة الجدل، ولكنّنا ننكر على فرنسا حقّ استعمال نفوذها السياسي في تحويل مَن استعبدتهم من المسلمين عن عقيدتهم الإسلامية وعن لغتهم العربية، بينما هي تتمتّع منهم بملايين وملايين من الأيدي العاملة ومئات ألوف من مئات ألوف من الجنود التي جعلتهم وقود حروبها مع ألمانيا.

وعلى كلّ حال، لا يوجد في العرب قاطبة، ولا في المسلمين عامّة مَن يود من صميم قلبه تأييد فرنسا في هذه الحرب، إلاّ أن يكون عدوًّا لقومه، مارقًا من ملّته أو ضالاًّ ختم الله على بصيرته. وقد يوجد من المسلمين فئة قليلة تُحسن الظنّ بإنكلترة على علاّتها، وتزعم أنَّ ظروف الأحوال تضطرّ الإسلام إلى الاستعانة بها؛ وفي هذا القول مجال أوسع للأخذ والردّ. ولكن مهما يكن من الأمر، فهذه الفئة موجودة لا نزاع في وجودها، ولكن ليست الحال كذلك بالنسبة إلى فرنسا التي يمكنها أن تغيّر طبيعتها المبنيّة على الإفراط في كلّ شيء. ولقد ظهرت دلائل الحرب الحاضرة وبهرت وأيقنت فرنسا بأنها ستصلها قريبًا لا محالة، وأبَتْ مع ذلك أن تمنح مسلمي المغارب شيئًا من الحرّية والمساواة اللتين طالما تقاضوها إيّاهما وسفكوا الدماء الزكية من أجلهما. وبلغني عن ثقة أنه قبيل الحرب، جاء نفر من الإنكليز إلى باريز ليقنعوا حكومة فرنسا بإلغاء النظام المعمول به في الجزائر الذي يجعل الأوروبيين طبقة عالية والمسلمين طبقة سافلة، ويميّز بينهما في الحقوق. فلمّا كلّموها في هذا الأمر أجابت بأنَّ الحاجة غير ماسّة إلى تغيير هذا القانون، إذ المسلمون

راضون بذلك، مغتبطون وخاضعون طائعون، لا يجب علينا أن نمتّعهم بمساواة ليسوا لها أهلاً، وما أشبه ذلك من الأباطيل. فرجع الإنكليز أدراجهم وعرفوا أنّ الطبع غلاّب، وأنّ بين هؤلاء وبين الاعتدال ما بين المشرق والمغرب.

أفبعد هذا كلّه تقوم فئة ضالّة مارقة مجرّدة من الشعور الإنساني ومن الشمم القومي ومن العزّة الإسلامية ومن النخوة العربية، فتزعم بلا حياء أنّ المسلمين هم حلفاء للحلفاء بناءً على أنّ هؤلاء ديمقراطيّون؟! كلمة يلوكونها بألسنتهم ولا يُفهم أكثرهم معناها. وليس أولاً بصحيح أنّ الحلفاء ديمقراطيّون فعلاً، وإنّما هم ديمقراطيّون اسمًا فقط. وكلّ يوم لهم أعمال تدلّ على كذبهم في الديمقراطية التي ينتحلونها، وذلك في نفس بلادهم، كما حصل هذه المرّة في فرنسا بإسقاطهم ٧٢ نائبًا شيوعيًّا انتخبتهم الأمّة انتخابًا قانونيًّا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فنقضوا القوانين استبدادًا، وأسقطوا هؤلاء النوّاب اعتداءً، وضربوا بالديمقراطية عرض الحائط. نقول هذا نُصرةً للحقّ ذاته وإن كنّا أضدادًا للشيوعية على خطٍّ مستقيم.

ولنفرض أنّ الإنكليز والإفرنسيين عندهم شيء من الديمقراطية في بلادهم، فأية ديمقراطية، وأيّ جزء من ألف من الديمقراطية عاملوا به المسلمين الذين في مستعمراتهم، حتّى يقوم المسلمون وينتصروا لهم في هذه الحرب من تلقاء أنفسهم؟ وعلامَ يحزن عليهم المسلمون؟ وماذا يتذكّرون من أعمالهم بهم؟ أيتذكّرون تلك الأعمال الوحشية التي قام بها الإنكليز في فتوحهم للهند وإسقاطهم سلطنة الهند الكبرى التي كانت في أيدي المسلمين، أم يتذكّرون الوقائع الوحشية البالغة أقصى درجات القسوة التي لا يمكن أن تخطر على بال بشر ممّا فعله الإفرنسيون عند فتح الجزائر، ممّا سننقل منه نبذًا من كتابات القوّاد الإفرنسيين الذين فعلوا تلك الأفعال هم أنفسهم بنصّ كتاباتهم وتواريخها، وإنّما أخذناها عن مصادر إفرنسية موثوقة لا شائبة فيها، وكتب مطبوعة في نفس باريس؟ فهَلْ هذا الذي يتذكّره المغاربة ويستوحشون لفقده إذا غادرت فرنسا بلادهم؟ وماذا يتذكّر أهل سوريا من أعمال هؤلاء في هذه الإحدى والعشرين سنة التي أقاموها في بلادنا؟ أيتذكّرون قمعهم لكلّ حركة وطنية قامت في البلاد في أثناء هذه المدّة، وتدميرهم بقنابر

مدافعهم وطيّاراتهم مئات من قرى سوريّة، وتدميرهم دمشق-عاصمة البلاد - ضاربين أجمل منازلها بالقنابر مدّة ٥٤ ساعة، وسفكهم دماء نحو عشرين ألفًا من عرب سوريا في هذه المدّة لأجل كونهم تجاسروا على المطالبة باستقلال بلادهم؟ أم تحزن سوريا على الإفرنسيين لأجل إمعانهم في التفريق بين الطوائف والأديان، وإيقادهم نيران البغضاء بين المسلم والمسيحي، ثمَّ محاولتهم إلقاء الشقاق بين المسلمين السنِّيين وبين الدروز والعلويين، واعتمادهم على سياسة التفريق علنًا بلا مواربة، ومناصبتهم العرب على الإطلاق عداوة لم تظهر إلى هذا الحدّ وبهذه الحدّة، لا من الترك، ولا من الإنكليز، ولا من أمّة أخرى. ولا شكّ أنَّ الإنكليز قد أجرموا في معاملة العرب إجرامًا ملأ صدور العرب منهم وغرًا وألهبها حسيكة، ولا سيَّما في فلسطين التي قتلوا من أهلها سبعة آلاف نسمة برئية في ثلاث سنوات ودمّروا منها عشرين ألف دار، وذلك لأنَّ عرب فلسطين أبوا تحويل بلادهم إلى مملكة يهودية. ولكنَّ الإنكليز، تحت ضغط الحوادث، وخوفًا من طوارق الدهر، رجعوا عن ثلثي المشروع ورضوا من الاعتداء المحض بثلثه. ولو لا نفاذ اليهود العظيم على إنكلترة، وفي نفس أميركا، لكانوا قد رجعوا عن الاعتداء كلّه.

فأمّا الإفرنسيون، فقد نكلوا عن المعاهدة الإفرنسية - السورية، وكشفوا البرقع الذي كانوا يسترون به مطامعهم من جهة بلادنا، وأعلنوا عدولهم عن الاعتراف لسورية بالاستقلال الحقيقي، وذلك على عتبة الحرب الحاضرة التي كانوا لا يرتابون في قدومها عليهم، فكأنهم لا يجدون في أنفسهم قبولاً للعدل والاعتدال ولو كانوا في أشدّ الأخطار أو صاروا على شفا جرفٍ هارّ.

فالذين تظاهروا من متزعّمي سورية بمناصرة الحلفاء لا يمثِّلون من عرب سورية ولا اثنين في المائة. ولو سُئل السوريّون في موقع رسمي وكانت لهم فيه حرّية القول، لأجابوا بما أجابوا به اللجنة الأمريكية سنة ١٩١٩، وهي أننا لا نرضى إلاّ بالاستقلال التامّ الناجز، وأقصى أمانينا هو أن تخرج فرنسا من بلادنا. إنَّ هذا النفر التاعس، بل أقدر أن أقول ولا حرج، هذا النفر السافل الذي أعلن موالاته لمَن أرادوا استعباد أمّتهم ووطنهم، ونكثوا مرّتين بالمعاهدة السورية - الإفرنسية، قد اعتقدوا اعتقاد الإنسان بقدرة

الباري تعالى أنَّ الغلبة في هذه الحرب ستكون للحلفاء حقيقية رياضية، كما الاثنان والاثنان هم أربعة، فقالوا في أنفسهم: « نحن في مظاهراتنا هذه نكون قد أرضينا الغالب وبيّضنا وجوهنا لدى الظافر حتّى نأمن شرّه وننال برِّه، ويكافينا على موالاتنا له بعد أن يستَتِبَّ له النصر، فنحصل على المناصب في ظلّه ونرتع في نعمائه». هذه هي وجهة نظرهم القبيحة وعلّة نِفاقهم المرجوحة، وقد فاتهم أنه ينبغي لنا إن كنّا رجالاً زاعمين أنَّ لنا وطنية وأوطانًا وحقوقًا كسائر البشر، أن نطالب بحقوقنا بإزاء الغالب كما بإزاء المغلوب، لأنَّ الحقّ لا يتعلّق بالغلبة ولا يصير باطلاً إذا كان خصمنا قويًّا، بل الحقّ هو أعلى من الغالب والمغلوب والقويّ والمضعوف. وعزيز النفس يجب أن يطالب به خصمه في كلّ موقف وفي كلّ حين، لا سيَّما إذا كان هذا الخصم في موقف من أحرج المواقف، هو نِعْمَ الفرصة لنيل الحقوق وتقاضي العهود.

فالأمّة العربية لن تنسى خيانة هؤلاء الذين يزعمون ـ ويا للعار ـ أنهم من زعمائها في اتخاذهم فرصة هذه الحرب الطحون لأجل التبصبص كالأذناب أمام الحلفاء، وإعلانهم أنهم معهم في السرّاء والضرّاء، وادِّعائهم تمثيل الأمّة العربية؛ وما أكذب وأسفل هذا الادّعاء! وهذه هي الأمّة العربية لها ملكان عظيمان مستقلاّن تمام الاستقلال ـ هما الملك عبد العزيز بن سعود والإمام يحيى بن محمَّد بن حميد الدين ـ قد أعلنَا من أول هذه الحرب حيادهما التامّ فيها ولم يباليا بثرثرة الحلفاء وأنصارهم وأذنابهم في الشرق والغرب، بل غمزت جريدة « الإيمان » اليمانية بتلك الصحف العربية التي طالما ادَّعت الوطنية وتظاهرت بالنزعة الاستقلالية، وأوسعت دول الحلفاء عتابًا، بل سبابًا لأجل غدرها بالعرب واعتدائها على بلادهم. كيف عادت بين عشيّة وضحاها تسبِّح بحمد الحلفاء وتقدِّس لهم، وتؤكِّد ولاء العرب لجلاّديهم.

تريد جريدة «الإيمان»، لسان حال الإمام يحيى، أن تُظهر أسف الشعب اليماني ممّا تراه من تلوّن هؤلاء الصحافيين وبُطلان دعواهم في الوطنية التي باعوها بثمن بخس، دراهم معدودة، ولا يمكن أن يكون انقلابهم الفاضح هذا بغير هذا السبب.

وأمّا العراق، فقد أثبت بصورة لا تقبل المكابرة شيمته العربية، وفقاً الحصرم في أعين من قال إنَّ العرب هم أنصار الحلفاء. فالقيامة التي قامت أخيرًا في مجلس النوَّاب العراقي على أعمال إنكلترة في فلسطين، وأعمال فرنسا في سورية، وسقوط وزارة نوري السعيد مرّتين من أجل هاتين المسألتين، حقيقة ساطعة كالشمس. رأد الضحى بأنَّ العراقيين يمقتون الحلفاء من جرّاء ظلمهم للعرب واعتداءاتهم على بلدانهم، وأنهم لا يعفون عن هذه الأعمال الجائرة مهما تكن دواعي السياسة التي يزيّنها لهم نوري السعيد خدمة للإنكليز.

ولقد ظهرت هذه الشهامة كلّها من العراقيين بالرغم من تهديد الإنكليز إيّاهم وتلويحهم لهم بأنهم قد يمالئون تركيا عليهم وينصرون إيران إذا أرادت أن تزحف صوبهم. فالعراقيّون الذين عرفوا أنَّ الاستقلال يؤخذ ولا يُعطى، وأنَّ الذمار لا يُصان إلاّ بالسيف، لم يعيروا تلك التهديدات أُذنًا واعية، ووطّنوا أنفسهم على الدفاع، لا عن حوزتهم فحسب، بل عن حوزة إخوانهم السوريين والفلسطينيين. وقالوا: "حسبنا الله ونِعْم الوكيل".

وكذلك مصر، جرت في مجلس نوَّابها في المدّة الأخيرة مذاكرات ذات بال تتعلّق بالأمّة العربية وارتباطها بمصر وارتباط مصر بها، وكون الفريقين أمّة واحدة من جميع الوجوه والجهات. واقترح عدد من النواب المصريين تدخّل الحكومة المصرية في قضيّتي سوريا وفلسطين اللتين لا يمكن أن يصفِّق أهل مصر للحلفاء ما دامت إنكلترة وفرنسا مستمرّتين على العبث بحقوق العرب فيهما. وقد أجاب علي ماهر باشا رئيس الحكومة المصرية، بالصراحة، جوابًا يؤيّد فيه اقتراحات هؤلاء النوَّاب الكرام قائلاً إنَّ الحكومة المصرية لن تألو جهدًا في بذل جميع الوسائل لأجل إنصاف العرب الذين بينهم وبين الحلفاء قضايا معلَّقة، وإنَّ هذا صادر من الحكومة المصرية عن الروح التي تملأ الأمّة المصرية. وقد أيّد علي باشا ماهر أقواله بالأفعال، كما أنَّ الوفد المصري - برئاسة مصطفى باشا النحّاس - قدَّم إلى الحكومة الإنكليزية مذكّرة يطالب فيها بحقوق مهضومة لمصر في مصر وفي السودان، ويتقاضى إنكلترة تأدية هذه الحقوق منذ الآن. ولئن كان قد حصل

خطأ في تقديم هذه المذكّرة من الوفد إلى الحكومة البريطانية رأسًا ولم يقدّمها بواسطة الحكومة المصرية، فلم يحصل خطأ في مطالبة الوفد المصري من اليوم لإنكلترة بتوفير الحقوق التي لا تزال غير موفورة للمصريّين. وسنبعث إليكم بمذكّرة الوفد وجواب إنكلترة عليها وجواب النحّاس على إنكلترة. ومن كلّ هذا يُعلم أنّ دعوى الحلفاء ارتباط العرب والمسلمين عمومًا بهم هي دعوى داحضة وحجّة زائلة غير ناهضة، ولتعلمنّ نبأه بعد حين، لا سيّما وقد ظهر الحقّ وانفلق الصبح، واضمحلّت دعاية الحلفاء وأذنابهم في ما ملأوا به الدنيا من أنهم القادرون على كلّ شيء، وأنهم سيجعلون ألمانيا أثرًا بعد عين ويضربونها ضربة قاصمة يشتدّ رنينها في الخافقين وتكون هي القاضية على الأمّة الجرمانية. واقتنع أكثر الناس بهذه الثرثرة وانقادوا لهذه اللقلقة، فما راعهم إلاّ ألمانيا تُنزِل بالحلفاء الهوان في نرفيج[1] ويضطرّون أن يفرّوا من وجه عساكرها حاسبين السلامة غنيمة. وقد نسوا أنّ الدولة التي تقضي على بولونيا، وهي ٣٥ مليونًا، في ثمانية عشر يومًا يمكنها أن تقضي على النرفيج في أسبوعين. وبينما هم في هيعة انكسارهم النرفيجي، إذ جاءهم الألمان بجنود لا قبل لهم بها وتخطّى إليهم من طريق هولاندا وبلجيكا، فقضى الجيش الألماني على هولاندة ـ وهي مملكة سكّانها ثمانية ملايين ومستعمراتها ٦٦ مليونًا ـ وذلك في ثلاثة أيام لا غير. وغلب على ثلثي بلجيكا، وهي مع مستعمراتها عشرون مليونًا. وافتتح العصم من صياصيها ودكّ أعظم حصونها منعة وأكثرها أجهزة دفاعية عصرية، وذلك في ١٥ يومًا. ثمّ نهج صوب فرنسا، فخرق سياجها ومزّق ممترها[2]، واخترق خطّ ماجينو الشهير على مسافة مائة ميل، وتقدّم في أرض فرنسا حتّى وصل إلى سان كنتان على مائة كيلومتر من باريس، وناجز الحلفاء بأجمعهم في أكبر معركة سجّلها التاريخ، وهي دائرة الرحى إلى الآن، نسأل الله تعالى أن يجعل عاقبتها خيرًا كثيرًا على الأمّة العربية وأن يفرج بسببها عن المائة والخمسين مليون مسلم الراسفين[3] في قيود عبودية الحلفاء. فإن كان هيتلر اعتدى موقّتًا على استقلال نورفيج وبلجيكا وهولاندة،

---

(١) النروج.

(٢) امتدادها.

(٣) الراضخين.

فالخلفاء قد محوا استقلال مئات ملايين من البشر وأصاروهم لهم عبيدًا؛ ومن هؤلاء ١٥٠ مليون مسلم؛ لا ينكر هذه الحقيقة إلاّ الخونة المارقون. فالله تعالى جعل عقاب الظالمين لهم على يد أناس ليس بينهم وبين المسلمين ميثاق، ولكنّها سنَّة الله في خَلقه يؤدِّب المجرمين الذين يسكرون بخمرة العزّ بإذاقتهم بأس جبّارين آخرين منهم. والله تعالى يتمِّم بالخير ويجعل بيوت الظالمين خاوية بما ظلموا ﴿وهو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم ومن تحت أرجُلكم ويلبسكم شِيَعًا ويذيق بعضكم بأس بعض. انظر كيف نصرف الآيات لقوم يفقهون﴾.

جنيف

شكيب أرسلان

۞ ۞ ۞

إلى صاحب جريدة منبر الشرق*

أرسل إلينا عطوفة أمير البيان المقالة التالية، شاكرين فضله وتطوّعه وجهاده:

جنيف، في ١٥ دسمبر ١٩٣٩

حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ علي الغاياتي صاحب «منبر الشرق» المحترم؛ إنّي أشكر لكم متتابع أياديكم البيض في الدفاع عنّي وإظهار حقيقة أسباب سفري إلى برلين في أواخر سبتمبر الماضي، وكوني لم أذهب إلى تلك العاصمة إلاّ من أجل قضيّة تتعلّق بالعقار الذي لي هناك. نعَم، لم أقم ببرلين مدّة ثلاثة أيام كما اتّصل بكم الخبر، بل ثلاثة أسابيع. ولمّا رأيت القضيّة تستغرق وقتًا أطول، رجعتُ أدراجي إلى جنيف مارًّا بزوريخ، كما قلتم، وكما أكّدت لكم روايتكم في رسالة سابقة منّي إلى منبركم الأغَر، عسى أن تكون ظهرت فيه بفضلكم وكرَم أخلاقكم.

ولقد قرأتُ في المنبر الواصل اليوم، المؤرَّخ في ٥ الجاري، رسالة بإمضاء «عربي» تحت عنوان «راديو برلين وإذاعته السخيفة» يحمل فيها الكاتب الكريم على الذين أشاعوا دخولي في إذاعات راديو برلين واحتفال بلديّة برلين بي، وإعطاءها إيّايَ لقب «مُواطن شرف» إلى غير ذلك من الأقوال التي اختلقها أعدائي. وإنّي لشاكر أيضًا فضل هذا العربي المبيّن كثيرًا و«هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان؟!».

ولكنّي وصلت من ثناء «العربي» الذي تلطف به عليَّ إلى قوله:

«إنَّ الأمير شكيب أسمى إدراكًا وأعلى وطنيّة وأعظم تقديرًا لمصلحة الشرق العربي من أن ينخرط في سلك المستبدّين والطغاة الذين لا يعرفون دينًا غير دين القوّة، ولا شريعة غير شريعة التحكّم والاستعباد؛ والأمير من أكبر دُعاة الحرّية والديمقراطية».

---

* رسالة من الأمير شكيب أرسلان إلى صاحب جريدة «منبر الشرق».

إنّي أجيب على هذا الثناء الجميل بأنه محض كرم خُلق من الكاتب، والإناء ينضح بما فيه وإنّما أنا لا أفرّق بين المستبدّين والطغاة، فلا أجعل منهم هذا ابن الست وهذا ابن الجارية؛ وإن كنتُ أغضب للشعوب البعيدة عنّي عند وقوع الاستبداد بها، وذلك مثل التشيك والبولونيين، فأنا، من دون مريّة، أَوْلى بأن أغضب لوطني وقومي وأمّتي الذين وقع الاستبداد بهم مثل سورية التي انعقدت معها معاهدة اعتُرِف فيها باستقلالها ثمَّ جرى النكث بتلك المعاهدة، وعادت سورية إلى ما كانت عليه تحت حكم الأجنبي القاهر؛ ومثل فلسطين التي قاسى العرب فيها من الأهوال والشدائد ما لم يحدِّث عن مثله التاريخ، ومسألتها لا تزال على ما كانت عليه كما صرّح بذلك المفتي صاحب السماحة الحاج أمين الحسيني في كتاب إلى الصحف نُشر في نفس منبركم. فهل هذا الذي جرى بأهل فلسطين وأهل سوريا ـ لنؤجِّل الآن الكلام على سائر البلاد العربية المقهورة، المغصوب استقلالها، ولنجتزئ بهاتين المسألتين ـ هو الحرّية والديمقراطية اللتان نحن أنصارهما؟! ثمَّ يقول الكاتب المثني علينا بمزيد فضله: «ثمَّ إنَّ الخلافات التي قامت بينه وبين بعض الدول إنّما كانت لمصلحة الحرّية العربية فقط. وها هم الحلفاء اليوم يناصرون قضيّة العرب وحرّيات الشعوب الإسلامية، فلم يعد هناك ما يدعو لأدنى خلاف خصوصًا وأنَّ العالم العربي قد انضمَّ بطبيعته إلى جانب الحلفاء. وقد ينجم عن هذه الحرب أن تُقبِل إنكلترة وفرنسا إقبالاً تامًّا على تأييد مصالح العروبة والإسلام» ...إلخ.

نعَم، هذا العاجز الضعيف ما برز لمخاصمة هذه الدول القوّية إلاّ لأجل مصلحة الحرّية العربية. ولكنّي لا أرى شيئًا من مناصرة الدول المُشار إليها لقضيّة العرب ولحرّيات الشعوب الإسلامية. أين جرى هذا؟ أم لأني أنا هنا بعيد غير مطَّلع على الحرّيات الجديدة التي منَّ بها الحلفاء على الشعوب الإسلامية في أثناء غيابي! فأودّ لو اطَّلعت لأجعل من أصابعي عشر شموع تضيء للحلفاء. وأمّا أنه لم يبقَ بيننا وبين هذه الدول ما يدعو لأدنى خلاف، فإنّي أعترض على هذه الجملة اعتراضًا شديدًا لا يخفِّفه ما تلطَّف به الكاتب من الثناء عليَّ، إذ المسائل التي نحن معهم في خلاف من أجلها باقية كلّها كما كانت، سواء في الشرق أم في الغرب، لم تنحلّ منها ولا عقدة. ولقد ورد في «منبر الشرق» نفسه في

أحد أعداده القريبة العهد أنّ إنكلترة لم تأتِ بشيء جديد في قضيّة فلسطين، ويؤيِّد هذا الخبر بإعلان المفتي في الصحف، فقد انجلى كلّ شك. كذلك عندما نشر المنبر خبر الأحكام على الوطنيين السوريين الذين منهم مَن حُكِم عليه بالحبس ثلاثين سنة، ومنهم بالحبس عشرين سنة، ومنهم مَن عُذِّب في سجنه عذابًا شديدًا، مثل نبيه بك العظمة ورفاقه الذين هم من خيرة رجالات العرب، احتجّ الأستاذ في المنبر شديدًا وعاتب فرنسا كثيرًا، وقد نقل فصولاً عن جريدة «الاستقلال» العراقية التي لا تزال تطالب الحلفاء بحقوق العرب المغصوبة، والتي لا تثق بالمواعيد دون الأعمال. ومع ذلك، فالحلفاء ما وعدوا بشيء.

وأمّا أنه «قد ينجم» عن هذه الحرب أن تُقْبِل إنكلترة وفرنسا إقبالاً تامًّا على «تأييد مصالح العروبة والإسلام»، فليسمح لي الكاتب الفاضل بأنّ «تأييد مصالح العروبة والإسلام» عبارة مبهمة وأن أبَيِّنَ، كون الحلفاء وُعِدوا مواعيد كثيرة قبل الحرب العامّة، وفي أثنائها، وبعدها؛ وقد رأينا ماذا كان من نتيجة هذه المواعيد. وإنّي كتبت إلى المنبر في ٤ الجاري أقول فيها: «إن لم يفعلوا الآن لم يفعلوا فيما بعد، فإن كان الحلفاء يريدون أن نصالحهم فعلاً، فلا مناص لهم مذ الآن من تصديق المعاهدة السورية-الإفرنسية المنعقدة في سنة ١٩٣٦، ومن إجابة مطالب عرب فلسطين التي يطالب بها المفتي واللجنة العربية العليا، الممثلون الحقيقيون لفلسطين. أمّا أنه «قد ينجم»، فليس بمثل هذا يقنع العرب.

وأمّا أنّ العالم العربي انضمّ إلى الحلفاء، فالجواب عنه أنّ مصر والعراق مقيّدتان بعهود يجب عليهما مراعاتها؛ وأمّا الدولتان السعودية واليمانية، فباقيتان على الحياد. وعلى كلّ حال، فالعالم العربي لا ينضمّ مجّانًا إلى أحدٍ، ولا يميل إلاّ إلى مَن يعطيه حقوقه التامّة من نفسه. وأختم كتابي بشكر مراسلكم كما بدأته به، والسلام عليكم والرحمة والبركة.

جنيف

شكيب أرسلان

جوابنا للمسيو بيو عن بلاغه

يظهر أنَّ تقدُّم الألمان في أرض فرنسا، وانتقال الحرب كلّها تقريبًا إلى فرنسا ـ برغم كلّ الحصون والمعاقل والأنهار والجداول، وبالرغم من خطّ ماجينو الشهير الذي أنسى سدّ الإسكندر، ومع مقاومة أربعة ملايين جندي إفرنسي ـ لم يقع أدنى جدال في بسالتهم وحسن تنظيمهم وتدريبهم. هذا كلّه عمل معموله الآتمّ وأثَّر تأثيره الأعمّ في سوريا ولبنان وسائر الشرق، وتباشر الناس بسقوط الباغي وبقرب الفرج والخلاص من حكم فرنسا. ووصلت إلى المندوب السامي أنباء هذه الأفراح التي ملأت صدور العرب الموتورين في كلّ ناحية، وذلك بواسطة جواسيسه وروّاده ـ وما أكثر هذه الفئة في الشرق وأكثر اعتماد الحلفاء عليها! ـ فعرف أنَّ كلّ ما كان يتظاهر له به أولئك المتزعِّمون المتزلِّفون من الأمّة السورية إلى فرنسا لم يكن منهم إلاّ خنوعًا وخضوعًا أو طمعًا في منافع خسيسة، أو اعتقادًا أنَّ الحلفاء هم على أيّ الأحوال غالبون؛ فالفائز كان الذي يحرك ذنب تبصبصه قبل غيره، ولو كان في ذلك ذهاب حقوق وطنه وانحطاط شأن أمّته. فلمّا نقل الراديو الفاضح كلّ ما أصاب فرنسا في الأيام الأخيرة من النوازل والأهوال التي تدكّ الجبال، وكيف صارت ساحة الحرب في عقر دارها وأصبح الألمان على سبعين كليومترًا من باريز، ظهرت مكنونات ضمائر السوريين، ولم يقدروا أن يخفوا سرورهم الذي، مهما كتموه، نمَّت عليه وجوههم. ولم يمكن إلاّ أن يتباث بعضهم إلى بعض بشماتتهم بمَن غصبوا بلادهم، ثمَّ عاهدوهم، ثمَّ نكثوا بعهدهم إليهم. وعلِم حضرة المندوب السامي أنَّ سوريا لا تنسى ثاراتها، وأنَّ العرب لا يتركون ذحولهم.

وقد ينبت المرعى على دمن البلى   وتبقى حزازات النفوس كما هيا

فخشي إذا ازدادت تفاصيل هذا النبأ العظيم الذي هم فيه يختلفون، أو ازداد تقدُّم الألمان الذين أخذوا على بولونيا في ١٨ يومًا، وعلى نورفيج، وراء البحر في أسبوعين، وعلى

هولاندة، خفيفة الدم، في ثلاثة أيام، وعلى بلجيكا في ١٥ يومًا، وأخذ المذياع ينقل إلى الشرقيين كلّ يوم نبأ معركة تدور بها الدائرة على الحلفاء، أو واقعة تُساء بها وجوههم، أن تزداد شماتات العرب الموتورين الذين لا ينسون ما حلّ ببلادهم من طغيان فرنسا وإنكلترة، ونزل بساحاتهم من مصائبهما، وتجاوز الأمر القول إلى العمل. فأراد أن يطمئنّ من جانب تفاؤلهم بالمستقبل، ويقصِّر من آمالهم من قرب الفَرج، ويبيّن لهم أنَّ فرنسا لا يُفَتُّ في عضدها ولا ينبغي أن يشمت بها شامت، فأذاع البيان التالي، ننقله عن جريدة "الأهرام":

بيروت في ٢٢ لمراسل الأهرام الخاصّ: ألقى المسيو بيو، المندوب السامي الفرنسي في سورية ولبنان، خطبة وجّهها إلى الشعبين اللبناني والسوري وأذاعتها محطّة الإذاعة السلكية، وقال فيها: "تخوض فرنسا وحلفاؤها معركة عظيمة، وإذا تخلّى جنودنا فيها عن بعض الأراضي، فهم يردّون ضربة العدو ضربات".

فليسمح لنا حضرة المندوب السامي الإفرنسي أن نلاحظ كون الناس -مع إجماعهم على الاعتراف ببسالة الجيش الإفرنسي ومزيد استعداده- لا يرون أنَّ البلدان التي احتلّها الألمان من فرنسا ممّا يقال له: "بعض الأراضي"، بل هي جانب عظيم من فرنسا وهي أعمرها، وفيها أعظم حصونها وخطوطها الدفاعية. وكذلك لا يقال إنَّ الإفرنسيين قد تخلّوا عنها من أنفسهم لأجل خدعة حربية، وإنّما أخرجهم منها الألمان بالسيف في معارك لم يسبق لها نظير في التاريخ. فأمّا أنَّ الجيش الإفرنسي يردّ ضربة العدو ضربات، فهو إلى الآن يردّ ضربات العدو بقدر استطاعته، ويُبدي الخوارق من آيات الدفاع. ولكنَّه، حتّى الآن، كان الفوز للألمان لا للحلفاء، وهذا باعتراف الحلفاء أنفسهم. فأمّا المستقبل فهو لله، ﴿ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كلّه﴾.

ثمَّ يقول:

"وتعرفون الرجل الذي تسلَّم مقدرات جيشنا وموارد فكره وإرادته، فانتظروا جوابه الجريء، ...إلخ".

الجواب: نعَم، نحن نعرف مزايا الجنرال فيغان الذي أجمع الناس على تقدير خبرته

ومهارته ومتانته وأهليّته للقيادة العليا التي تقلّدها. ولكنَّ النصر والكسر ليسا بحسب مهارة الأشخاص وعدمها، بل هما رهن القضاء والقدر لمَن تأمّل مجرى الحوادث. فالله تعالى يخلق مجموعة ظروف وأسباب تؤدّي إلى النصر، ولو كان القائد الذي تمّ الانتصار على يده أقلّ كفاية من القائد المنهزم. ولقد استعجلتَ أيها المندوب السامي في حكمك للجنرال فيغان بما يفيد بلوغ الأرب على يده، فالألمان أيضًا يقدرون أن يجاوبوك بقول الشاعر العربي:

جاء شقيقٌ عارضًا رمحه إنَّ بني عمّك فيهم رماح

ثمَّ إنَّ الاعتبار بخواتم الأمور.

ثمَّ يقول:

«لمّا بدأ النزاع، هبَّ السوريون واللبنانيون والمسيحيون والمسلمون يؤكِّدون إيمانهم بفرنسا الحرّة. وتدفّقت شعائر الولاء نحوها، واليوم تتّجه جميع الأنظار إلى فرنسا».

هنا الخلاف بيننا وبينك شاهد يا حضرة المندوب الفرنساوي لا في نقطة واحدة، بل في عدّة نقاط:

أولاًـ ليس بصحيح أنَّ السوريين واللبنانيين هبّوا من أوّل النزاع يؤكِّدون إيمانهم بفرنسا. فتأكيد الإيمان تحت حراب بنادق خمسمائة ألف عسكري إفرنسي مخيّمة في سورية ولبنان، هذا مثل يمين المُكْرَه ليس له أدنى قيمة. فإن كنت تكابر في هذه الحقيقة وتزعم أنَّ مظاهرات الولاء تحت حراب البنادق هي أدلّة لها قيمة حقيقية أجبناك حينئذٍ: إذن السوريون واللبنانيون الذين أظهروا بأجمعهم مزيد تعلُّقهم بالدولة العثمانية في أثناء الحرب العامّة كانوا صادقين مخلصين! وهم لم يقتصروا يومئذٍ على مدح الدولة العثمانية والتنويه بمكارمها ومراحمها وتأكيد ارتباطهم الأبدي بها، بل تجاوزوا ذلك إلى الطعن بنفس فرنسا. وعندنا على ذلك من الوثائق ما لا يحصى، وأهمّها أربعة مكاتيب من البطاركة الأربعة إلى حضرة البابوية. فإذا كان هذا شأن البطاركة، فما ظنّك بالمطارِين؟

وإذا كان هذا إخلاص النصارى لتركيا، فما قولك بالمسلمين؟ ولعلّك تقول: كان ذلك وقتئذٍ خوفًا من تركيا ومن بطش جمال باشا ولم تكن تلك المظاهرات مترجِمة عن شعور الأمّة. فنجيبك على الفور: وهذه المظاهرات الحاضرة لفرنسا هي أيضًا من نفس الجنس بلا أدنى فرق، يمليها الخوف، ويوحيها الضعف، ويقضي بها فَقْد حرّية القول والكتابة والاجتماع، ووجود الرقابة على الصحف وعلى جميع المطبوعات، وكون البلاد هي تحت الأحكام العرفية. فهَلْ بعد هذا يُعتقد بمظاهرات ولاء، ويقال إنَّ السوريين واللبنانيين مرتبطون بفرنسا؟ لا إنكار أنَّ جانبًا من المسيحيين يريدون فرنسا لأسباب قديمة لا نحبّ الخوض فيها الآن، وذلك تحت شروط، لا كما تفعل فرنسا اليوم. وهذا الجانب من المسيحيين لا يبلغ العِشر من مجموع السوريين واللبنانيين الذين تسعة أعشارهم يريدون أن تكون البلاد لأهلها، وأن لا تكون عليها سيطرة لا لفرنسا ولا لأية دولة أجنبية. ولو ارتفع حكم فرنسا عن البلاد واستُفتيَت البلاد في أمر مصيرها لكان جوابها اليوم كما كان للجنة كراين سنة ١٩١٩، أي طلب الاستقلال التام. وقد يوجد بعض المتزعِّمين الذين تلبّسوا زمنًا بالوطنية، وخدعوا الشعب السوري وأوهموه أنهم يدافعون عن استقلاله إلى أن نكثت فرنسا بعهدها هذه المرّة إلى سوريا، فقالوا: إذن، لا جلاء لفرنسا عن سوريا فلننضمّ إليها. وتسابق بعضهم مع بعض في ميدان الزلفى إليكم وذلك حينما لا يقدر أحد أن يرفع صوته بالحقيقة. فهؤلاء كلّهم قد عرفت الأمّة حقيقتهم مع تخالف أحزابهم، وسقطوا من نظرها، وتجلّى لها كذب دعواهم في الوطنية، وهم بعد هذا لا يتجاوزون عدد الأنامل، وإنّما يظهرون كثيرًا لأنهم يتكلّمون وحدهم ولا مجال اليوم لمقارعتهم والردّ عليهم. فالحرّية ـ بتمامها ـ مفقودة بفضل «فرنسا الحرّة»، ولكن سوف يأتي الوقت الذي يرتفع فيه صوت البلاد الحقيقي، لا في سورية وحدها، بل في نفس لبنان أيضًا؛ وترى بعينك وتسمع بأذنك.

ثمَّ قال:

«إنَّ فرنسا مستعدّة دائمًا لتأمين الطمأنينة في جميع أنحاء البلاد».

هل تريد أن تقول إنَّه لولا فرنسا لا يمكن أن تكون طمأنينة في البلاد، فلذلك يحقّ لفرنسا أن تستولي علينا؟ هل شمول الأمن للبلدان اختراع جديد لا تعرفه غير فرنسا؟ هو ذا العراق عربي بَحت، فهل الفوضى ضاربة فيه أطنابها؟ هذا ابن سعود، ملك الحجاز ونجد وعسير التي أكثرها بادية وصحارى، قد بسط على بلدانه رواقَ أمنٍ لم تعرف سورية ولا لبنان، ولا نفس فرنسا، نظيره. وكلّ مَن اطَّلع على أحوال الممالك العربية وأحوال أوربا يعرف أنَّ الضبط والربط فيها في هذا العصر هما أتمّ منهما في أوربا، وأنَّ كثيرًا من الأوربيين المُنصفين معترفون بذلك.

ثمَّ يقول:

"فاحتياطي الحنطة والموسم الجديد يؤمِّنان الغد ونحن عند منابع البترول، كما أنَّ التدابير اتُّخذت لتموين البلاد كالمعتاد ...إلخ".

كلّ هذا حسن جدًّا، ولكنَّ الحكومات بأسرها تفعله وليس ببدع يلزم المنّ به، ومع هذا، فنحن نشكر لهم هذه التحوّطات التي فائدتها تعود أوّلاً على جيشهم الذي حشدوه في سورية. فأمّا قوله: "ونحن عند منابع البترول"، فهو مضحك لأنه بترول ليس لهم فيه أدنى حقّ، وهو من كنوز البلاد العربية، جاءوا هم وإخوانهم الإنكليز فاغتصبوه من أيدي العرب، وأنذروا حكومة العراق بأنها إن لم تتركهم يتصرّفون به كما يشاؤون ساعدوا الأتراك على أخذ الموصل، وأخذه؛ وهكذا حرموا الأمّة العراقية من رَيع سنويّ يُحصى بالملايين. واليوم، نصف مؤونة فرنسا من البترول تأخذه فرنسا من زيت الموصل، أي من مال الأمّة العربية التي تنصب لها فرنسا العداوة في كلّ مكان، ولا تكتفي بما هدمته من ممالك شمالي أفريقية، ذوات التاريخ المجيد، حتّى تضمّ إليه هدم استقلال سورية. وهي، برغم ارتفاقها في نصف ميرتها من النفط بزيت هو بأسره من مال العرب، تكافئ العرب على ذلك أسوأ مكافأة وتستعين عليهم بأموالهم. وما تكتفي فرنسا بغصب زيت العراق الذي لا حقّ لها فيه، ولا لشقيقتها في الطغيان بريطانيا العظمى، بل تحاول غصب زيت البترول الذي تحقّق وجوده في سورية. ومن شهرين، حملت الحكومة الموقّتة التي

نصّبتها في سوريا على إعطاء امتياز البترول في كلّ سورية إلى شركة زيت الموصل الإنكليزية-الإفرنسية التي بواسطتها هاتان الدولتان تناهبتا زيت العراق.

ولكن ستعلم فرنسا أنها لن تقدر أن تبتلع سورية، ولا أن تبتلع زيتها. وأنّ سورية ستبقى للسوريين، كما أنّ زيت بلادهم سيبقى لهم، وأنّ كلّ بناء مبنيٍّ على الفساد والطغيان فسوف ينهار، ولو بعد حين.

وكأنّ المسيو بيو عرف ما يؤمله السوريّون من وراء هزيمة الحلفاء الذين انتهت الصفحة الأولى من هذه الحرب بالدبرة الفاضحة عليهم، فجاء يعدِّد للسوريين ما لدى فرنسا وإنكلترا من منابع القوّة الكفيلة بانتصارهم في آخر الأمر لا محالة، وقال:

«لقد كانت الأحداث الأخيرة أمثولة للأمم الصغيرة، وقد دلّت الحرب الحديثة على أنّ الأمم القادرة على حماية استقلالها ليست المجهَّزة بالرجال فحسب، بل التي تستطيع تغذية بلادها بالصناعات الكيماوية والمعدنية».

يريد أن يقول للسوريين: «أنتم، وإن كان عندكم رجال، فليست عندكم صناعات كيماوية ومعدنية تعتمدون عليها في حروبكم. فلابُدَّ من استيلاء فرنسا عليكم، وهي حينئذٍ تقدر أن تحميكم من العدوّ. أمّا أنتم، فلا قبل لكم بصون استقلالكم».

والجواب عن هذا: إن كان لا حقّ لأمّة بالاستقلال إلاّ إن كانت عندها صناعات كيماوية ومعدنية، فلا بُدَّ من سقوط مائة أمّة بالأقلّ على وجه الأرض لأنها لا تملك صناعات كيماوية ومعدنية، ومع هذا فهي مستقلّة بقوّة الحقّ القديم، وبحكم القومية، وبالأساليب الجغرافيّة والإتنوغرافية، وبمقتضى التوازن الدولي، وغير ذلك. وأنتم الحلفاء تزعمون إنَّكم تدافعون عن الحقّ وعن استقلال الأمم الصغيرة، وتقولون إنَّكم ما خضتم غمار هذه الحرب الطاحنة إلاّ من أجل ذلك. ونحن نعلم أنَّ دعواكم هذه غير صحيحة وأنها رئاء، لأننا نعرفكم كما أنتم، ولكنّنا ندينكم من نفس كلامكم. فالأمم الصغيرة إمّا أن يكون لها حقّ الاستقلال والبقاء من دون صناعات كيماوية ومعدنية، أم[1] لا،

(١) تأخذ هنا معنى أو، للمغايرة والاختيار.

فإن كان لها حقّ الاستقلال من دول صناعات كيماوية ومعدنية، وبمجرّد حقّها القديم، فلماذا تقولون الآن إنَّ الأمم القادرة على حماية استقلالها ليست المجهّزة بالرجال فحسب، بل التي تستطيع تغذية بلادها بالصناعات الكيماوية والمعدنية؟ ومعنى ذلك ـ بلفظ آخر ـ أنَّ الأمم التي ليس عندها هذه الصناعات ليس لها حظّ في الاستقلال، فإنَّ هذا يصير مخالفًا لزعمكم أنكم تحاربون لأجل بقاء الأمم الصغيرة التي هي غير مالكة في الواقع للصناعات الكيماوية والمعدنية، وإن ملكت شيئًا منها فيكون أشبه بالعدم. وإن كانت الأمم الصغيرة لها حقّ البقاء والاستقلال بحكم اعتبارات أخرى سبق ذكرها، فلماذا تقول لنا الآن: إنَّ الأمم القادرة على حماية استقلالها هي التي تستطيع تغذية بلادها بالصناعات الكيماوية والمعدنية؛ أي التي لا تستطيع ذلك، ليس لها استقلال؟!

ثمَّ إنَّكم أنتم طالما نسبتم هذا المبدأ إلى هيتلر، وملأتم الدنيا جعجعة بأنه يقول ـ وقولكم هذا افتراء في الواقع على هيتلر ـ إنَّ الأمم الصغيرة محكوم عليها بالفناء أو تخضع للأمم القويّة. فما بالكم تحلّونه عامًا وتحرِّمونه عامًا؟ تارةً تزعمون أنَّ الأَوْلى بالاتّباع هو الحق، وطورًا تقولون إنَّ الأَوْلى بالاتّباع هو القوّة.

وبعد، فنحن ـ معاشر العرب ـ إذا سلِمنا من شرّكم وخلصنا من دسائسكم، عندنا الحقّ وعندنا القوّة معًا. وما «الصناعات الكيماوية والمعدنية» بالأمر المستحيل علينا، ولا هي بحركة لكم وحدكم. إنّنا إذا تمتّعنا باستقلالنا عشر سنوات، صارت عندنا كما هي عند غيرنا وقرائحنا أصفى من قرائح غيرنا، فلا يسبقنا أحد في ميدان العلم والصناعة إذا كنّا أحرارًا في بلادنا. ثمَّ إنَّكم نسيتم أنَّ العرب في آسيا وأوروبا يناهزون ٧٠ مليونًا. فكيف تبلعونهم؟ أمّا زيت النفط الذي هو ماء الحياة للأمم العصرية، فأقطارنا ملأى به، لا يعوزنا إلاّ انقلاعكم من عندنا حتّى نستعمله على أحسن وجه في كلّ مرفق من مرافق الحياة. وزيت الموصل الذي سرقتم تسعة أعشاره أنتم وإخوانكم الإنكليز، هذا هو ملك العرب لا ملككم، ولا مناص من أن يعود كلّه للعرب.

فـإنَّ المـاء مـاء أبـي وجَـدِّي ... وبئري ذو حفرت وذو طويت

ثمَّ ذكر بيو أنَّ إنكلترة وفرنسا تفوقان ألمانيا في الصناعات! وهذا تبجّح باطل؛ إذ لا يوجد في الدنيا أمّة تضارع ألمانيا في العلوم والصناعات. وهي اليوم ترتفق بمعامل هولاندة وبلجيكا وشمالي فرنسة الذي تحتلّه وفيه أكثر معامل فرنسة. هذا، عدا المعامل التي لا تُحصى في أرض ألمانيا.

ثمَّ افتخر بأمريكا التي جعلها من صفّ الحليفات. فإن كان المقصود بذلك أنهم سيجرّون أمريكا إلى محاربة ألمانيا كالماضي، فأمريكا لا تنوي أن ترتكب هذه الغلطة مرة أخرى، ولا تقدر أن تخلي الباسيفيك لليابان. فليست أمريكا إذن قادرة أن تفعل ما يشاؤون، ولا أن تشاغل بحرب هم أرادوها وأصرّوا عليها، ورفضوا الصلح الذي عرضه هيتلر مرارًا. وأحلى كلّ شيء قوله: «لا بدَّ في هذه الساعات العصيبة من الاختيار بين النير الأجنبي والصداقة الفرنسية»! فكأنه يقول إنَّ وجود فرنسا عندنا ليس بنير أجنبي وإنّما هو مجرّد صداقة! يظنّ أنَّ تغيير الألفاظ يغيّر الحقائق، وهيهات! إنَّ في الأنيار الأجنبية كلّها لا يوجد نير أثقل ولا أغلظ ولا أشدَّ وطأة من النير الفرنسي؛ هذا باتّفاق كلمة المسلمين والشرقيين وجميع المقهورين في العالم. وليس للمسيو بيو أن يتكلّم في «الصداقة الفرنسية» قبل أن يرحل آخر عسكري فرنسي عن سورية وعن لبنان. ﴿ولتعلَمْنَ نبأه بعد حين﴾.

شكيب أرسلان

لا بدّ أن تزغرد الحزينة
ولو في عرس جارتها

- إنّ هذه الهزيمة الإفرنسية لم يسبق لها مثيل في التاريخ

لا نريد الآن أن نظهر الشماتة بفرنسة على كارثتها هذه التي لم يسبق لها مثيل في تاريخها مذ وُجِدت، ومنذ عُرف اسم فرنسة على وجه الأرض. لا نريد أن نتكلّم على عظمة مصابها هذا وهي الدولة المعروفة بشدّة الخنزوانة[1]، وكونها مثالاً من الدول طغى وتجبّر وادّعى السلطان الأكبر، كيف أنها في مدّة ستّة أسابيع انهارت انهيارًا تامًّا أمام الجيوش الألمانية التي احتلّت في هذه المدّة نحو ثلثي أرضها، وأخذت من جيوشها زيادة على سبعمائة ألف أسير، وغنمت من الأعتدة والأدوات الحربية ما يفوق تصوّر البشر، وجدعت أنف الكبر الفرنسي الذي كان يطاول السماء، وأرغمت الحكومة الفرنسية على طلب المتاركة نازلة على حكم هيتلر هذا الذي كانت الصحف الفرنسية في كلّ صبيحة وكلّ عشية توسعه شتمًا وقذفًا، وتجرف عليه من قاذورات الألفاظ جرفًا، فهي الآن سعيدة بأنّ يجيبها إلى رجائها وأن يلبّي خاضع التماسها وضارع ندائها. فسبحان مقلّب الأحوال ﴿قُلْ اللهُمَّ مالك المُلك تؤتي المُلك مَن تشاء وتنزع المُلك ممَّن تشاء وتعزّ مَن تشاء وتذلّ مَن تشاء بيدك الخير إنَّك على كلّ شيء قدير. تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحيّ من الميت وتخرج الميت من الحيّ وترزق مَن تشاء بغير حساب﴾.

ولقائل أن يقول - وسيوجد كثير ممَّن يقول ذلك - ما بالكم تفرحون بمصيبة فرنسا هذه وتطرونها وتبدون وتعيدون فيها وتتلذّذون بذكراها، وتشفون صدوركم بنشر أخبارها؟ فهَلْ أنتم كنتم أصحاب هذه البطشة الكبرى التي حلّت بفرنسا؟ وهل هذا الثأر المنيم

---

[1] جنون العَظَمة.

الذي لكم عند فرنسة قد أخذه العرب أم المسلمون منها بسيوفهم، أم هو ثأر منيم وذحل[1] قديم أخذته ألمانيا بسيوفها وسواعد أبنائها، وهي دولة أوروبية آريّة مثل فرنسة نفسها؟ وإذا بحث الباحث في التاريخ وجدهما من أرومة واحدة في الأصل، ووجد قسمًا عظيمًا من الفرنسيين نازعًا فيهم العِرق الجرماني الصريح، حتّى أنّ اسم فرنسا نفسه مشتقّ من اسم الفرنج الذين هم أمّة جرمانية.

أجيب عن ذلك: نعَم، لسنا نحن العرب ولا المسلمين على وجه العموم الآخذين بثاراتنا المتراكمة وذحولنا المتقادمة من هذه الدولة العظيمة التي أمعنت في قهر المسلمين، وهدم ممالكهم، وثلّ عروشهم، واستعباد دهمائهم، وإبادة خضرائهم. فلم تبقِ ولم تذرِ، وأتت فيهم من أصناف الجبروت وأفانين العظموت ما لم يتحدّث بمثله تاريخ البشر. فنحن نأسف، بل نخجل، والله على ما نقول وكيل، من كوننا لسنا نحن الآخذين منها بثاراتنا، وذلك بسيوفنا وسواعدنا، ولسنا الضاربين عليها الذلّة والمسكنة كما ضربت هي على بعضنا من نحو قرن، وبعضنا من نصف قرن، وبعضنا من ثلاثين سنة ومن عشرين سنة. وإنّنا انتظرنا الدهر حتّى يأخذ بثارنا وحتّى نشفي صدورنا من أولئك الظالمين القاهرين على يد دولة أوروبية ليست منّا ولا نحن منها، بدلاً من أنّ آباءنا وأجدادنا كانوا إذا أصابتهم الضربة ضَربوا بمثلها وربّما بأضعافها، وإذا سُقيوا كأسًا مُرّة سَقوا في مقابلتها كؤوسًا، وطالما أولئك الأجداد ـ رحمهم الله ـ جاسوا خلال فرنسة طولاً وعرضًا، وحكموا في أبنائها في أوساط دورهم على حدّ ما يحكم الألمان فيهم اليوم. فما كان يفعله آباؤنا قد قصّرنا نحن عنه، بل قصّرنا عن أقلّ جزء منه، ولم يكن يحقّ لنا أن نقول:

نبني كما كانت أوائلنا — تبني ونفعل مثل ما فعلوا

ـ أسف العرب من كونهم يفرحون بانهزام عدوّهم ولم يكونوا هم البادئين بثارات أنفسهم

إلاّ أنني أقول: إنّنا وإن لم نكن أخذنا هذا الثأر المنيم والذحل القديم بأيدينا، وكان

(١) حقد وضغينة/ثار.

الذي أوسع فرنسا خسفًا ونسف جبال كبريائها نسفًا هو هيتلر زعيم ألمانية، فلقد مهّد لنا الفرصة من خلال سقوط فرنسا أن ننهض ونرتاش ونسترجع من مجدنا السابق ونستأنف من عزّنا الماضي؛ فإنَّ الله تعالى إذا أراد شيئًا هيّأ أسبابه، وهو تعالى الذي يقول ﴿قُلْ هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يُلبسكم شِيَعًا ويُذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلَّهم يفقهون﴾.

فإذا كنّا رجالاً أو كانت فينا بقيّة رجولية، وصبابة أنفة، وثمالة حمية، فإنَّنا جديرون بأن نستفيد من نكبة فرنسة هذه بما نأخذ به ثارات المغرب الأقصى والمغرب الأوسط وتونس الخضراء ـ أمّا سورية ولبنان، فلا حاجة إلى القول بأنَّ فرنسا بارحة أرضهما وليس لها فيما بعد أن تطأهما ـ وليس على الله بعزيز أن يُعيد تلك الحقوق لأصحابها إذا رأى أصحابها مستمسكين بحقوقهم. فإنَّ الله تعالى لا ينصر مَن لا ينصره ولا يؤيّد مسلمًا داخلاً تحت قوله تعالى: ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾. وهو يجيب الله بمنطوق قوله تعالى: ﴿ثمَّ رددناه أسفل سافلين﴾. إنَّ الله جعل للمسلمين كتابًا ما فرط فيه من شيء، وأمَرَهم أن يتدبّروه وأن يعملوا به. فإن لم يعملوا به وأهملوه وجعلوه لمجرّد الترنّم فقط، كما صنعوا في هذه القرون الأخيرة، فليس أمامهم حينئذٍ إلاّ العذاب الأليم والأغلال في أعناقهم.

ـ يجب على المسلم أن يشفق على نفسه قبل كلّ شيء

إنَّ على إخواننا المغاربة أن ينهضوا بأجمعهم مهتبلين(١) هذه الغرّة اللائحة، منتهزين هذه الفرصة السانحة بينما فرنسا مجرّدة من سلاحها، مطمئنّة من طماحها، مشغولة بجيوش الألمان التي لن تبرحها حتّى تنتهي الحرب بين ألمانية وإنكلترة، فيجتمعوا على كلمة واحدة؛ هي التي أشار إليها المجتهد الكبير السيِّد محمَّد الحسين كاشف الغطاء، وهي كلمة التوحيد التي تقضي من نفسها بتوحيد الكلمة، ويقرِّروا لأنفسهم برنامجًا سياسيًّا يكفل لهم استقلالهم، ويؤمِّن استقبالهم، ويقيِّض لهم الوسائل التي تَقيهم من العبودية

(١) مغتنمين، مِن اهتبل، أي اغتنم.

لفرنسة في الآتي، إذ ينبغي أن يتأمّلوا كون سقطة فرنسة هذه ليست أبدية لا نهاية لها، وأنَّ فرنسة سيأتي يوم ولو بعد ثلاثين سنة أو أربعين سنة تنهض فيه من عثرتها (وتلك الأيام نداولها بين الناس)، فلا يحسن بهم إذن أن يضيّعوا هذه الفرصة التي يجوز أن لا يأتي بمثلها الدهر، والتي هي ممّا تتمخَّض به مئات السنين، ولا يجوز لهم أن يسترسلوا إلى العواطف الفارغة فتأخذهم الشفقة على مَن لم يشفق عليهم، والرثاء لمَن لم يكن يرثي لهم طول مدّة استيلائه عليهم، وكان يزيدهم قهرًا كلّما ازدادوا له خنوعًا، وكان يقتل من قوميّتهم ويبيد من ثقافتهم ويقصم من أظهر أسلافهم ويفصم من عروة إيمانهم كلّما قدّموا له مئات الألوف من شبابهم يقاتل بها الألمان وغيرهم، وأن يقاتلهم هم أنفسهم بأنفسهم، فيقرع النبع بالنبع. ولقد لحظنا ـ لا سيّما في هذه النوبة من أمراض الأمّة الإسلامية ـ مرضًا عضالاً مؤذنًا بأشدّ الخطر، وهو مرض الاستخذاء للأجنبي الغالب، انحلّوا أمامه من كلّ ما أمر به الإسلام عن عزّة النفس؛ فإذا كان الأجنبي قاهرًا من فوقهم، خضعوا له إلى درجة العبادة، ورأوا أنفسهم أمامه كالتراب وأنه لا ينبغي لهم أن يراجعوه في كثير ولا قليل، ولا يراودوه عن دقيق أو جليل. وإنَّ هذا الأجنبي القاهر إذا حلّت به نكبة أمكنت فيه الفرصة من إذلاله ورفع سيطرته، كان منهم العكس، وهو أن يستمسكوا به في أوان ذلّه ونوبة خذلانه بما يكون قد ألان لهم من القول وخفض من الجناح. فما أسرعهم حينئذٍ إلى العطف عليه والرثاء له لأنهم عوّدوا أنفسهم أن يرضوا منه بأقلّ شيء! ويكون هوَ في أثناء نكبته مضطرًّا إلى مصانعتهم؛ فلا تبدر منه كلمة تواضع يلقيها إليهم حتّى ترى أعينهم فاضت من الدمع. وذلك أنَّ ذلَّ مَن كان عاليًا، شديد التأثير فيهم، وإن تواضع مَن لم يعرفوا منه إلاّ الاحتقار، يقع منهم موقعًا عظيمًا ينسون به كلّ ما سامهم[1] من الخسف[2]، ذلك الدهر. فهذا المرض الذي ظهرت علاماته في هذه الحرب أكثر من كلّ مرّة، سواء في المغرب أو في مصر أو في الشام، ولا نستثني منه العراق وجزيرة العرب، ينبغي أن تقاتله الأمّة العربية ويقاتله الإسلام بأسره بأشدّ ممّا يقاتلون به فرنسة وإنكلترة وسائر دول الاستعمار، لأنه أشدّ خطرًا على حياة الإسلام وكيان العروبة

(١) أذلّهم.

(٢) نقيصة ـ عيب.

من الاستعمار نفسه ومن أوربة جميعها. فالعربي خصوصًا والمسلم عمومًا، لا خوف عليه مهما خضع في الظاهر إذا بقي على متانة جأشه وصلابة عزمه في الباطن. وتذكّر أنَّ هذا العدو الذي يتظاهر له بالتواضع في حال النكبة، إنّما يصانعه مصانعة فارغة ويداهنه مداهنة كاذبة ريثما تنقلب الأيام ويعود إلى سابق سلطانه، فيعود يومئذٍ نمرودًا كما كان من قبل، ويرجع إلى سابق خسفه للمسلمين وعسفه فيهم. فلا يجوز أن يغيب هذا الأمر عن أعينهم طرفة عين، بل يجب أن تكون لهم قلوب من حديد بإزاء مَن كان له قلب من حديد نحوهم، إذ لا يفل الحديد إلاّ الحديد.

وليس في هذا شيء يتعلّق بالإنسانية، بل مسألة الإنسانية ليس لها مدخل في هذا الموضوع أصلاً؛ فمَن كان من المسلمين يريد أن يعطف ولا يستطيع إلاّ أن يرأف، فليعطف وليرأف وليساعد بماله ذلك المنكوب الذي كان يقهره، ولكن ليس له أن يجود عليه باستقلال وطنه ويقول: أمّا وقد قرعت فرنسا هذه القارعة العظمى ودارت عليها هذه الدائرة الكبرى، فليس الآن من الكرم أن نعاديها أو نناقشها الحساب، وليس من الأنفة أن نناهضها في حال ضعفها ونطالبها بحقوقنا! إنَّ نفرًا يرون هذا الرأي هم إحدى طبقتين، إمّا أن يكونوا خائنين تليق بهم أعمال الحسام، أو يكونوا مجانين يليق بهم المارستان. وأية حماقة أعظم، وأية خيانة أفظع من أنَّ الإنسان يشفق على عدوّه ولا يشفق على نفسه، وأن يذكر نكبة عدوّه فيعطف عليه من أجلها، ولا يذكر نكبة قومه مدّة دهر طويل، ولا تأخذه لهذه الذكرى المؤلمة رأفة بنفسه وبأبناء جلدته وبملّته ووطنه! فعلى أهل الحلّ والعقد من هذه الأمّة أن يبادروا قبل كلّ شيء إلى حسم هذا الداء الوبيل حتّى لا يبقى له أثر في المجتمع الإسلامي.

ولسنا نخصّ المسلمين وحدهم بوجوب النهوض من تحت حكم فرنسة مطالبين باستقلالهم وحرّيتهم، فإنَّ الله تعالى خلق غير المسلمين كما خلق المسلمين، والجميع هم خَلق الله تعالى، وجدير بنا أن نهتمّ بكلّ أمّة من بني آدم لأنَّ بين البشر إخاءً عامًّا ولُحمة غير منفكّة، فنحن نرجو أنَّ غير المسلمين من سكان مستعمرات فرنسا يهبّون

أيضًا فيحطِّمون القيود التي هم مقيَّدون بها، ويرتفعون عن الحضيض الذي هم فيه إلى درجة المساواة مع الأوربيين. وفي الأمّة العربية بخاصّة طائفة كبيرة غير مسلمة في العقيدة، ولكنّها مساوية في النسب العربي وفي الجامعة العربية، فيهمّنا من أمرها ما يهمّنا من أمور المسلمين بلا أدنى فرق. وقد تضيق صدور كثير ممَّن في قلوبهم مرض عندما يرونني أخصّ المسلمين بالنداء، وأوقظهم من الخمول، وأستدعي لهم الإنصاف، وأرفع صوتي بالصريخ من أجلهم، وليست هذه الفئة على شيء من الإنصاف إذ هي تعلم أنَّ الاستعمار الأوربي لم يقهر أمّة على وجه البسيطة قهره للمسلمين. فبين المشرق والمغرب أربعمائة مليون مسلم ليس فيهم مَن يلي أمر نفسه مستقلاً تمام الاستقلال سوى ستّين أو سبعين مليونًا، وإنَّ بقيّة مَن بقي منهم راسفون في سلاسل الرِّق للأوربيين. فلو كان هذا العدد من الخَلق الراسفين في قيود العبودية هم من الزنوج السود أو الأمريكيين الحمر أو من طائفة الأسكيمو، سكان الكهوف، لأخذتنا عليهم الشفقة ووالينا من أجلهم الصريخ، وكان ذلك لزامًا. فما ظنّك إذا كانت هذه الأمّة التي في أرجلها هذه القيود الثقيلة، وفي أعناقها هاتيك الأغلال الغليظة هي من المسلمين؟! أَفيكون من باب التعصّب أن نغضب لها وننافح عنها، وندافع عن حقائقها ونطالب بحقوقها، وهي منّا ونحن منها، والأقربون أَوْلى بالمعروف؟! لا جرم أنَّ التعصّب الحقيقي هو في صدور أولئك الذين يرون تعصّبًا منّا الغضب لمئات الملايين من المسلمين المظلومين الذين هم يريدون في أنفسهم أن تستمرّ عبوديتهم للأوروبيين من أجل كونهم مسلمين!

هذه هي حقيقة ما في ضمائر هؤلاء القوم الذين ـ بخُبث نيّاتهم ـ كدّروا صفو الشرق ونغّصوا سعادته، وزرعوا الشقاق بين ملّتين كان حقّهما أن تكونا كتلة واحدة شرقية تتمتّع بالسعادة في الداخل والهيبة من الخارج. فهؤلاء فضّلوا أن يكون الحكم للأجنبي الغاشم وأن تُسلَّم الأوطان استقلالها تمامًا غيظًا بإخوانهم المسلمين، وعملوا بالمثل القائل: «عليَّ وعلى أعدائك يا رب». ولكنَّ هذا المثل لا ينطبق في الواقع على هذه القصّة لأنَّ المسلمين ليسوا بأعداء لهم، بل هم إخوان في الجلدة وفي الوطنية وفي المصالح المشتركة. وترى هذه الفئة يحاولون إخفاء نزعتهم هذه، يموّهون عليها

بتمويهات فاسدة، ولكنَّ ثوب الرياء يشفّ عمّا تحته. وما أصدق قول الشاعر القائل:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإنْ خالها تخفى على الناس تُعلَم

ـ ليس من باب الشماتة نتكلّم على هزيمة فرنسة هذه، ولكن من باب انتهاز الفرصة لتحرير البلاد الإسلامية

ولنعرض الآن عمَّن في قلوبهم مرض، ولنَعُد إلى ما كنّا في صدده من أمر نكبة فرنسة الحاضرة، وكوننا لا نريد أن نتكلّم عليها من باب الشماتة؛ فإنَّ الأمّة الفرنسية، بما تعبت على نفسها، وبلغت من قنن المجد، وفرعت من أعراف السؤدد، وسبق لها من المآثر السوابق والمعالي السوامق سواء أكان بالسيف أم بالقلم، لا تستحقّ الشماتة، ولو لم يكن لها من المزايا الباهرة التي أجلستها في أعلى صهوات العلاء سوى هذه النزعة الوطنية الفائقة كلّ حدٍّ لكانت وحدها كافية لتغطية كثير من عيوبها التي تلحق بها الضرر وتستجلب لها أشدّ العداوات؛ والله يشهد أنني كنت مرّة أتحدّث إلى جلالة إمبراطور ألمانية، وهو من العلم وسعة الاطّلاع وسرعة الفهم وصحّة الحكم بالدرجة العليا. فذكرتُ له عجَبي من هذه الأمّة الفرنسية التي بلغت ما بلغته من الغايات البعيدة في معارج المدنيّة، على ما يكثر في سوادها من النزَق والخفّة وفقد الاعتدال. وقلتُ له إنّي لا أجد لذلك سببًا تتلافى فرنسة فيه نقائصها هذه إلاّ شدّة غرامها بوطنها، وما يهون عليها من الموت في سبيل حياة ذلك الوطن. قلتُ له: ولم أجد ذلك في الألمان أنفسهم، فإنّي أرى أكثر ملوك أوربة ألمانيين في الأصل؛ فالعائلة المالكة في إنكلترة هي عائلة ألمانيّة حديثة العهد بذلك، والعائلة المالكة في بلجيكا ألمانيّة أيضًا، وملك رومانيا هو أيضًا ألماني، وابن عمّ جلالتك، وملك بلغاريا هو من آل كوبورغ الألمانيين، وإمبراطورة الروسية، زوجة نقولا الثاني، كانت ألمانيّة، وأنتَ نفسك ـ حسبما قرأتُ في بعض الكتب ـ كنت تعاتبها على نسيانها لوطنها. وحقيّة الحال أنه ليس من هذه البيوتات جميعًا مَن يعمل في سياسته العمل الذي يقتضيه أصله، بل كلّهم نسوا كونهم راجعين إلى نسب ألماني عريق، وانسلخوا من الجماعة الجرمانية. والحال أنَّ الفرنسي، كيفما تغرَّب وفي أيّ بيئة وُجِد، يبقى فرنسيًّا

بجميع عواطفه. وقد عرفتُ كثيراً من الألمان الذين هم متزوّجون بإفرنسيات، ولم أعرف واحدة من هؤلاء تابعة لزوجها في السياسة، بل هنَّ لا يعطفْنَ إلاّ على فرنسة. فوافقني الإمبراطور غليوم على كلّ ما قلته له في هذا الموضوع. فإن كنت أصرّح بإعجابي هذا أمام عاهل ألمانية، خلاصة آل هنصولرن وسنام الألمان، فكيف لا أصرّح به الآن في هذا المقام؟! وقد قال الله تعالى: ﴿ فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾. ولذلك أقول إنَّ هذه الأمّة لا تستحقّ أن يشمت بها الناس، وليست بالأمّة التي إذا عثرت لا تقال عثرتها. فقد طال ما عثرت في التاريخ وكان لا يمرّ عليها أكثر من ربع قرن أو نصف قرن حتّى تنهض من جديد وتسترجع شأنها الأوّل. ولكنَّ الذي نريد أن نقوله، هو أنَّ الأمّة العربية التي في قلبها من جراحات فرنسة ما لا يندمل ولا يلتئم، لها الحقّ في هذا اليوم أن تزغرد على حدٍّ ما جاء في المثل الشامي: "لا بدَّ أن تزغرد الحزينة ولو في عرس جارتها".

فإن لم تزغرد الأمّة العربية اليوم، فمتى - يا ليت شعري - تزغرد؟! بل من العجب العجاب أن لا تزغرد. والفرنسيّون، لو فحصوا ضميرهم واعترفوا بالحقّ، لعلموا أنَّ ما فعلوه من الأفاعيل بعرب أفريقية وآسية، وبالمسلمين عمومًا، وما كانوا ينوون أن يفعلوه بهم أضعافًا مضاعفة عمّا فعلوه في الماضي، فيما لو كان اتّسق لهم النصر لمَا كان الفرنسيّون ينبسون ببنت شفّة في معاتبة مَن يفرح اليوم من العرب بنكبتهم هذه. إنَّ الفرنسيين لا يعرفون الاعتدال في شيء، وهذا أعظم عيوبهم. ولنضرب لك مثلاً: إنَّ أوروبا كلّها عدوّة للإسلام، من حدود سيبيريا إلى الأقيانس الأطلنطيقي، ليس من الأمم الأوروبية واحدة تطيق الإسلام وأهله. ولا يشذّ من ذلك إلاّ أفراد قلائل نِسْبَتُهم إلى المجموع نسبة النقطة إلى الغدير.

- الحملة الصليبية على الإسلام

ولكنَّ عداوة فرنسا للإسلام تفوق جميع عداوات الأمم الأخرى منهم، وهذا من قديم الزمان. ولمَّا زحفت الأمم الأوروبية على الشرق بالحرب الصليبية، كانت كلّها يدًا

واحدة علينا، ولكن كان بينهم تفاوت في الشدّة والأحنة. فالألمان زحفوا زحفة واحدة تحت قيادة الإمبراطور بربوسا، والإنكليز زحفوا زحفة واحدة تحت قيادة ريكارد قلب الأسد، والطليان كانت لهم وقتئذٍ مواقف اندمجوا فيها مع غيرهم.

- إحدى عشرة حملة صليبية فرنسية

ولكنَّ فرنسا امتازت على الجميع، فزحفت على الشرق في إحدى عشرة حملة صليبية، كلّما انطفأت نار واحدة منها أوقدتها فرنسا استئنافًا، حتّى كأنها أخذت الحروب الصليبية كلّها على نفسها. وأفضل ملك عندهم المسمّى بالقدّيس لويس - أي لويس التاسع - إنّما وضعوه في صفّ القدّيسين لشدّة غرامه بمحاربة المسلمين، وهو الذي غزا مصر في زمن الملك الصالح نجم الدين، ابن الملك الكامل ناصر الدين، ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب. ولمّا وصل لويس التاسع إلى دمياط، أرسل إلى الملك الصالح يأمره بتسليم مصر من دون جدال وإلاّ فإنّه يستأصل رجاله ويدمّر بلاده؛ وكان مجيء لويس على رأس جيش جرّار قيل مائتي ألف وقيل أكثر، فلمّا ورد كتابه على الملك الصالح، وكان مريضًا، أخذ هذا بالبكاء ولكن توكّل على الله وأجابه: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين»! ولمّا انتصب الميزان بين المسلمين والإفرنج، قضى الله بكسر هؤلاء جدعًا لأنف كبريائهم، وأُخِذ الملك لويس أسيرًا في وقعة المنصورة، هو وأمراء مملكته،واستؤصل الصليبيون ذلك اليوم على بكرة أبيهم. ووُضع الملك في دار بالمنصورة يقال لها دار ابن لقمان - لا تزال معروفة إلى اليوم - وقُيِّد بالحديد، ولم يخلص من الأسر إلاّ بتسليم دمياط التي كانت في يد الإفرنج، وتسليم مدن كثيرة كانت بأيديهم من بَرّ الشام، وبفدية عظيمة. ولكنَّ المسلمين أخذوا منه يمينًا بأن لا يعود إلى محاربتهم وأطلقوا سبيله على هذا؛ فما كاد يصل إلى بلاده حتّى حدَّثته نفسه بعبور البحر وغزو المسلمين مرّة ثانية وأخذ يتأهّب لزحفة جديدة صليبية ناسيًا عهده وميثاقه، إلاّ أنَّ أعوانه خافوا أن يقع مرّة ثانية وقعة لا يكون له خلاص منها. ولمّا رأوه يأبى إلاّ أن يقاتل المسلمين، صرفوه عن الشرق إلى تونس أملاً بأن تكون تونس أهون عليهم،

فزحف بأسطوله، وعليه جيش عظيم، وحاصر تونس، ولكنّه مات في أثناء الحصار وتبدَّد شمل جيشه. وقال أحد شعراء تونس:

يا فرنسيس هذه أخت مصر ... فتأمّل فيما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر ... وطواشيك منكر ونكير

وهذا إشارة إلى قول ابن مطروح في أَسْر الملك لويس بالمنصورة:

قُلْ للفرنسيس إذا جئتهم ... مقال صدق من قؤول فصيح

إلى أن يقول:

وقُلْ لهم إن أزمعوا عودةً ... لأخذِ ثأرٍ أو لفعلٍ قبيح
دار ابن لقيمان على حالها ... والقيدُ باقٍ والطواشي صبيح

وذلك أنَّ الطواشي الذي كان موكّلاً بَملِك فرنسة الأسير كان يقال له "صبيح". وقد أوردنا هذه القصّة من ضمن مائة قصّة تدلّ على إمعان هذه الأمّة الزائد في عداوة الإسلام وأهله. وحسبك أنه لمّا عجزت فرنسة عن مقاومة ألمانية في زمن فرنسيس الأوّل كما عجزت هذه المرّة حذو القذة بالقذة، ووقع فرنسيس الأوّل أسيرًا في محاربته للإمبراطور شارلمان عاهل ألمانية، كان عنده وزير أشار عليه بالإقلاع عن عداوة المسلمين والالتجاء إلى السلطان سليمان القانوني الذي كان يومئذٍ عاهل تركية، وكانت أوربة ترتجف من مجرّد ذكره. فأرسل إليه السلطان سليمان بعد خلاصه من الأسر أسطولاً وجيوشًا نزلت في جنوب فرنسا وحمَت هذه المملكة من تغلّب ألمانية عليها. وبقيت فرنسة تحت حماية تركية مدّة من الزمن؛ وكان السلطان سليمان ينجد فرنسة بالمال والرجال، ويرصد الأسطول العثماني الذي كان يقوده خير الدين بربروس للمدافعة عن فرنسة. ويؤكّد العارفون أنه لم يطل الزمن حتّى رجعت فرنسا تكيد في الخفاء للدولة العثمانية التي كانت تحميها من أعدائها، وذلك لشدّة عداوتها للإسلام. ومَن شاء الاطّلاع على تفاصيل ذلك فليراجع الجزء الثالث من حواشي حاضر العالم الإسلامي، تحت عنوان "مائة مشروع لتقسيم

تركية» ممّا نقلناه عن تواريخ فرنسا، وذلك من صفحة ٢٠٨ إلى صفحة ٣٤٢. ونكتفي بهذين الشاهدين عن شواهد لا تُعَدّ ولا تُحصى تدلّ على امتياز خاصّ لهذه الأمّة بعداوة العرب خاصّة، والمسلمين عامّة، لا تقدر أن تمنع نفسها عن ذلك. وقد ورد في أمثال العرب: «ما الخمر صرفًا بأذهب للعقول من الطبع». ولي جملة في هذا الموضوع: أسهل أنَّ الزنجي يتحوّل لونه من السواد إلى البياض من أنَّ الفرنسي يغيّر طبعه. ولقد عهدنا فرنسا تزعم أنها دولة لادينية بعد أن أخذت بمبادئ الثورة الفرنسية، وعهدنا أصحابها في كلّ قطر وأذنابها في الشرق ينادون دائمًا بحياد فرنسا تجاه الأديان! ومع ذلك، فلمّا جاء الجنرال غورو مندوبًا ساميًا لفرنسة على سورية التي احتلّتها قهرًا وظلمًا وعدوانًا محضًا، كان أول خطاب له في سراي بيروت على الملأ، مشيرًا إلى الحرب الصليبية التي بها فرنسا ملكت جانبًا من الشرق. وما اكتفى بذلك حتّى جمع إلى جانبه الرؤساء الروحيين، فجعل بطريرك الموارنة صاحب المقام الأول، وجعل من بعده مفتي المسلمين مع أنَّ المسلمين هم أكثرية البلاد. وأغرب من ذلك أنَّ غورو هذا عندما تغلّب جيشه على الشام ذهب لمشاهدة الجامع الأُموي، ولمّا كان مدفن السلطان صلاح الدين بقرب الجامع دخل إليه، فأرسل تلك الجملة الشهيرة: «الحرب الصليبية قد انتهت الآن، والدليل على ذلك وجودي هنا»؛ يُذكّر المسلمين بأنه قد غلب على بلادهم وأصبح كلّ أمل لهم في الخلاص من حكم فرنسة عبثًا. ثمَّ إنَّ هذه الدولة اللّادينية، بزعمهم، هي التي اخترعت في المغرب مشروع تحويل البربر ـ وهم نحو سبعة أو ثمانية ملايين مسلم ـ عن العقيدة الإسلامية، وذلك بمنع التعليم الإسلامي في ما بينهم ومجازاة مَن يتعلّم من أولادهم اللغة العربية، وبإلغاء المحاكم الشرعية بينهم بحجّة أنَّ البربر إنّما يعملون بأعرافهم وعاداتهم القديمة. وفي الوقت نفسه، كانت فرنسة تبثّ القسوس والمبشّرين في قرى البربر، يبنون الكنائس والمدارس والملاجئ، ويلتقطون أولاد الفقراء واليتامى وينصّرونهم. وقد بلغ تمادي فرنسة في العبث بحقوق المسلمين أن خصَّصت جانبًا من الميزانية المغربية، التي أربعة أخماسها صادرة عن جيوب المسلمين، بمساعدة القسوس والمبشّرين هؤلاء على تنصير البربر. نعَم، إنَّ هذا المشروع الذي لم يمضِ عليه أكثر من عشر سنوات، وقام العالم الإسلامي وقعد

من أجله، لم يؤتِهم حتّى الآن ثمرته التي ترجوها فرنسة، وذلك لحداثة عهده في المغرب الأقصى. ولكن في الجزائر، حيث مضى على حكم فرنسا نحو من مائة سنة، فقد كانت له هناك نتيجة غير قليلة وتنصَّرت قرى بربرية عديدة. ومَن شاء مطالعة هذه الأخبار، فعليه بكتاب «الجزائر» للفاضل السيِّد أحمد توفيق المدني التونسي المقيم بمدينة الجزائر.

ـ التبشير الديني في البلدان الإسلامية

ثمَّ منذ ستّ أو سبع سنوات، طاف القسوس بألف وسبعمائة متنصِّر في شوارع الجزائر، أصلهم من أولاد الفقراء ومن اللُّقطاء، وعليهم الملابس المغربية. واستنكر ذلك المسلمون، وعدّوه تحدّيًا لهم واستخفافًا بهم. وكتبنا في الموضوع في مجلّتنا «لا ناسيون آراب» [La Nation Arabe] وقلنا لهم: هَلْ تعهدون أنَّ حكومة إسلامية سمحت أن فئة من المسيحيين دخلوا في الإسلام أن يطوفوا في الشوارع ويعلنوا إسلامهم نكاية بالمسيحيين؟ وأيّ مسلم كان يومئذٍ يستحسن عملاً كهذا؟ فهذه هي أعمال فرنسا التي لا تعمل عملاً باعتدال، وإذا نصبت العداوة لقوم أَبَتْ إلاّ أن تمضي فيها إلى الحدّ الذي لا يزول أبدًا من الأذهان. وهذه إيطاليا، وهي دولة أوروبية مستعمِرة طامعة طامحة، قد غلبت على قسم من بلاد الإسلام وارتكبت في طرابلس فظائع لا ننساها. ولكنّها برغم كونها مملكة كاثوليكية معلنة صبغتها هذه، قد منعت كلّ دعاية دينية مسيحية بين المسلمين في مستعمراتها، وكانت إذا رأت أحد دعاة النصرانية يدخل بين المسلمين في شيء من هذا القبيل، سواء في طرابلس أو في بلاد الصومال أو في الحبشة، بادرت بحبسه ثمَّ بنفيه. وقد ذكر لي هذا الواقع أشدّ المسلمين الطرابلسيين عداوة لإيطاليا، وقالوا لي: «نحن لا يمكننا أن ننسى ما فعلوه بنا، ولكنّنا لا نقول عليهم إلاّ الواقع، وهو أنَّ إيطالية مانعة منعًا قطعيًّا الدعاية المسيحية بين المسلمين»؛ فهذه شهادة الأعداء التي لا شكّ فيها. ولمّا قفلتُ من اليمن ومررتُ بمصوع وأسمرة، سألت أعيان المسلمين هناك عن أحوالهم، فلم يذكروا لي شيئًا يشمئزّ الإنسان من سماعه، بل شهدوا للطليان بحسن معاملة المسلمين خاصّة، وذكروا لي من ذلك شواهد؛ وكان ذلك قبل حرب الحبشة. فلحظت أنَّ حُسن معاملة

إيطالية للمسلمين هنالك مبني على معرفتها بأنها ستقع في حرب مع الأحابيش النصارى، فهي محتاجة لذلك إلى عضد المسلمين. وقيل لي أيضًا إنَّ الدعاية المسيحية بين المسلمين ممنوعة هناك تحت الجزاء الصارم. فكيف كان السبب، فهي سياسة رشيدة حكيمة.

وكان زعيم إيطالية موسوليني، هو نفسه قال لي سنة ١٩٣٣: «إذا علمتَ من أحد أنَّ في مستعمرات إيطاليا أقلّ دعاية دينية مسيحية بين المسلمين، فأرجو منك أن تبادر بإعلامي، إذ ربّما وقع، خلافًا لأمري في هذا المعنى. ولكنّي لا أعتقد مطلقًا وجود شيء من هذا القبيل في مستعمرات إيطالية». وكان كلامه هذا لي بمناسبة تذكرة قدَّمتُها له أطلب فيها عدّة مطالب منها، إعادة ثمانين ألف عربي كانت إيطالية نقلتهم من الجبل الأخضر إلى الصحراء ومات منهم ألوف؛ ومنها، إطلاق سبيل المساجين المحكوم عليهم بسبب الثورة بعشرين سنة وثلاثين سنة؛ ومنها، التعويض عن الأراضي المضبوطة؛ ومنها، التعليم الإسلامي أن يكون في مدارس الحكومة؛ ومنها، إعادة الأوقاف إلى أيدي المسلمين؛ ومنها، إشراك المسلمين في إدارة الحكومة؛ ومنها، منع الدعاية المسيحية بين المسلمين، خلافًا لِما هو جارٍ في الجزائر ومراكش. ولقد أجابني موسوليني إلى هذه المطالب جميعها، فرد الستّين ألفًا من العرب المشرَّدين إلى الصحراء وأغاثهم ووزّع عليهم إعانات. وأطلق سبيل خمسمائة من المحكوم عليهم بالسجن عشرين سنة وثلاثين سنة. وقد قال لي إنَّ أوقاف المسلمين قد أُعيدت إليهم من قبل، وإنَّها تُدار بمعرفتهم، وإنَّ التعليم الإسلامي في مدارس الحكومة موجود من قبل طلبك هذا ولكنّني سأزداد به عناية. وقال لي أيضًا إنَّه سيعوّض على أصحاب الأراضي المضبوطة. وقال لي: «أمّا من جهة الدعاية المسيحية بين المسلمين، فكُنْ على ثقة أنها ممنوعة منعًا باتًّا». وهل يا تُرى حالة المسلمين اليوم في طرابلس هي جارية كلّها على وفق مُراد المسلمين، وضمن دائرة الحقّ والعدل؟ الجواب لا. فإنَّ هذا هو الاستعمار القاهر الذي هو تسلّط القوي على الضعيف.

وهناك أمور كثيرة تستحقّ أشدّ الانتقاد، بل أشدّ الاستنكار منها، كون العربي لا يصحّ له أن يركب في الدرجة الأولى إذا كان هناك طلياني بجانبه؛ ومنها، عدم التعويض على جميع من ذهبت أراضيهم، وغير ذلك ممّا استوفينا شرحه في العدد الأخير من «لا

ناسيون آراب» واستجلبنا نظر الحكومة الإيطالية إلى الحيف الواقع على المسلمين وطالبنا بتلافيه. ولكنَّ الطليان، سواء قبلوا الكلام وعملوا به أو قبلوه في الظاهر وخالفوه في الباطن، فإنَّهم يشكرون لنا نصحيتنا ولو كانت تتضمّن أحيانًا بهم التنديد الشديد. ويقولون إنَّهم مستعدّون لفحص هذه القضايا بالنصفة والعدل.

ـ نفي كُتبيّ في فاس لوجود كتاب عنده منّا!

أمّا الإفرنسيون، فإذا نصحهم ناصح، مهما كان أسلوبه لطيفًا، قابلوه بالطعن والقذف والافتراء على شخصه بأنواع المثالب، ونعتوه بـ«عدوّ فرنسة». وسأورد في مقال خاصّ ما نالني منهم من هذه الجهة ممّا لم ينَلْ أحدًا من العرب لا في قديم ولا في حديث، وحسبك أنهم يلقّبونني بعدوّ فرنسة نمرة (١) [واحد]، وأنَّ المسيو سارو، ناظر الداخلية السابق، صرّح للجرائد بأني عدوّ فرنسة القديم الدائم. وكانوا نفوا من فاس كُتُبيًّا وجدوا عنده منّي مكتوبًا، فجعلوا ذلك سببًا لنفيه مع أنَّ المكتوب لم يكن شيئًا من السياسة، بل كان هذا الرجل يراجعني في تعليق حواشٍ على تاريخ ابن خلدون الذي كان يريد طبعه، ولقد وُفِّق إلى ذلك وعلّقت الحواشي التي كان يقترحها، فجاءت في مجلّد يبلغ خمسمائة صفحة. ومع أنَّ كتابي إليه كان خلوًا من كلّ موضوع سياسي، فقد وجدت الحكومة الإفرنسية مجرّد علاقته بي سببًا كافيًا لطرده من وطنه وتخريب بيته. ولمّا كان هذا العمل خلافًا للقانون، أخرجوه من بلده فاس بالقوّة من دون أمر خطّي لعدم وجود مادّة قانونية يستندون عليها في نفيه. فلمّا بلغني الخبر، أرسلتُ إلى أحد المحامين في باريس ـ وكان من أقطاب الحزب الاشتراكي ـ فأخبرته بما وقع، فدُهش لهذه المعاملة وكتب إلى رئيس الوزارة الإفرنسي، وكان يومئذٍ المسيو لافال الذي هو اليوم الرئيس الثاني للوزارة الإفرنسية بعد الماريشال بيتان. فالمسيو لافال أجاب المحامي بأنَّ المهدي الحبابي الذي نَفَتْهُ السلطة من فاس وُجِدَ عنده مكتوب من الأمير شكيب أرسلان بخطّه. وقد أرسل المحامي إليّ بهذا الكتاب الوارد عليه من رئيس حكومة فرنسا وهو الآن بين أوراقي. وما كدت أصدّق عيوني حينما قرأت أنَّ سبب نفيهم لهذا الكُتُبي الفاسي هو كونه دخل معي في

مكاتبة ولو كانت مجرّدة من كلّ سياسة. فأيّ قانون على وجه الأرض، وأية مادّة من قانون فرنسة تنصّ على مجازاة رجل يكاتب رجلاً في موضوع تجاري أو علمي من دون أن يكون هناك أيّ شيء يخلّ بسلامة تلك المملكة أو بالنظام فيها؟! وزدْ على ذلك أنَّ هذا الفاسي هو من رعيّة الحكومة المغربية التي تزعم فرنسة أنَّ لها كيانًا خاصًّا وقوانين خاصّة، فكيف ساغ لها أن تنفي من بلده رجلاً من غير رعيّتها بلا سبب يتعلّق بسلامة مراكش، ولا بسلامة نفس فرنسة؟!

إنَّ الإنسان ليحار عندما يطّلع على أعمال الحكومة الإفرنسية في البلاد الإسلامية التي ابتلاها الله بالاستعمار الإفرنسي. وما هذه إلاّ أمثال مفاريد إنّما أوردتُها لأجل القياس عليها.

ولقد كتب إليَّ مرّة أحد أصدقائي من الصحافيين الإسبانيين، وكانت عنده نزعة ميل إلى العرب، فقال لي إنَّه كان في مدينة الرباط من المغرب وقرأ بعينَي رأسه جريدة فرنسية تدعو إلى قتلي بالصراحة ومن دون أدنى مواربة، وتقول إنَّه يلزم إعدام شكيب أرسلان الحياة لأنه خطر عظيم على المدنيّة اللاتينية. وكان في الرباط كولونيل فرنسي - كيف كان موضوعها يجب منعها ولو لم تكن فيها رائحة السياسة، لأنَّ مجرّد اسمه هو ضرر بفرنسة. وصادف أنَّ السيِّدين أحمد بلفريج ومحمَّد الفاسي، من عيون أدباء المغرب ومفاخر تلك المملكة، نقلا من الإفرنسية إلى العربية كتابًا لجان وجيروم تارو، من كُتَّاب الفرنسيس. وكان هذا التأليف أدبيًّا محضًا، وقد عنَّ للأديبَين المشار إليهما أن يقترحا عليّ تحرير مقدّمة لهذا الكتاب المترجَم، ففعلتُ، وهما قد طبعا الكتاب وانفقا عليه مبلغًا من المال. ولمّا أرادا توزيع الكتاب ودَفْعه إلى المكاتب، اعترض ذلك الكولونيل وحجز الكتاب، فذهبا إليه وسألاه عن السبب في هذا الحجز، فأجابهم: إنَّه من أجل المقدّمة التي فيه من قلم الأمير شكيب أرسلان. فقالا له: "ليس في هذه المقدّمة كلمة واحدة متعلّقة بالسياسة، ولا فيها شيء يمسّ مصلحة فرنسة". فأجابهما: "يكفي للمنع مجرّد ورود اسمه فيه"؛ فانصرفا من عنده خائبَين. ولا يزال هذا الكتاب محجوزًا إلى هذه الساعة،

وربّما بعد انهيار فرنسة هذا يتمكّن الأديبان بلفريج والفاسي من نشر كتابهما المذكور والاعتياض عمّا خسرا عليه من نفقة الطبع.

ـ ينبغي على الجيش الإفرنسي أن يزحف على جنيف للقبض على شكيب أرسلان

وكتب إليَّ أحد أعيان فاس أنه كان مرّة في الرباط، فاجتمع تصادفًا بأحد ضبّاط الفرنسيس، وذكر لي اسمه، فبينما هما في الحديث جاءت سيرة هذا العاجز، فقال له الضابط الإفرنسي:

«عندما تقع حرب أوروبية، ينبغي قبل كلّ شيء أن يزحف الجيش الإفرنسي إلى جنيف ويقبض على شكيب أرسلان... إلخ». فأخذ الوجيه الفاسي يقهقه من رعونة هذا الضابط الذي مثله في رجال الفرنسيس ألوف وألوف. ومن عدّة سنوات، لم تقع بيني وبين أصحابي في المغرب أية مكاتبة إلاّ من طريق أشخاص أجانب ساكنين في أوروبة، ولم يكن في كتاباتي إليهم أقلُّ تحريضٍ على ثورة، ولا أقلّ إغراء بقيام مسلّح، وإنّما كنتُ أعطيهم آراء سياسية ضمن دائرة القانون، وأوصيهم بعدم الخروج عنها. وكذلك مكاتباتي للزعماء الوطنيين في الجزائر وفي تونس ليس فيها شيء يخرج عن الحدود القانونية، وهي في إجمالها أخفّ لهجة بكثير ممّا كنت أنشره بتوقيعي في الصحف العربية وفي مجلّتي «لا ناسيون آراب». ومن أغرب ما وقع لي ـ وهو بحر لا ساحل له ـ مع هؤلاء الجماعة...

ـ سياحتي إلى الأندلس ومنها إلى طنجة وتطوان

إنّني لمّا قمت بالسياحة إلى إسبانية لأجل إكمال تحقيقاتي على الأندلس، وصلت إلى جبل طارق والجزيرة الخضراء، فظهر لي البرّ الأفريقي، وكان بديهيًا أن أحنّ إليه وهو وطن قومي وإخواني، فركبت البحر إلى طنجة بعد أن أتممت معاملة الجواز بواسطة الحكومة الإسبانية. وعندما وصلت إلى طنجة حرصت على عدم التعريف بنفسي حتّى

لا يُقبِل الناس عليّ فيحدث لهم ضرر عند الفرنسيس بسببي، وبتُّ تلك الليلة ولم يعلم بي أحد من أهل طنجة. وثاني يوم أيضًا، بينما أنا في الأوتيل، مرّت أمامه جنازة إسلامية؛ ولمّا كان تشييع الجنائز مسنونًا مشيتُ فيها إلى الجبّانة، وهناك بعد الدفن اشتركت مع الحاضرين بقراءة سورة يس، فعلموا أني غريب وأرادوا أن يتعرّفوا بي، فانسللتُ من بينهم حريصًا على أن لا يعلم بي أحد. ولكنّهم لم يبرحوا يبحثون حتّى عرفوني، فأقبلَت الناس عليّ إلى الأوتيل زرافات ووحدانًا. ووصل الخبر إلى فاس والرباط، فجاء أناس من هنالك أيضًا، وعلم الإفرنسيون بالواقعة وأرادوا إخراجي. ولكنَّ منطقة طنجة واقعة تحت الاشتراك الإداري بين فرنسة وإنكلترة وإسبانية، فلا تقدر دولة منهنَّ أن تطرد أحدًا من تلك المنطقة إلاّ بقرار مشترك من الدول الثلاث. فبادرت فرنسة بالكتابة إلى لندرة ومجريط، وأخذت المسألة عدّة أيام حتّى جاء الجواب بموافقة إنكلترة وإسبانية على إخراجي من طنجة بالقوّة.

وكانت هذه الحادثة على تفيئة إصدار الظهير البربري المقصود به تنصير البربر، فظنّت الدول كلّها أنَّ مقصدي بالسياحة إلى طنجة هو إغراء مُسلِمي المغرب بمقاومة الظهير المذكور. وفي أثناء ذلك، دعاني السيِّد المهدي المنبهي الذي كان وزيرًا للحربية في أيام مولاي عبد العزيز، فذهبتُ إلى قصره البديع المشرف على بوغاز جبل طارق ووجدت هناك السيِّد محمَّد التازي مندوب السلطان في منطقة طنجة، أي والي تلك المنطقة، وإن كانت ولايته اسميّة؛ لأنَّ الإدارة موزّعة بين الفرنسيس والإنكليز والإسبانيول. فتناولنا الطعام عند الوزير المنبهي ودعاني السيِّد التازي إلى الطعام عنده ثاني يوم، فراجعته في ذلك قائلاً إنَّ هذه الدعوة قد تلحق به ضررًا لأنَّ شأنه غير شأن المنبهي؛ فالمنبهي ليس له منصب يخاف عليه، وأمّا هو فشاغل منصبًا رسميًّا يقع فيه تحت مؤاخذة فرنسة. فغلبت عليه الأنفة وقال: «لا بدَّ من ذلك». وعندما انصرفتُ ودَّعني الوزيران المغربيَّان إلى الشارع، فركبت سيّارة المنبهي قاصدًا إلى الأوتيل وإذا ببوليس كان عند بوابة المنبهي، فما تحرّكت بي السيّارة حتّى تقدّم البوليس إلى السيِّد محمَّد التازي وناوله كتابًا، فإذا به من معتمد فرنسة في طنجة يوبّخه فيه بغلظة شديدة كيف أجاز لنفسه الاجتماع بشكيب

أرسلان عدوّ فرنسة. أَفلم يكن يعلم عداوة هذا الرجل لفرنسة؟ ففي الحال استدعى إليه التازي رجلاً لبنانيًّا من كفرشيما اسمه كرم ـ من إخواننا المسيحيين ـ كان يتردّد عليَّ بمقتضى الجامعة الوطنية اللبنانية، فأبلغه بأن يأتي ويخبرني بأنَّ قضيّة الدعوة للطعام عنده يلزم صرف النظر عنها. فما مضت دقائق على وصولي إلى الأوتيل حتى أقبل كرم هذا، فلمّا بصرت به عن بُعد ضحكت وقلت له: «أنا عارف لماذا جئت، فيظهر أنَّ الجماعة اعترضوا على التازي في دعوتي»، فقال لي: «وأيّ اعتراض! وسأخبرك بالتفاصيل». وكان إخواننا في تطوان من المنطقة الإسبانية قد حضروا للسلام عليَّ، وفي مقدِّمتهم فقيد المغرب ونادرة عصره الحاج عبد السلام بنونه، فدعوني إلى تطوان حيث بقيت أربعة أيام، وتلطّف إخواننا هناك فأقاموا لنا حفلة حفيلة اجتمع فيها نحو ثلثمائة من أعيانهم، وخطب فيها عدّة من أدبائهم في مقدِّمتهم سعادة السيِّد عبد الخالق الطوريس، رئيس الحزب الوطني الحالي في المنطقة الخليفية. وأنا أجبتُ عن هذه الخطب وأوضحتُ ما بين الأمّتين العربية والإسبانية من الصلات القديمة ووجوب تضافرهما، وتكلّمت على النهضة الحاضرة في العالم الإسلامي ولزوم أن يقوم كلّ واحد منّا بالواجب عليه نحوها. ولكنّي لم أتكلّم بكلمة واحدة تسوء فرنسة. وكان هنالك عدد من رجالات الإسبانيول ومن الصحافيين منهم، وكلّهم شهدوا بذلك. وهذا لم يمنع الجرائد الإفرنسية أن تنشر ثاني يوم افتراء وبهتانًا أني في تطوان خطبت الجمهور محرِّضًا المسلمين على الحرب المقدّسة، وأني طعنت أمامهم في فرنسة طعنًا مقذعًا، وما أشبه ذلك.

ـ المدعوّ شكيب أرسلان!

ولمّا عدْتُ إلى طنجة قاصدًا الأوبة إلى إسبانية، حيث كنت أريد إكمال تحقيقاتي التاريخية، جاءني إلى الأوتيل بوليس يستدعيني إلى دائرة بوليس طنجة. فذهبت إلى هناك فوجدت اثنين أحدهما اسبانيولي هو مدير البوليس، والثاني فرنسي هو معاونه. فلمّا أقبلتُ دفعا إليَّ بلاغًا من السيِّد محمَّد التازي مندوب السلطان إلى دائرة البوليس يقول لها فيه: «إنَّ المدعوّ شكيب أرسلان الذي هو اليوم في طنجة رجل مهيِّج ينبغي

طرده منها»، ودائرة البوليس تخاطبني طالبة خروجي من طنجة حالاً. وفي بلاغ السيِّد التازي ذكر الحيثيّات التي تخوِّل لكلّ من الدول الثلاث الإفرنسية والإنكليزية والإسبانية طرد مَن تشاء من تلك المنطقة المشتركة. فلمّا اطَّلعتُ على تلك الأوراق رميت بها بكلّ غلظة على المنضدة التي كانت بيني وبينهم، وقلت لمديرَي البوليس: «أنا لست بالذي يقال له المدعوّ شكيب أرسلان، ولست برجلٍ مجهول، ولا أرضى بتحقيرٍ كهذا، وعندي مكاتيب من ملوك وقياصرة ورؤوس متوَّجة يخاطبونني فيها بالأخ. ونفس الحكومة الإفرنسية استدعتني ثلاث مرّات بصورة رسميّة إلى باريس حتّى تذاكرني في القضيّة السورية، فاسترجعوا إذن أوراقكم هذه. فأمّا خروجي من طنجة، فهو مقرّر من قبل أنه سيكون غدًا إن شاء الله في الباخرة الفلانية، حتّى ولو كنتم تدعونني إلى البقاء هنا ما قبلتُ دعوتكم. واعلموا أنَّ هذه المعاملات الشاذّة لا تحطّ من قدري بمقدار ذرّة، ولكنّها تحطّ من قدر مَن يفعلها». فقالا لي: «نحن لم نكتب في بلاغنا إليك "المدعوّ شكيب أرسلان" وإنّما كتبنا "الأمير شكيب أرسلان"، أمّا كتابة التازي مندوب السلطان فيمكنك أن تعترض عليها». فقلت لهم: «أجبروه على التوقيع».

ـ أجبروه على التوقيع

إنَّ السيِّد التازي، المشار إليه، لم يكتب كتابة كهذه حتّى أعترضَ عليها، وهو قد جاءني ودعاني وعانقني واستقبلني بكلّ حفاوة. وإنّما كانت هذه الكتابة من معتمد فرنسة، وهو الذي قد أجبره على إمضائها. فأنا عند وصولي إلى قادس من إسبانية سأكتب إلى معتمد فرنسة الكتابة اللازمة. وقد تحقّقتُ بعد ذلك أنَّ السيِّد محمَّد التازي أُجبر على إمضاء تلك الورقة ـ كما تصوّرت ـ إجبارًا تحت التهديد، وأمضاها وهو يبكي، مع أنَّ السيِّد المذكور من أعظم وزراء الحكومة المغربية. فليفكِّر المفكِّر إلى أية درجة وصل إذلال الفرنسيس لهذه الأمة...

ثمَّ، لأجل إكمال القصّة، أذكر للقارئ أني عندما وصلت إلى قادس كتبتُ إلى معتمد فرنسة في طنجة أقول له: «إلى المدعوّ فلان الفلاني سفير فرنسا في طنجة». ثمَّ أقول له:

«كان ينبغي لي أن أحترم في شخصك الدولة التي أنتَ تمثّلها. ولكن من حيث إنَّ هذه الدولة قد جعلت ممثِّلاً لها رجلاً غير عارف بواجبات الأدب، فقد ارتفع عنّي وجوب احترامها، ولذلك أقابلك بمثل فعلك». ولم أقتصر على إرسال هذا المكتوب إليه، بل أرسلت منه أربع أو خمس نسخ إلى طنجة وتطوان وذلك حتّى لا يمكنه كَتْم إهانته. وقد بلغني فيما بعد أنه انتقم على ذلك ممَّن جاءتهم نسخ كتابي هذا، وممَّن شيَّعوني إلى الباخرة، فألقوهم في السجن مدّة ثمَّ أبعدوا منهم أربعة أشخاص من طنجة إلى تطوان، منهم الوجيه السيِّد مختار حرضان، ولبثوا في تطوان مبعَدين عدّة سنين. وهنا أيضًا مجال لأن ندعو جميع الخلَف أن يفكِّروا كيف يعاشر المغاربة المساكين أهل ذلك المجد القديم والحسَب الصميم هذه الأمّة الفرنسية التي بلغ من رعونة رجالها المسؤولين الإقدام على سفاسف وسخافات كهذه لا يرتكبها الأولاد الصغار. إنّي أرثي لجميع الأمم المقهورة في الدنيا، ولكن لا كرثائي لمسلمي شمالي أفريقيا الذين مَن يمضي منهم إلى ربّه يذهب بدون شكّ رأسًا إلى الجنّة، وذلك من شدّة ما أصابه من عذاب فرنسة في هذه الدنيا. فقد ورد في الأثر ما معناه: «إنَّ مَن استوفى العذاب في هذه العاجلة خفَّ عنه العذاب في الآجلة إن كان عليه ذنوب لا بدَّ من تمحيصه عنها».

ـ النهضة الوطنية في تونس والجزائر

وقد كان كلّ ما ادّعته فرنسا وجرائد فرنسا من اتّهامي بأني أنا المحرّك الوحيد للحركات الوطنية في شمالي أفريقيا كذبًا وبهتانًا، ولو كان ذلك صحيحًا ما كتمته، إذ كان موجبًا للفخر ولنيل الأجر. وأيّ فخر وأيّ أجر أحسن من تحرير أمّة عربية إسلامية من رقّ دولة جائرة أجنبية! ولكنَّ الحقيّة أَوْلى بأن تقال، ولست ـ ولله الحمد ـ في حاجة إلى التمدّح بالباطل. فأمّا في تونس، فقد كان الحزب الدستوري الوطني يعمل من قبله وله تشكيلات منتشرة في جميع المملكة التونسية وذلك قبل أن تكون لي به أية صلة.

نعَم، إنّه في ما بعد صار إخواننا التوانسة يطالعون مجلّتنا «لا ناسيون آراب» بلذّة ويعجَبون بمكافحتها عن الأمم العربية والإسلامية، وصاروا من ذلك العهد يكاتبونني وصرت أُكاتبهم، وصارت جرائدهم العربية والإفرنسية تنقل من مقالاتي في الصحف العربية وفي «لا ناسيون آراب». ومرّة أصدر رئيس ذلك الحزب، السيِّد الحبيب أبو رقيبة، في جريدته الإفرنسية العبارة عددًا خاصًّا بي ضمَّنه ترجمة حياة هذا الفقير إليه تعالى، وذكر من الجملة قول السيِّد جمال الدين الأفغاني لي يوم لقيته في الأستانة، وأنا إذ ذاك في سنّ الثانية والعشرين، وهو تلك الجملة الشهيرة التي لم يرِد - رحمه الله - بها الحقيقة، ولكنّه أراد مجرّد التكريم والتلطّف، وهي: «إنّي أهنّئ أرض الإسلام التي أنبتتك»، هكذا بالحرف. فالتونسيّون لم يحتاجوا في يوم من الأيام إلى هذا العاجز في القيام بحركتهم الوطنية، وإنّما كانوا يستظهرون بشواهد من كلامي. وأمّا في الجزائر، فقد كان البادئ بالحركة الوطنية الحقيقية هو الأستاذ الكبير عبد الحميد باديس ورهطه من العلماء الذين يجرون مجرى المصلح الأكبر أستاذنا الشيخ محمَّد عبده، تلميذ السيِّد جمال الدين الأفغاني. فكان من البديهي أن تكون بيني وبين السيِّد باديس - رحمه الله - صلة روحية بالنظر إلى اتحاد المشرب الاجتماعي والسياسي معًا. وكان الجزائريون يطالعون أيضًا مقالاتنا العربية ومجلّتنا «لا ناسيون آراب» ويُعجبون بها لِما فيها من الدفاع عنهم. وكان يروّجها هناك الأستاذ الوطني السيِّد أحمد توفيق المدني. وفي السنين الأخيرة اضطهدت فرنسا حزب العمّال الجزائري الذي يرأسه السيِّد مصالي الحاج التلمساني؛ وكان هذا ورهطه في باريس يصدرون جريدة بالإفرنسية اسمها «الأمّة»، وكنتُ أُعجب بفصاحتهم وبجرأتهم في ما يكتبونه، ولم يكن لي عهد بأمثالهم في الجرأة على دول الاستعمار بين المسلمين، فصرت أستشهد بكلامهم في مجلّتي «لا ناسيون آراب»، وصاروا ينقلون هم من مقالاتي إلى جريدتهم.

وفي سنة ١٩٣٥، اقترح عليَّ بعض عروات(١) إخواننا المصريين مثل محمود بك سالم وعبد الباقي بك العمري وغيرهما أن أتولّى رئاسة مؤتمر إسلامي - أوروبي أرادوا

(١) من فوّض إليهم الأمر.

عقده في جنيف، وأبوا إلاّ أن أكون على رأس هذا المؤتمر، فلم يسعني إلاّ أن أجيبهم إلى طلبهم هذا. وعند انعقاد هذا المؤتمر، جاءتنا وفود من مسلمي البلقان ومن ألمانيا ومن إنكلترة وبولونيا والمجر وإيطاليا، ولكنَّ فرنسة منعت أيّ مسلم فيها من شهود هذا المؤتمر لمعرفتها أنَّ في فرنسا مائة ألف نسمة من المسلمين من عملة وغيرهم. وكان هذا المنع من جملة غرائب استبداد فرنسة وشذوذها، وذلك لأننا كنّا أعلنّا للحكومة الإفرنسية بأنَّ مؤتمرنا هذا اجتماعي بحت لا شغل له بالسياسة، ولكنّها، على عادتها في العماية والغطرسة، لم ترِد أن تسمع لنا كلامًا. ومع هذا، فإنَّ عصبة مصالي الحاج وإيماش عمر وآخرين جاءوا بالرغم من أوامر فرنسا، متّخذين إلى جنيف طريقًا خفيًّا، وشهدوا المؤتمر وخطبوا فيه. فلمّا بلغ الحكومة الإفرنسية خبر شهودهم المؤتمر الإسلامي-الأوروبي، أمَرَتْ بمحاكمتهم وحكمت عليهم بالحبس سنتين. ففرّ مصالي الحاج إلى جنيف وأقام في جانبي عدّة أشهر، ورأيت من أخلاقه ونزاهته وصلابته وعلوّ مداركه وفصاحته في الخطاب ما لم أجده إلاّ في النادر من المسلمين. ولمّا تشكّلت الوزارة الشعبية في فرنسا، أصدرت العفو عن المحكوم عليهم، فاستفاد من ذلك مصالي الحاج وعاد إلى فرنسا وذهب إلى الجزائر لنشر دعاية حزبه الذي أكثره من العمال، وهو يقول بوجوب استقلال الجزائر عن فرنسا تمامًا، وإن كانت لأهلها إرادة في بقاء علاقة لهم بفرنسا، فيجب أن يكون ذلك بمطلق اختيارهم لا بالرغم منهم. فقبضت عليه فرنسا، وعلى كثير من حزبه، وحكموا عليهم بالحبس سنتَين.

والقارئ يرى هنا أيضًا أني لم أكن أنا البادئ بأية حركة وطنية في المغرب الأوسط، وإنّما وُجِد هناك بيني وبين إخواننا الجزائريين، سواء حزب العلماء أو حزب العمّال توافق في الأفكار والمبادئ، كما أني أستنكر أشدّ الاستنكار مبادئ حزب ابن جلّول في الجزائر - إن صحّ ما يُعزى إليه من القول بأنهم لا يعرفون لأنفسهم أقلّ علاقة بالمدنيّة العربية ويسمّون أنفسهم « بالمسلمين الإفرنسيين »، ويعلنون أنهم لا يعرفون ثقافة غير ثقافة فرنسا... فعساهم بعد هذه النازلة الكبرى التي حلّت بفرنسا ينيبون إلى الصواب، ويعلنون أنَّ البراءة من العربية لا تلتئم مع الإسلام الذي يُظهرون الانتساب إليه.

وأمّا في المغرب الأقصى، فلم أكن أنا أيضًا المؤسِّس للعمل القومي، ولا البادئ بتحريك المغاربة حتّى يطالبوا بحقوق بلادهم. وقد كان مبدأ الحركة السياسية الوطنية عندهم ظهور الظهير البربري المشؤوم الذي قصدَت به فرنسة شقّ الأمّة المغربية إلى نصفَين، والتوصّل إلى تنصير القسم البربري منهما وإدماجه في الأمّة الإفرنسية والكنيسة الكاثوليكية حتّى تأمن، بزعمها، على مستقبل سلطانها في المغرب، وفي كلّ شمالي أفريقيا. وكان إصدار هذا الظهير سنة ١٩٣٠، أي قبل سياحتي إلى الأندلس بشهرين، فثار ثائر أهل المغرب في ذلك الوقت، وبديهي أني أنا كنت من أعظم المشجّعين للمغاربة على مقاومة دسيسة فرنسة هذه الرامية إلى تنصير البربر، وكتبت في ذلك الوقت إلى جمعيّة الشبّان المسلمين في مصر أنبِّهها إلى هذا الخطر العظيم الذي حلّ بإسلام المغرب، والذي يشبه ما جرى من قبل بإسلام الأندلس. وبناءً على كتابتي رفعت جمعيّة الشبّان المسلمين، بفروعها جميعًا، أصوات الاحتجاج على فرنسا، وصدر نداء عام في مصر عليه تواقيع مائة وعشرين شخصًا من أعيان الأمّة المصرية، يتقدّمهم الأمير عمر طوسون، أمين الأمّة الإسلامية، فاحتجّوا بأشدّ العبارات على استعمال فرنسا هذه الطرق الأثيمة المخالفة للحقوق العمومية بين البشر بالتعرّض إلى أمّة البربر الإسلامية، من اثنَي عشر قرنًا، في أمر عقيدتهم، على حين أنها في المعاهدة التي عقدتها مع عبد الحفيظ سلطان المغرب يوم بسطت حمايتها على تلك المملكة، كان أوّل ما تعهَّدت به احترام شعائر الإسلام. ولمّا صدر هذا النداء في مصر ووصل إلى فرنسة، أوجب دهشة عظيمة فيها، وقال بعض الإفرنسيين: «كنّا نظنّ أنَّ الإسلام قد انقصم ظهره بسقوط الخلافة وتحوُّل تركيا إلى دولة لادينية، فإذا بالإسلام لا يزال في قوّته واعتصامه بعقيدته». وأمّا في المغرب، فتوالت مظاهرات الأهلين في المساجد وفي الساحات والشوارع استنكارًا لعمل فرنسا هذا، وذهب وفد من العلماء والأعيان فشكوا هذا الأمر إلى السلطان وبكوا لديه من تلاعب فرنسة بدينهم، ويقال إنَّه بكى معهم. وكان المغاربة قد صبروا صبرًا عجيبًا على جميع ما نابهم من اعتداءات فرنسا التي استأثرت بأحسن أراضيهم، وبمرافقهم، وبمتاجرهم، وبمعادنهم، وبمنابع ثروتهم،

إلى أن وصل بها الأمر إلى الاستئثار بأمورهم المعنوية، والطمع بتحويلهم عن الإسلام من أصله، فعيل صبرهم وثاروا وضجّوا. وقد تحقّق أنه كان لنوجيس هذا اليد الطولى في هذه الدسيسة؛ فقد كان مديرًا للأمور الوطنية قبل أن صار مقيمًا عامًّا. ولمّا اجتمع رجال السلطة الإفرنسية للبحث في قضيّة البربر: هل يضعون مشروعها موضع الإجراء أم لا، انقسموا في الرأي؛ إذ قام بعضهم فقال إنَّ هذه المسألة هي بغاية الخطورة وستقيم علينا قيامة العالم الإسلامي كلّه لأنها متعلِّقة بالعقيدة الإسلامية فالأحسن أن نتوقّف عن إجرائها، وأصرّ آخرون على تنفيذ هذه الفكرة التي هي عندهم مختمرة من زمن طويل. فقال الجنرال نوجيس: «يمكننا أن نطبِّق هذا المشروع في جانب من المغرب، وهو المأهول بالقسم البربري، وسيكون ذلك تجربة نرى ماذا يتمّ منها، ونبني بعد ذلك على هذه التجربة سياستنا في المستقبل». وكانت عبارته بالإفرنسية هذه هي: Cc corait un canp de sonde ومعناها أنها ستكون هذه المسألة نوعًا من سبر غور لهذه القضيّة. ولقد اتَّصل بنا هذا الحديث بطريقة عجيبة، فإنَّ عصبة العمل القومي توصّلت إلى الحصول على نصّ المضبطة التي احتوت على هذه المذاكرة، وفيها جملة الجنرال نوجيس هذه.

- استنكار الرأي العام الإسلامي

وبينما المغاربة يقومون بمظاهرات الاستنكار على هذا العمل الفظيع، وفرنسا تلجأ في قمعهم إلى الحبس والنفي والضرب بالسياط وأنواع الانتقام، إذ انعقد في القدس المؤتمر الإسلامي العام الذي كان المؤسِّس له هو الحاج أمين الحسيني - منقذ فلسطين بحول الله وقوّته - وكان قبل ذلك عندما ذهب إلى لندرة مع غيره من أعيان فلسطين لأجل تلافي المشكلة الصهيونية، وأراد العودة إلى الشرق، عرَّج علينا في سويسرا، فقرّرتُ معه عقد مؤتمر إسلامي عام للمذاكرة في قضيّة فلسطين وقضايا كثيرة الإسلام منها في خطر عظيم، ومن جملتها القضيّة البربرية. فما مضى على ذلك قليل حتّى أنفذ الحاج أمين، المشار إليه، هذه الفكرة بهمّته المعهودة وشهد المؤتمر المذكور مائة وثلاثون مندوبًا من جميع أقطار العالم الإسلامي، ما عدا الأقطار المغربية مراكش وتونس والجزائر؛ وذلك لأنَّ

الحكومة الإفرنسية منعت منعًا باتًا ذهاب أحد من هذه البلدان إلى ذلك المؤتمر. وهذا دليل من ألف دليل على أنَّ فرنسة أفظع عملاً وأشدّ وطأة من كلّ أمّة أوربية على المسلمين مع كونهم جميعًا أعداء لنا وسواسية في القهر. إلاّ أنه وُجِد في دمشق الشام شابّ من آل الكتّاني، فحضر هذا المؤتمر نائبًا عن مراكش، وحضره أيضًا الكاتب الكبير المجاهد الخطير السيِّد مكّي الناصري، صاحب جريدة «الوحدة المغربية» التي تصدر في تطوان؛ فإنَّه كان في القاهرة فذهب إلى المؤتمر وشرح القضيّة البربرية بحذافيرها، وقرّر المؤتمر فيها قرارًا فاضحًا جازمًا أبلغه إلى الحكومة الإفرنسية ولكنّها لم تحفل به. وشهد هذا المؤتمر أيضًا الأستاذ الوطني القديم السيِّد عبد العزيز الثعالبي التونسي الذي كان أيضًا في القاهرة.

ومن ذلك الوقت، تنبّه المغاربة وشرعوا في التماس الوسائل الآئلة إلى تخفيف الضغط الإفرنسي الذي وصل إلى درجة لا تطاق. وجاء منهم إلى سويسرة مَن استشارني في الموضوع، فقلت لهم إنَّه يستحيل عليهم في الوقت الحاضر أن يقاوموا فرنسة بالسلاح، ولكنَّ المحاربة كما تكون بالسيف تكون أيضًا بالقلم. فقالوا لي إنَّ حرّية القول والكتابة ممنوعة في المغرب، وليس هناك جريدة تصدر بالعربية غير جريدة واحدة رسمية تنطق بلسان الحماية، ثمَّ لا يمكن لأحد أن يجتمع بأحد لأجل مذاكرة في مصالح عمومية. فأجبتهم: أمّا من جهة الدعاية والنشر، فهذا لا يكون في نفس المغرب، وإنّما يكون في نفس باريس حيث المطبوعات حرّة ويمكننا أن نعهد بإدارة الجريدة إلى أناس من أنفس الإفرنسيين الأحرار. وهكذا تمّ هذا المشروع الحميد وتولّى المسيو جان لونجيه، أحد زعماء الاشتراكيين ومن نوّاب البرلمان، إدارة مجلّة فرنسية اسمها «مغرب»، وكان نخبة من شبّان المغاربة البارعين، والذين هم من أبناء بيوتات ذلك القطر النبيل مثل أحمد بلافريج ومحمَّد الوزاني وعمر عبد الجليل وغيرهم، يحرّرون هذه المجلّة التي لم يمرّ عليها إلاّ أشهر قلائل حتّى صارت قوّة عظيمة وسلاحًا مرهفًا في أيدي المغاربة، فمنعت السلطة الإفرنسية في المغرب دخولها إلى تلك المملكة وإلى جميع شمالي أفريقيا. ولكنَّ فرنسا لم تقدر على منعها في باريس نظرًا لما يعترض ذلك من قانون المطبوعات وكون مدير الجريدة المسؤول عنها هو فرنسيًا، بل من نوّاب البرلمان الإفرنسي. فبقيت هذه الجريدة

تعمل عملها في الأفكار واضطرّ الإفرنسيون منذ صدورها إلى الكفّ من غلوائهم، والتبصّر قبل الإقدام على ما يريدونه من مشروعاتهم الاستعمارية. ورأوا في هذه الجريدة سيفًا مسلطًا عليهم، ذبابه البراهين القاطعة التي أحدثت في أذهان الإفرنسيين انقلابًا عظيمًا، وصارت الصحف الإفرنسية الاستعمارية كجريدة «الطان» وغيرها تتهمني بأني أنا كنت العامل الأول في تأسيس جريدة «مغرب» هذه، وتوسعني من أجل ذلك قذفًا وطعنًا على عادتها. وفي هذه المسألة كانت تهمة هذه الجرائد لي صحيحة، وأعدّ ذلك من فضل ربّي لأني جرّدت سلاحًا معنويًا قاطعًا لمنع اعتداء الافرنسيين على المسلمين المظلومين. فأمّا زعم تلك الجرائد أني أسَّست جمعية سرّية في المغرب وضممتها إلى الوفد السوري ـ الفلسطيني، وأنه صار وفدًا سوريًّا فلسطينيًّا مغربيًّا ـ Délégation Syro Palestino Magrébien، فذلك لا أصل؛ فإنَّ المغاربة كانت عندهم من قبل تشكيلات خفيّة يكتمون سرّها أشدّ الكتمان. وقد سألني بعض رجال فرنسا عن قضيّة ما يقال من اندماج جمعيّتهم بجمعيّتنا، فأجبتهم بأنه لا يوجد احتياج إلى هذا الإدماج، إذ هؤلاء القوم سواء كان بيننا وبينهم جمعيّة مشتركة أم لم يكن، هم إخواننا، يهمّوننا كما تهمّنا أنفسنا، والإسلام هو الجمعيّة الكبرى لنا فلا حاجة إلى جمعيّة أخرى ولا إلى بروغرام[1] غير القرآن الكريم. وقلت مرّة للمسيو بونسو الذي كان مندوبًا ساميًا لفرنسة على سورية، وقد تلاقينا في جنيف: إنَّ علاقتنا بإخواننا مسلمي شمالي أفريقيا علاقة طبيعية لا يمكن فصم عُراها أبدًا. أمَّا من جهة مصيرهم السياسي، فليس لنا أن نرشدهم أو أن نعيّن لهم خطّة يسلكونها لأنهم راشدون كما نحن راشدون، وهم أولياء أنفسهم في هذا الأمر يختارون منه ما يحلو لهم؛ فإن اهتدوا فلأنفسهم، وإن ضلّوا ـ لا سمح الله ـ فعلى أنفسهم. ولكن إذا وصلت المسألة إلى العقيدة الإسلامية واللغة العربية، فإنّنا حينئذٍ نقوم قومة الرجل الواحد لأجل تأييدها ومقاومة أية دولة تريد الغضّ منهما؛ فإنَّ هذا من الحقوق العمومية، وإنَّ المدافعة عن حرّية العقائد واللغات والثقافات مبدأ مقدّس يجب الدفاع عنه على كلّ البشر، بل أقول أكثر من هذا وهو إنَّه لو وُجِدت حكومة إسلامية في الأرض تريد حمل فئة من المسيحيين على اتخاذ الإسلام دينًا بوسائل قسرية أو بوسائل أخرى غير مشروعة

(١) Programme.

وجب على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يقوموا قومة الرجل الواحد لمنع هذا الأمر، وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿لا أكراه في الدين قد تبيَّن الرشد من الغيّ﴾. ولقد كنت في الحرب العامّة مبعوثًا عن سورية في مجلس الأمّة العثمانية، فصادف مجيء الأرمن المهاجرين إلى سورية أثناء وجودي في الشام، وترامى إليّ خبر ضئيل بأنَّ بعض مأموري الدولة يريدون الضغط على بعض هؤلاء المهاجرين حتّى يدينوا بالإسلام. فما سمعت بهذا الخبر حتّى ذهبت إلى الوالي، وكان اسمه خلوص بك، فأخبرته به وقلت له إنَّ عملاً كهذا، فضلاً عن مخالفته للشرع الإسلامي، مخالف أيضًا للحقوق الدولية ولمصلحة الدولة العثمانية. ففي الحال أبرق إلى جميع الألوية والأقضية بأنَّ كلّ أمر من هذا القبيل يعاقب عليه بأشدّ الصرامة.

إنّنا ما أوردنا هذه الأماثيل من أعمال فرنسة بحقّ المسلمين إلاّ ليُقاس عليها غيرها ممّا يجري من حكومتها يوميًّا، فإنَّه بأجمعه على هذا النمط. ولذلك يقول الإنسان، ولا يخشى لومة لائم، إنَّ كلّ مصيبة في الدنيا هيّنة في جانب سيطرة فرنسة التي لا تقبل في أوامرها جدالاً ولا نقاشًا ولا حوارًا ولا صرفًا ولا عدلاً، بل جميع سياستها ـ بإزاء المسلمين خصوصًا ـ مبنيّة على مبدأ ذلك النحوي القائل «إي كذا خُلِقَت». ويا ليت شعري لو أردنا الإستقصاء من هذا البحر وإيراد الشواهد لحفيت الأقلام وجفّت المحابر وامتلأت المجلّدات ولم نصل منه إلى أقلّ جزء. ولا شكّ في أنهم تمادوا في شمالي أفريقيا ما لم يتمادوه في سورية من الظلم والقهر والجبروت، ولكنَّ الذي فعلوه في سورية من الظلم والطغيان هو وحده كافٍ أن يملأ كتبًا كثيرة الورق. ولعلّ السوريين يفطنون إلى هذا الأمر، فيُخرجون فيه تآليفَ تكون عِبرة لأولادهم وأحفادهم حتّى يعلموا ماذا ينتظرون من النوائب الثقال إذا انبسط من فوقهم ظلّ فرنسة. ولقد أنعم الله في هذه النوبة بهذه الهزيمة التي انهزمتها فرنسة أعظم ما كانت أملاً في الانتصار، وأشدّ تأكيدًا للناس بأنَّ الظفر النهائي هو في قبضة يدها. فجاءها من عقاب الله على مظالمها ما لم يكن في حسابها، وانكسرت كسرة شنعاء هي أعظم كسرة عرفها التاريخ، فأسلس قيادها، وذهب عنادها، وتولّى نفورها، وذلّ بعد شماسه يعفورها، وجاءت إنكلترة تمنّيها الأماني وتَعِدُها

بالنصر النهائي إذا استمرّت على القتال. والحال أنَّ إنكلترة هي نفسها في وجَل شديد ممّا سيأتي عليها، وقد عرفت فرنسة في آخر الأمر وبعد خراب البصرة كما يقال، أنها ذهبت فريسة مطامع إنكلترة؛ فأمّا ما يسمع القرّاء من أنَّ الجيش الإفرنسي في سوريا لن ينقاد إلى المتاركة ولن يبرح سوريا، فهذا يقال له في العربي "كلام فارغ" إذ إنَّ سورية ولبنان سترتفع عنهما سلطة فرنسة وسيكونان لأهلهما، وسيعلم الإنكليز، كما علم الفرنسيس، أنهم سينالون جزاءهم ﴿ ولا تجزون إلاّ ما كنتم تعلمون ﴾. ولقد مضت عشرة أشهر وهم ينادون الناس في العشي والإشراق أنهم غالبون ظافرون، فتجلّت الحقيقة لكلّ ذي عينين وصاروا مصداق قوله تعالى: ﴿ فوقع الحقّ وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾.

جنيف، ٢٥ حزيران

شكيب أرسلان

زعيم يرثي زعيمًا

كلمة عطوفة الأمير شكيب أرسلان بفقيد الأمّة العربية الدكتور عبد الرحمن شهبندر

إنَّ الاغتيال في حدّ ذاته أمر فظيع أيًا كان موضوعه، فكيف إذا كان ضحيّة هذا الاغتيال أحد أعلام الأمّة العربية كالدكتور عبد الرحمن شهبندر الذي اغتالته أيدٍ أثيمة في دمشق؛ وتدلّ الأخبار الواردة من هناك على قرب انكشاف الستار عليها؟!

ولقد كان للدكتور شهبندر ـ عفا الله عنه ـ أغلاط كثيرة وقد تكون جسيمة. وكان يعطي ـ رحمه الله ـ للمسائل الشخصية جانبًا كبيرًا من وقته، وقد يتجاوز على أناس لم يسبق لهم بحقّه إلاّ الثناء الجميل ممّا ليس الآن موضع ذكره. ولكن مَن ذا الذي ما ساء قط؟ ومَن له الحسنى فقط؟ ومَن ذا الذي ترضي سجاياه كلّها؟ ومن هذا الذي لا يجد العيب إليه مختطى؟ وكيف كان الأمر، فإنَّ الحسنات يُذهبْنَ السيِّئات، كما قال الله تعالى. ومَن هذا الذي يماري في حسنات المغفور له الدكتور عبد الرحمن شهبندر وفيما أوتي من نبوغ وعبقرية، ويجادل بأنه لم يكن من مفاخر الأمّة العربية في عقله وعلمه وفصاحته وبلاغته؟ ولقائل أن يقول: "لعلّ هناك أسبابًا نجهلها أوجبت هذا الحادث الأليم"، والجواب عنه أنَّ كلّ إنسان يتمنّى كشف سرّ هذه الجناية ومعرفة مَن دبّروها، ولكنّي لا أعتقد أنَّ الدكتور شهبندر، وإن بدرَت منه خطيئات كثيرة، يصل به الخطأ إلى خيانة وطنه. كلاّ، هذا يصعب تصديقه إلاّ ببرهان لا يقبل الردّ.

ولقد أراد الصهيونيون، ومَن في خدمتهم من العرب الذين اتخذهم الاستعمارُ الأجنبي مطاياه، أن يجعلوا لهذا الحادث مصدرًا سياسيًّا يستغلّونه لمآربهم. وكتب إلى جريدة "دايلي تلغراف" الإنكليزية من القدس كاتب يسمّى المستر مارتون، قرأتُ ترجمة

رسالته في جريدة الأهرام، وذلك أنَّ هذا الاغتيال كان من عمل النازيين الذين لهم مركز في طهران، وكانوا يقومون بدعاية واسعة النطاق ضدّ دول الحلفاء، وذلك في البلاد العربية والعراق ودمشق. ثمَّ جرَّ الكلام إلى محرّر هذه السطور وإلى المفتي السابق ـ أظنّه يعني الحاج أمين الحسيني ـ وزعم أني الآن مقيم ببرلين. وكلّ مقصد هذا الصهيوني الخبيث أن يذكر أسماءنا، ولو بالمناسبة في هذه الحادثة، لأجل توسيع الفساد. فعسى أن تنجلي حقيقة هذه المؤامرة وتقبض الحكومة على الفاعلين والمدبّرين، وتفتضح دسائس اليهود وسماسرتهم التي هذه ليست بأُولى دسائسهم ولا بآخرها. والله يعلم أننا تألّمنا جِدّ الألم لهذه الفاجعة واستنكرنا هذا الاغتيال الشنيع. ونسأل الله للفقيد العفو والغفران، وأن يفرغ الصبر على أهله وأولاده وإخوانه.

جنيف، في ٢٤ تموز

شكيب أرسلان

❁ ❁ ❁

الإنكليز يهيّجون المسلمين على إيطاليا

وهم هم الذين وضعوا إيطاليا حيث هي...

من أغرب حوادث الدهر أنَّ إنكلترة طفقت اليوم تستعدي المسلمين، وبخاصّة العرب، على إيطاليا، وتبيّن لهم الخطر الذي يحيق بممالكهم الباقية لهم - لأنه بفضل إنكلترة لم يبقَ لهم على الاستقلال إلاّ شيء قليل - فيما إذا كانت دولتا المحور تحرزان النصر على إنكلترة بصورة نهائية.

تبدي الجرائد الإنكليزية وتعيد في هذا الموضوع، وتقرأ لها كلّ يوم مقالات في ما يستقبله المسلمون من البلاء العظيم والخطر المستطير فيما إذا تغلّبت إيطاليا على إنكلترة في الشرق. وتسمع مذياع لندن العربي يعيد ويصقل هذه الأطروحة كأنّها شيء جديد.

وأكثر ما يخوِّف الإنكليز من المسلمين أهل مصر الذين يقولون لهم دائمًا: "إن انكسرنا نحن، ذهبت مصر ولم يبقَ لكم كيان أيها المصريّون".

ثمَّ يقولون لعرب فلسطين: " أفلا ترون الطليان يطالبون بالاستيلاء على بيت المقدس؟".

ثمَّ يخاطبون أهل جزيرة العرب قائلين: "إن غلبت إيطاليا على الساحل الغربي من البحر الأحمر، انتقلت منه إلى الساحل الشرقي".

ويحرّكون عرب طرابلس الغرب قائلين لهم: "هذا زمان أخذكم بالثأر، أفلا تنهضون؟ إنّكم إن نهضتم وجدتم إنكلترة من ورائكم".

ويقولون لمسلمي السودان والحبشة والصومال: "إنَّه إن فازت إيطاليا في هذه الحرب لاقَ بكم أن تدفنوا آمالكم بنهضة إسلامية في شرقي أفريقية".

ولعمري، لو وُجِد من المسلمين مَن يجرؤ أن يصارح الإنكليز بالحقائق ويسمّي الأشياء بأسمائها، لكان يجب أن يقول لهم: مَن ذا الذي، يا أيها الأفاعي، جاء بإيطاليا إلى بلاد الشرق؟ ومَن كان الغارس لها في بلادنا؟ إنّنا إن تأمّلنا في مصائب الإسلام وجدنا أصلها وفصلها منكم، وما ثارت في أرضنا عجاعة إلاّ كانت إثارتها بأصابعكم. أتظنّون المسلمين جاهلين بأجمعهم تاريخ هذه المصائب؟

مَن الذي أنزل إيطاليا في طرابلس الغرب؟ أفليست إنكلترة بالاتّفاق مع فرنسا، عندما قامت إيطاليا تقول لإنكلترة وفرنسا: « قد تقاسمتما أفريقية كلّها، وأطلعتماني بلا حصّة »، كانت هي وفرنسا المحرّضتَين لها على أخذ طرابلس والعاقدتين معها اتفاقًا خاصًّا بهذه المسألة، فشنّت إيطاليا الغارة على طرابلس فجأة وكانت على الإسلام تلك المصيبة التي ولّدت عدّة مصائب؟!

وما اكتفت إنكلترة وفرنسا بإقطاع إيطاليا من أملاك المسلمين بلاد طرابلس وبرقة حتّى كانتا تبذلان جهدهما في منع المسلمين الذين تحت حكمهما من تسرّب الإعانات لإخوانهم الطرابلسيين.

وعندما طالبت إيطاليا بالاستيلاء على واحة الجغبوب التي حقّها أن تكون من الأراضي المصرية، كانت إنكلترة هي الحاكمة لها بها القائلة إنَّ الجغبوب يجب أن تتبع برقة، وهكذا كان.

أَفلم تكن بلاد الأريترة[1] تابعة لمصر وكانت في قاعدتها مصوع حامية مصرية؟ فمَن ذا الذي قطع الأريترة عن الأيالة المصرية وأنزل الطليان في مصوع وطرد منها المصريين؟ أَفلم تكن إنكلترة بعينها ومينها؟

أرادت إنكلترة أن تمحو قوّة مصر العسكرية، فبدَّدت لها جيشها وتركت لها شبه جيش ثمانية آلاف عسكري تحت قيادة ضبّاط إنكليز وأسلحتهم في ثكن الإنكليز. وأرادت أن تقطع روابطها الإسلامية التي تستظهر بها على الأجانب، فسلخت عنها

---

(١) أريتريا.

السوداني المصري وجعلت السودان هذا القطر الإسلامي العظيم بلدًا أجنبيًا عن مصر لا يقدر المصري أن يغشاه إلاّ كما لو غشى بلدًا من أوربا. واحتلّت هي السودان المصري وبلاد الأوغاندة وجعلتها من مستعمراتها الخاصّة. واقتطعت عن مصر بلاد الأريترة وقدّمتها هديّة إلى إيطاليا كما هو معلوم عند الجميع. وكانت تتبع مصر مملكة هرر الإسلامية، كما هو معلوم أيضًا، فأغرت إنكلترة النجاشي منليك أن يفتحها، فغزاها واستباح حماها قتلاً ونهبًا ودخل مدينة هرر، تلك العاصمة الإسلامية العامرة ذات المساجد والمدارس، فذبح الأحباش من أهلها خمسة آلاف رجل ووضعوا أيديهم على الأوقاف الإسلامية وحوّلوا المسجد الأعظم كنيسة، وفعلوا بهرر وسائر الصومال الأفاعيل؛ وكان كلّ ذلك بتحريض الإنكليز.

وأقطع منليك سلطنة هرر الإسلامية، التي لم تكن لها أدنى صلة بالحبشة، الرأس مالكونين والد النجاشي طفري الذي استولت إيطاليا على الحبشة في زمانه، ولمّا مات، خَلَفَه طفري ابنه، وكان لطفري هذا من الأعمال الوحشية بحقّ المسلمين الصوماليين ما لا يزال في الأذهان. وفي أثناء الحرب العامّة، قتل منهم مقتلة عظيمة عدّة آلاف. وكان ذلك أيضًا بإغراء الإنكليز إذ كانوا قد آنسوا من الصوماليين ميلاً إلى تركيا وألمانيا يومئذٍ.

ومَن ذا الذي ساعد إيطاليا على افتتاح الصومال الإيطالي وتخلّى لها عن قطعة من الصومال الإنكليزي؟ أفليس الإنكليز أنفسهم؟ كلّ هذا كانت إنكلترة تعمله عمدًا وتدبّره عن تصوّر وتصميم صدعًا لوحدة الإسلام، وخضدًا لشوكته، وتقليمًا لأظافر مصر مركز الإسلام في أفريقية.

والآن، في إبّان هذه الحرب الطاحنة التي إنكلترة بها في برزخ بين الحياة والموت، إذا سُئلت إنكلترة هلْ تفضِّل بقاء حكم إيطاليا، عدوّتها الحاضرة، على هذه الممالك الإسلامية أم رجوعها إلى حكم إسلامي مستقلّ؟ كان تفضيلها أن تأخذها إيطاليا، برغم العداوة والحرب الضروس، ولا تعود إلى الإسلام. هذه هي الحقيقة التي تنطوي عليها إنكلترة في ذات صدرها، وإن اجتهدت أن تخدع اليوم المسلمين بإظهار عكسها، ما أحد يعمل بمبدأ «ما يأخذه الصليب من الهلال لا تجوز إعادته إلى الهلال» مثل إنكلترة.

ثمَّ أعود فأقول: قد تكون إنكلترة لا تجمجم في صدرها، إذ لا تحسب للمسلمين كلّ هذا الحساب. أَفلم يصرّح ملك الإنكليز على رأس سنة ١٩٤٠ أنَّ إنكلترة وحلفاءها يحاربون لأجل تأييد المسيحية؟ أَفلم تجاوبه مجلّة « نور الإسلام » التي هي لسان الأزهر قائلة إنَّ السلطنة البريطانية في الدنيا ليس فيها إلاّ ١٢ في المائة مسيحيّون؟

أَفلم يعد هذا الكلام نفسه المستر هاليفاكس، ناظر الخارجية البريطانية، من عهد قريب؟

أَفلم تمنع إنكلترة وعّاظ المسلمين في السودان والأوغاندة من دخول ديار الزنوج الوثنيين، وأباحت ذلك للمبشِّرين بالنصرانية دون دعاة الإسلام؟ وأوجب ذلك احتجاج المسلمين في الجرائد، وأوجب استنكار الأمير عمر طوسون في كتاب بعث به إلى علي ماهر باشا ونشرته الصحف. وكلّ هذا لم يزحزح الإنكليز قيد شعرة عن خطّتهم هذه.

أيحقّ لمثل إنكلترة أن تبيّن لعرب فلسطين الخطر الذي يتعرّضون له إن استولت إيطاليا عليهم؟ نحن لا ننكر أنَّ استيلاء إيطاليا وكلّ دولة أوروبية على بلاد إسلامية هو خطر على المسلمين، ولا نرضى أصلاً أن إيطاليا تأخذ شبرًا من فلسطين. ولكن كلّ أخطار أوروبا على الإسلام لا تُقاس في كثير ولا قليل بالخطر البريطاني... وكلّ السموم هيّنة في جانب سمّ تلك الأفاعي... إنَّ إيطاليا لا تضيف إلى مصيبة استيلائها مصيبة استيلاء اليهود. أمّا الأفاعي، فيمتازون بأنَّ مصيبتهم مزدوجة: استيلاؤهم واستيلاء اليهود معًا، فتخرج فلسطين من أيدي العرب بتاتًا. ولهذا صدق في البريطانيين قوله تعالى: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾.

جنيف في ٢٢ آب ١٩٤٠

شكيب أرسلان

مسألتا سورية وفلسطين

نقول اليوم للحلفاء: الصيف ضيّعت اللبن

قرأنا في الجرائد الواردة إلينا من مصر، المتواردة كلّها على نغمة واحدة تحت تأثير الضغط الإنكليزي، أنَّ حكومتَي العراق ومصر لا تزالان تتوسّطان لدى دولتَي فرنسا وإنكلترة في حلٍّ نهائي لقضيّتي سورية وفلسطين، وأنَّ المفاوضات جارية في هذا الموضوع.

فإن كانت هذه الأخبار صحيحة، فإنّنا نبادر إلى إعلان هاتين الحكومتين العربيتين ما يلي:

إن كان المقصود في هذه الوساطة إقناع فرنسا بعدم تنفيذ حكم القتل الذي حكمت به محاكمها العسكرية على سبعة من شبّان سورية الأحرار، فلا شكّ أنه نِعم العمل. وكذلك إلغاء الحكم الذي صدر في محاكم فلسطين العسكرية على عدد غير قليل من مجاهدي فلسطين بالقتل، فهذا كلّه يليق بحكومتَي مصر والعراق أن تهتمّا به وتبيّنا لتينك الدولتين المتلبّستَين بالديمقراطية أنَّ أحكامًا كهذه في وقت كهذا هي بعيدة عن الحقّ والمصلحة معًا.

فأمّا أن تكون مساعي حكومتَي مصر والعراق لدى الحلفاء لأجل حلّ مسألتي سورية وفلسطين، فهذا ما نعترض عليه أشدّ الاعتراض، ونظنّ أنَّ إخواننا الوطنيين الحقيقيين ـ لأنَّ هناك وطنيين كذبة مرائين كما لا يخفى ـ الذين يمثّلون السواد الأعظم من أهالي القطرين اللذين هما قطر واحد، يوافقوننا على توقيف كلّ حلٍّ للقضيّة السورية وللقضيّة الفلسطينية، وذلك إلى أن تنتهي الحرب الحاضرة.

أمّا المسألة السورية، فكنّا ـ نحن السوريين ـ رضينا مع فرنسا بمعاهدة سنة ١٩٣٦، لا لإعجابنا بها ولا لاعتقادنا أنها تنيلنا أمانينا، والله يعلم أنه لدى هاشم بك الأتاسي، الذي كان على رأس الوفد المفاوض لفرنسا في باريس، مكاتيب متعدِّدة منّي أقول له

فيها إنَّ عدم المعاهدة على هذه الشرائط[1] هو خير من المعاهدة. ولكنَّ إخواننا يومئذ توصّلوا إلى أن فتحوا في المعاهدة بابًا يتمكّن به السوريّون من إكمال نواقص المعاهدة فيما بعد. ووجدوا أنَّ عقد المعاهدة، ولو ناقصة، خير من العودة إلى سوريا على غير اتِّفاق مع فرنسا. وظنّوا في الإفرنسيين شيئًا من الخير ووقّعوا على العهد. وأنا الفقير إليه تعالى لم أشأ حينئذٍ الوقوف موقف المعارض حتّى لا يتّهمني المتّهمون الذين ليس لهم شغل سوى الافتراء بأنني قصدت إحباط الاتِّفاق بين فرنسة وسورية تنفيذًا لمآرب ألمانية وإيطالية اللتَين لا يوافقهما بالبداهة اصطلاح سورية مع فرنسة.

ولكن، عندما جاء إخواننا، الوفد المفاوض، من باريس إلى جنيف لوداعنا في طريقهم إلى سورية، وأدبنا لهم مأدبة حافلة حضرها سفراء وأعيان، كانت أوّل كلمة منّي أمام ذلك الجمع: «إنّنا نرجو بحسن التفاهم مع فرنسة إكمال النواقص التي لا تزال في المعاهدة المنعقدة بيننا وبينها، وإننا سنحافظ على الموالاة لفرنسا ما دامت هي محافظة على موالاتنا، وليس هذا إلاّ طبيعيًّا بين الأمم. وهل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان؟!». ثمَّ قلت: «إذا كانت فرنسا ستترك العمل بهذه المعاهدة، فإنّنا نحن نكون في حلٍّ ممّا تعهّدنا به لها من المحالفة، والله تعالى يقول: ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾ »، وهذا هو فصل الخطاب في هذا الموضوع.

فمن المعلوم أنَّ فرنسة نكثت بالمعاهدة المذكورة للسنة الثالثة من عقدها، وأعادت سورية تحت الانتداب كما كانت، وفضّت مجلس النواب السوري الذي قرّر باتِّفاق الأصوات جميعها إلغاء الانتداب واستقلال سورية التام. وكان نقض فرنسة لمعاهدتها هذه بعد توقيع حكومتها عليها مرتين، وبعبارة أخرى لم تستقم فرنسة للسوريين، إذن فليس لها حقّ مطالبتهم بأن يستقيموا لها. فمعاهدة ١٩٣٦ بين فرنسة وسورية نحن نعدّها في حكم المنقوض الذي عاد كأن لم يكن. وقد سبق كوننا نصحنا لفرنسة بالرجوع إلى الصواب وتصديق المعاهدة، جاعلين من ذلك شرطًا غير منفكٍّ في عودة المياه إلى مجاريها. وأعدنا ذلك مرارًا حتّى نبيّن للناس فظاعة عمل أولئك المتزعّمين

(١) الشروط.

من أهل سورية المتزلّفين لفرنسة، بل لنثبت خيانتهم لوطنهم في مظاهرات قاموا بها لفرنسا من دون قيد ولا شر، وذلك لأجل أن ينالوا الحظوة عندها، ولأنهم كانوا يعتقدون أنَّ الجبال تزول وأنَّ حكم فرنسة لا يزول عن سورية. فأمّا نحن، فلم نكن نفكّر أصلاً، هل يزول حكم فرنسا من سورية أو لا يزول؟ وهل فرنسة من القوّة والمنعة بحيث لا يحوم خيال الفكر فوق أقلّ شبهة بأنها ستكون هي الغالبة أبدًا وأن ليست فرنسا بتلك الدرجة من القوّة؟ فهذا لم يكن بيت القصيد عندنا، بل كنت واضعًا نصب عينَي: هل سورية في طلب استقلالها هي على حقٍّ أم لا؟ فإن لم تكن على حقّ في هذا الطلب، فلا يبقى من أمم الدنيا إلاّ قليل يكون لهم الحقّ في المطالبة باستقلالهم وسلطانهم القومي. وإن كانت سورية على حقّ في طلبها هذا، فلا يهمّني بعد ذلك هل فرنسة قادرة على كلّ شيء أم ليست بقادرة على كلّ شيء، بل كنت معتقدًا أننا من حيث كان طلبنا حقًّا صريحًا، فنحن أقدر في حقّنا من فرنسة في باطلها، وأنها مهما غالبتنا بالقوّة فلا بدّ في آخر الأمر من أن تكون لنا الطائلة النهائية.

على أني كتبت مرارًا أنَّ الحقّ هو شيء سرمدي لا يفنى بمرور الزمن ولا يعبث ذوي الشوكة به. ولكنَّ القوّة، مهما كانت عظيمة، فقد تعدو عليها عوادٍ وتطرأ طوارئ تفتّ في عضدها وأحيانًا تلاشيها. وذكرتُ مرّة في جريدة «العهد الجديد» أنه إن كانت فرنسا دولة عزيزة قوّية اليوم، فليست هي بسرمد، ولا هي قادرة على كلّ شيء. وقد جاء الوقت الذي تحقّق فيه كلامي هذا وأصبحت فرنسة تجاحش عن خيط رقبتها في عقر دارها، باريس، أمام عدوٍّ صار في يده نحو مليون وثلثمائة ألف أسير من جيوش فرنسة وإنكلترة وحلفائهما، غير داخل في ذلك السبعمائة ألف أسير الذين أخذهم الألمان بعد انهيار بولونيا. وعلى أيّ الأحوال، لو كانت المعاهدة الإفرنسية ـ السورية جامعة لكلّ المحاسن، وقد نقضتها فرنسا من جهّتها، فقد صار من العبث أن نستمسك بها، لأنَّ أحد الطرفين المتعاقدين، وهو الطرف الأقوى، قد رجع عن عهده، فأصبح العهد في خبر كان. فكيف وقد كان هذا العهد من أصله ناقصًا معلولاً؟! فنحن اليوم أجدر الناس بنقضه وبالنظر إليه كأنه عهد لم يبرم. فإن كان علي ماهر باشا الذي لا

نشكّ في حميته وإخلاصه، أو نوري باشا السعيد، مثابرَين على السعي في حمل فرنسة على تصديق هذه المعاهدة، فإنّنا نعلنهما بأننا لا نعرفها ولا نتقيّد بها ولو عادت فرنسا إلى الاعتراف بها والتقيّد بموجبها. إنّنا لا نعاهد مَن لا يحترم إمضاءه، ومَن يوقّع مرّتين على عهد شهير، ويحتفل بذلك العقد ويأدب من أجله المآدب، ثمَّ يعود، عندما تلوح له الفرصة، فينقض عهده بلا حياء ولا خجل، **ولا يُلدغ المؤمن من جُحر مرّتين**.

هذا ما كان من أمر سورية. فأمّا ما كان من أمر فلسطين، فمن المعلوم أنَّ المؤتمر الذي عقدته إنكلترة في لندن وأطلقت عليه اسم المؤتمر الفلسطيني، ودعت إليه الحكومات العربية، هذا قد انتهى بلا نتيجة حاسمة، وبقيت المسائل التي جرى فيها البحث يومئذ معلّقة قد اعترض عليها العرب اعتراضًا شديدًا ولم يقبلها اليهود أنفسهم. ثمَّ لمّا بدأ شبح الحرب يتجسّم أمام عينَي إنكلترة وبدأت تخاف مغبّة غيظ العرب، عادت تراسل الحكومة المصرية والحكومات العربية الأخرى في إقناعهن بمشروع أوضحته في بيان أطلقت عليه اسم "الكتاب الأبيض". وهذا المشروع هو أن يكون العرب في فلسطين ثلثَي الأهالي ويكون اليهود الثلث، وتتأسّس حكومة وطنية فلسطينية على هذه النسبة، ويكون المندوب السامي البريطاني هو صاحب الأمر والنهي من فوق هذه الحكومة. ويصير العمل بهذا المشروع على سبيل التجربة مدّة عشر سنوات أو خمس سنوات، فإن رأت إنكلترة نجاح هذه التجربة، جعلت المشروع نافذًا ومضت فيه بصورة قطعيّة، وبعكس ذلك إن كانت هذه التجربة غير ناجحة في نظرها؛ هذه خلاصة الكتاب الأبيض المذكور. فالعرب احتجّوا عليه ورفضوه، وبعد أخذٍ وردٍّ ارتضى به الحاج أمين الحسيني، مفتي القدس، واللجنة العربية العليا، وذلك على شرط أن يكسب هذا المشروع الصفة القطعيّة مذ اليوم، ويتسلّم عرب فلسطين ثلثي حكومة بلادهم من دون تأخير، ولا يكون لإنكلترة فيما بعد حقّ الرجوع عن هذا المشروع وتَكْفَله مصر وسائر الممالك العربية. ووقفت المفاوضات عند هذا الحدّ لا تتقدَّم ولا تتأخَّر.

ولمّا نشبت الحرب الحاضرة وملأ الحلفاء جيوب الصحافيين والكتّاب والأدباء بالنفحات المالية التي اشتروا بها ـ مع الأسف ـ كثيرًا من الضمائر في الشرق، إلاّ ما رحم

ربّي، أخذت هذه الجرائد تُطبِّل وتُزمِّر بقرب انحلال المشكلة الفلسطينية، وتزعم أنَّ إنكلترة قرّرت إجابة مطالب العرب، وما أشبه ذلك من الأقاويل الفارغة التي كانوا يقصدون بها مجرّد الزلفى إلى الحلفاء. فاضطرّ الحاج أمين الحسيني ـ الذي، لله تعالى، ثمَّ له الفضل في بقاء فلسطين للعرب ـ أن ينشر منذ سبعة أو ثمانية أشهر بلاغًا صريحًا التزمت الصحف المصرية أن تقبله برغم المراقبة الشديدة على الجرائد، ومعناه أنَّ المفتي المشار إليه واللجنة العربية العليا لم يتّصلوا بأيّ اقتراح من تلك الاقتراحات الموافقة لمطالب العرب آتيًا من قِبَل الحكومة البريطانية، وأنَّ كلّ أقاويل الجرائد في هذا المعنى لا نصيب لها من الصحّة.

فهذه كانت حقيقة الحال، وربّما يوجد من الصحافيين من لم يبع ضميره بدراهم معدودة، ولكنّه صدّق كلام الصحف المأجورة فنقل عنها بدون تثبُّت. وكيف كان الأمر، فإنَّ المسألة الفلسطينية بقيت غير محلولة ووقفت عند الحدّ الذي أشار إليه الحاج أمين الحسيني ورهطه الممثلون لعرب فلسطين.

وبناءً على ذلك، نقدر أن نعدّ مشروع «الكتاب الأبيض» غير موجود أصلاً، كما نُعدّ المعاهدة السورية ـ الإفرنسية غير موجودة أصلاً.

ثمَّ إنِّي كنت من خمس سنوات نشرتُ في الصحف أنَّ العرب يجب عليهم أن يقرِّروا لأنفسهم برنامجًا للعمل لا يعلّقونه بأحوال يظنّونها أبديّة، وهي في الواقع مؤقّتة، وأنَّ هذا البرنامج يجب أن يكون عدم الاعتراف بدخول اليهود الغرباء الذين أوطنوا فلسطين من بعد الحرب العامّة، كائنًا من كان منهم، لأنَّ هؤلاء اليهود إنّما نزلوا بفلسطين بالرغم من أنوف أهلها، وبالرغم من أنوف الأمّة العربية جمعاء؛ وما أنزلهم إلاّ الإنكليز تحت حراب بنادقهم. فهؤلاء يجب عدّهم في نظر العرب غرباء مهما كان عددهم كثيرًا، ولا يجوز أن يُعَدّ من أهل فلسطين من اليهود غير الذين كانوا فيها قبل الحرب العامّة، وكانوا معدودين من أهل فلسطين، وهم في ما أحزر نحو من ثمانين ألف نسمة. أمّا الثلثمائة ألف الذين أدخلتهم إنكلترة برغم آناف الأمّة العربية، فيلزم النظر إليهم كغرباء. وسيأتي وقت يصير إخراجهم فيه من فلسطين، وما ذلك على الله بعزيز.

جنيف **شكيب أرسلان**

اقتراح وطني على الجالية العربية
في المهجر ينبغي أن تتبصّر به من الآن

اتّفقت الكلمة على أنّ هذه الحرب التي لا تزال رحاها دائرة إلى الآن، كيفما كانت نتائجها من جهة أيّ الفريقَين سيكون غالبًا وأيهما سيكون مغلوبًا، ستكون لها نتائج سياسية عامّة في أقصى درجة من البال؛ وقد تكون لها نتائج اقتصادية واجتماعية أيضًا لا تخطر بالبال. ولذلك نجد كثيرين من المفكّرين في أوروبا ـ مع معرفتهم بأنّ المعركة الفاصلة بين ألمانية وإنكلترة لم تقع حتّى هذه الساعة ـ يدعون أبناء أوطانهم إلى التحفّز، ويُهيبون بهم إلى التهيّؤ ليستقبلوا الانقلاب الخطير الذي تتمخّض به أوروبة بما يليق به ولا يؤخذوا على غرّة، وليلبسوا الكلّ حالة لَبُوسها، عاملين بقاعدة لكلّ زمان دولة ورجال، وذاهبين إلى أنّ هذه الحرب ستقع فاصلة كبرى بين دور سابق ودور لاحق، وعهد سيعود قديمًا وعهد سيسمّى جديدًا، وذلك لا من جهة واحدة، بل من جهات متعدِّدة. فقد تستقلّ بلاد كانت تحت سيطرة غيرها، وقد تعود ممالك كانت مستقلّة جزءًا من ممالك أقوى منها أو داخلة في دائرة نفوذها. وقد تصبح بلدان كانت من المستعمرات وهي ممالك لها شأنها وسلطانها. وبعكس ذلك، تنحطّ ممالك إلى حكم المستعمرات المغلوب أهلها على أمرهم. وقد يعتور التغيير أنظمة الإدارة، وطرق الاجتماع، ومناهج الاقتصاد، وكيفيّات الأخذ والعطاء، ووجهات اعتبار النقود، ويصل الانقلاب إلى الأدب والعلم والتعليم والرياضة. ويتناول أساليب القتال وخطط الحروب، وغير ذلك ممّا يكون الفاصل فيه بين الأوضاع السابقة والتالية، كالفاصل بين الجاهلية والإسلام.

ولمّا كان يستحيل أن تتكوّن في أوربة حركة أو ينشأ وضع ولا يرجع صداه في سائر القارّات، ولا تتأثّر به، من جهة السياسة أو من جهة الاقتصاد أو من جهة الثقافة، ممالك في قواصي المعمور، كان لا بدّ من أن تؤثِّر هذه الأوضاع الجديدة فيها جمعاء.

فالأمّة العربية البالغة، على أقلّ تقدير في آسيا وأفريقيا، نحوًا من سبعين مليون نسمة، جديرة بأن تستقبل هذا الانقلاب بما هو أهله من الاهتمام وبما يناسبه من الاكتراث. وتأتي بالدليل تلو الدليل على كونها من الأمم الحيّة المتحرّكة، الشاعرة بنفسها الناهضة بشأنها، المتحفّزة لاسترداد حقوقها المغصوبة وحفظ حقوقها الباقية، الشاغلة من المجتمع الإنساني مكانًا لا يتمّ هذا المجتمع إلاّ به ولا يستتبّ إلاّ باستتبابه، أشبه بالعضو الذي إن أصابه الخلل أو لم يتأتَّ له أن يقوم بوظيفته، شَعَر الجسم كلّه بالالتياث. وما من نزاع في كون الأمّة العربية كلّها في الوطن تتشوّر وتتحدّث في هذه المسألة الجلّى، وتضرب أخماسًا في أسداس. وكلٌّ من ملوك الجزيرة يترقّب الفرصة للسعي والكلام، ومجلس النواب العراقي لا يترك شاردة ولا واردة، والدولة المصرية، لو سلِمت من الدسائس الإنكليزية في أرضها وبين أظهرها لتصدَّت لحلٍّ أكثر من مشكلة وكشف أكثر من كربة للعرب. ولكن من المعلوم أيضًا أنَّ أمراض الشرق كثيرة متأصّلة، وعلَّله دويّة معضلة، وأنَّ هذه الممالك واقعة بين ناب الاستعمار وظفره، فهي لا تملك من حرّية القول والعمل ما تقدر معه أن تتوفّر على المصالح العربية العامّة. وهناك الاستعمار بدراهمه ودنانيره وخدعه وأحابيله، وبشرائه للضمائر، وبإفساده للأخلاق؛ وذلك أمضى سيوفه.

وقد مرّ بكم، أيها القرّاء، من العِبَر والمثلات في أثناء هذه الحرب ما كادت عقولكم لا تصدّقه، وذلك من صغار النفوس وطأطأة الرؤوس والتملّق للأجنبي الغالب، بما كادت تزهق له الأرواح من البيانات المخجلة والمظاهرات المخزية والتواطؤ مع الدول القاهرة اللاتي غصبْنَ بلداننا وهدمْن ممالكنا وصيَّرننا لها تبعًا؛ يتصرفْنَ بدمائنا وأملاكنا ومقدّساتنا ومرافقنا وحقوقنا بأجمعها تصرُّف المالك بملكه والسيِّد بعبده. ويقوم من بعد ذلك أناس منّا وفينا، ومنهم مَن يتلبّس بالوطنية وينتحل القومية كذبًا ومينًا، ويكيلون لهذه الدول الغاشمة المديح جزافًا ويزعمون أنها دول الحرّية وأركان الديمقراطية، ويتناسون ما فعلته من استرقاق مئات من ملايين البشر من أصلهم ١٥٠ إلى ١٧٠ مليونًا من المسلمين؛ وما ارتكبت فيهم من الفظائع وحملتهم عليه من المصاعب وذلك لأجل دريهمات معدودات نقدتهم إيّاها دوائر الاستخبارات الإنكليزية أو

المكتب الثاني الإفرنسي، أو لأجل مناصب ووظائف ينالونها في ظلال أولئك الظالمين الذين ساموا أهليهم وأوطانهم من الخسف ما هم يعرفونه مثل ما نعرفه نحن. ولكنّ حبّ المال أو المنصب أو مجرّد التملّق للقوي ـ لأنّ النفوس الدنيئة مولعة بالخنوع لمن قهرها واحتقرها ـ قد أمات ضمائر هذه الفئة وجعلها ألسنة من دون قلوب، وأصواتًا كأصوات الغراموفون الذي يعيد كلّ ما يُلقى إليه ولا يتقيّد بمبدأ وهو آلة صمّاء. وهؤلاء غلب عليهم حبّ المادّة إلى أن ضارعوا الآلات الصمّ؛ فمنهم الزعماء السياسيّون الذين طالما موّهوا على الناس حتّى حسبوهم زعماء وطنيين، فلمّا جاءت الفرصة، باعوا الأوطان وبايعوا أعداء الأوطان، وتسلّح بأقوالهم الاستعمار الأجنبي ضدّ الاستقلال الوطني. ومنهم المفتون والمعممون الذين أفتوا للأجانب الغاصبين بكلّ ما يخالف الشريعة الإسلامية ويصادم القرآن الكريم نصًّا وروحًا ومنطوقًا ومفهومًا. ومنهم بعض الأحبار والأساقفة الذين استباحوا لأنفسهم من تحت قاعدة "كلّ سلطة من الله" جميع ما تقضي به منافعهم الخاصّة أو توحي إليهم مآربهم المبنيّة على توطئة الوطن لأية دولة أوروبية على شرط أن ترغم لهم أنف الإسلام... ومنهم الأمراء والحكّام الذين يرون في تقلّص السلطان الأجنبي عن بلادهم خروجهم من مناصبهم هذه التي انساقت لهم بالخيانة وانقادت لهم بالذلّ والمهانة.

ولا نرسل هذا الحكم على إطلاقه، ولا نجعله ممثّلاً للأمّة العربية بأصبارها. حاشا لله، إنّ الأمّة العربية هي الأمّة العربية في نجابتها ونَخْوَتها وصلابة عودها وغرامها بالحرّية وأبائها للضَيم. ولكنّ هذا النزر الفاسد التي تنطوي عليه أحشاءها، كافٍ لتفشّي الأمراض في مجموع جسمها ـ أشبه بقليل الأقذار الذي يلوّث الكثير من الزلال الجَمّ والفرات الغمر. وبالإجمال، وجب الحذر كلّ الحذر من ترك هؤلاء وأمثالهم يُنتدبون في ما يستقبل من الأوضاع الجديدة للكلام بأسم هذه الأمّة. فليعلم الإخوان أنّ هؤلاء المذبذبين، كما كانوا ديمقراطيين عندما كانوا يحسبون الطائلة مضمونة لإنكلترة وفرنسة، سينقلبون نازيين إذا علموا أنّ ألمانية تريد مدّ يدها إلى بلاد العرب ـ وهو افتراض لا أساس له ـ أو يعودون فاشيستيين إذا آنسوا من إيطالية ميلاً إلى احتلال سورية أو لبنان ـ وهو افتراض

بعيد أيضًا خلاف ما يشيع الإنكليز لأجل تهييج العرب ـ أو يتحوّلون كماليين[1] إذا تحقّقوا أنَّ تركيا سوف تزحف صوب سورية ـ وهذا الافتراض الثالث بعيد جدًّا بسبب معارضة الروسية وألمانية وإيطالية لذلك ـ فالأمّة العربية ينبغي أن لا توكِّل في شؤونها إلاّ العرب الذين يستوي في نظرهم أيّ أجنبي مغير عليهم وأيّ غريب طامح إليهم، سواء كان ألمانية أو إيطالية أو فرنسة أو إنكلترة أو تركية أو غيرها. نحن لا فرق عندنا بين هؤلاء جميعًا، وإنّما نؤثر منهم مَن لا يحاول الاعتداء علينا ومَن يعرف لنا حقوقنا في الحياة كسائر الأمم الحيّة. فإن جاءت ألمانية تحلّ محلّ فرنسة في لبنان وسورية، أو جاءت إيطالية تحلّ محلّ إنكلترة في مصر أو فلسطين، فإنّنا نناصبهما من العداوة ما ناصبنا به الإفرنسيين والإنكليز بلا فرق. وقد كان يمكننا أن نميّز تركية على غيرها بين هذه الدول نظرًا لِما كان بيننا وبينها من الروابط الكثيرة، إلاّ أنَّ تركية الجديدة قد رفضت هذه الروابط كلّها وتبجّحت برفضها، وأظهرت للعرب من الشنآن ما لم يئنّ لهؤلاء أن ينسوه. وقد كانت بين الفريقَين رابطة شرقية آسيويّة، فنادت تركية مرارًا بأنها لا تعرف نفسها إلاّ دولة أوربية. وما ارتبطت بميثاق سعد آباد إلاّ من بعد أن أدركت أنَّ أوربة لم تُقِم وزنًا لصفتها الأوربية، وأنها لا تقيم لها وزنًا إلاّ إذا كان وراءها أمم شرقية تقول بقولها. وكانت بيننا وبين تركية رابطة إسلامية؛ فتركية تنصّلت علنًا من هذه الرابطة وألغت من دستورها المادّة القائلة إنَّ دِين تركية الرسمي هو الإسلام، وألغت من محاكمها الشريعة الإسلامية حتّى في الأحوال الشخصية والإرث والنكاح والطلاق. ولمّا دخلت مصر في جمعيّة الأمم سنة ١٩٣٧، وقام ممثّل تركية توفيق رشدي يرحّب بمصر ويذكر ما بينها وبين تركية من الروابط، لم يُشِر في خطابه إلى ما بينهما من الروابط الشرقية والإسلامية وغيرهما، بل كان كلامه أنه كان من ثلاثة آلاف سنة قد انعقدت محبّة بين فراعنة مصر وملوك الحثّيين الذين هم من أرومة الترك، بزعمه، وهو زعم أقرب إلى البطلان منه إلى الصحّة. وكيف كانت الحال، فتركيا الكمالية نبذت الرابطتين الشرقية والإسلامية ولم يبقَ من الرابطة الإسلامية فيها إلاّ ذكرها في التاريخ والجغرافية. ثمَّ، على فرض أنَّ تركية رجعت إلى العمل بالرابطة

(١) نسبةً إلى كمال أتاتورك.

الإسلامية، فلن يوجب ذلك قبول العرب استيلاء الترك عليهم. فالعرب عرب، والترك ترك، وكلٌّ من الفريقَين يجب أن يكون سيِّدًا في أرضه ويتمنّى لجاره الخير دون أن يتدخّل في شؤونه. وبالاختصار، يرفض اليوم العرب قاطبة استيلاء الأتراك عليهم أو على شيء من بلادهم.

وخلاصة القول، يجب مذ الآن إعلان استقلال سورية ولبنان وفلسطين، ورفع صوت العرب في الوطن والمهجر بذلك حتّى تتجاوب به جميع الأودية وترنّ به جميع الآفاق. ولمّا كانت قارّة أميركا تحتوي زهاء سبعمائة أو ثمانمائة ألف ناطق بالضاد، بحسب تخمين الناس - وإن كنت لا أجزم بعدد معيّن - لزم أن ينعقد مؤتمر عربي في أميركا الجنوبية بحاضرة بوانس أيرس، ومؤتمر آخر بحاضرة نيويورك أو مدينة واشنطن من أمريكا الشمالية. وتقع المذاكرة فيهما بشأن استقلال سورية ولبنان وفلسطين استقلالاً تامًّا ناجزًا لا مدخل فيه لسيطرة أجنبية أصلاً. وبديهي أنَّ العرب الذين سيدعون إلى هذين المؤتمرين سيكونون من العرب الأحرار المخلصين ذوي النزعة الاستقلالية المحضة الذين يأبون أن يسود البلاد غير أهلها؛ وهم العرب القائمون بالقومية العربية من مسلمين ونصارى. وأهمّ قرار يجب أن يتّخذوه بعد قرار الاستقلال التامّ، هو قرار المساواة التامّة بين الأهالي من جميع الطوائف والمذاهب، وإنَّ البلاد هي لأهلها وحدهم، ومن كلّ فريق منهم. وإن كان ثمّة من أهل البلاد مَن لا يعجبهم استقلال البلاد ويرون المصلحة لهم في بقائها تحت سيطرة أوربية أية كانت، حتّى لا يكونوا تحت حكم العرب - بزعمهم - فلا ينبغي أن نشغل أنفسنا بهؤلاء، ولندعهم وشأنهم ونمض في تأسيس دولتنا العربية هذه على دعائم المساواة والحرّية، ولا نبالي بمَن خالف الجمهور: ﴿ إنّك لا تهدي مَن أحببت، ولكنَّ الله يهدي مَن يشاء ﴾. ولنطبّق في إدارة أمورنا القاعدة العامّة لكلّ الدنيا، وهي أنَّ الحكم للأكثرية. فإن فاء هذا الفريق إلى الحقّ ورفعوا من قلوبهم تفضيل الأجنبي على ابن الوطن، فإخواننا في الوطنية لا نمتاز عنهم في شيء ولا يمتازون عنّا في شيء، وإن استمرّوا على ما سبق من مبادئهم السقيمة التي لا نجاح فيها للوطن، فلا تذهب أنفسنا عليهم حسرات والله يكفينا؛ هذا المهمّ. ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد

اهتدوا، وإن تولّوا فإنّما هم في شقاق فسيكفيهم الله وهو السميع العليم﴾. وهؤلاء إن آمنوا بالوطن واستقلاله وخلاصه من النير الأجنبي، فقد اهتدوا وكفّوا الوطن مضرّة الشقاق، وإن لبثوا يقولون: لا مصلحة لنا إلاّ في حكم الأجنبي وذلّ الغربي، فسيكفينا الله هذا الخطب وستعود البلاد لأهلها بإذن الله؛ والله مع الصابرين.

ويجب أن يسفر كلّ من هذين المؤتمَرين عن تأليف لجنة دائمة مشتقّة من المؤتمر تبدأ من اليوم بمراجعة الدول كلّها ببيان مطالب العرب الاستقلالية، وتتّصل بملوك العرب وحكوماتهم ورجالاتهم في الوطن، وبجمعيّاتهم وأنديتهم وهيئاتهم الوطنية في المهجر؛ تأخذ لكلّ أمر عدّته، وتكون مترجمة عن أماني العرب القومية. إنّ الجالية العربية في الأميركيّتين أجدر بأن تنهض لهذا الواجب المقدّس وأن تخلص فيه السعي إذ كان لها من غربتها وسكناها في ما وراء البحار ما زاد حنينها إلى وطنها الأصلي ومن احتكاكها بالأمم الأخرى، ما رقى بمداركها ومشاعرها ونزّهها عن الدنايا التي تلوّث بها أولئك المتجرون بحقوق أوطانهم، المتزلّفون إلى دول الاستعمار بإهدار تلك الحقوق المقدّسة. ولو فرضنا أنه ليس جميع عرب المهجر على وتيرة واحدة في صدق النزعة الوطنية والنعرة القومية، فما لا مشاحة فيه أنّ السليم فيهم أكثر، والسقيم فيهم أندر، وأنه يُرجى منهم أكثر ممّا يُرجى من الباقين في البلاد. ولنفرض أنهم سواء في الحمية والصارخة والغيرة على الوطن، فلعرب المهجر من حرّية القول والعمل ما ليس لعرب الوطن الذي تدبّ فيه عقارب الاستعمار من كلّ جانب، وتنساب أفاعي التفريق والتضليل تحت كلّ مجتمع لتبثّ سمّها الناقع. وإنّ من فوائد انعقاد هذين المؤتمَرين في الأميركيّتين معرفة المذبذبين أن عليهم أرصادًا من وراء البحر يملأون الدنيا بهم تشهيرًا وتجريسًا إن خطر لهم أن يساوموا الأجانب على أوطانهم، ويمثّلوا الدور الشائن الذي قضى الله بتمثيله في أوّل هذه الحرب، ليميّز الله الخبيث من الطيّب. فتنقبض ألسنتهم عمّا يضرّ من القول ويقبعوا في بيوتهم التي أذن الله أن تخفض، ويكفينا الله شرّهم ومعرّتهم! وعلى كلّ حال، فقد آن وقت العمل، والدنيا على عتبة انقلاب كبير عواقبه تمتدّ إلى مئات من السنين. وإنّ لهذه الأوطان، أيها الإخوان،

عليكم، حقوق الأمّهات على أولادها؛ فمَن ذا الذي لا يرضى أن يبرَّ أمّه؟ ومَن ذا الذي يرضى أن ينتسب إلى أمّة مستعبدة لأم أجنبية؟ فحيهلا بإيفاء هذا الواجب، والبدار البدار إلى المكرمة الكبرى التي هي استقلال الوطن والخلاص من النير الموضوع على الأعناق؛ ﴿ ومَن عمل صالحًا فلأنفسهم يمهّدون ﴾.

جنيف، ٤ آب ١٩٤٠

شكيب أرسلان

حول مؤتمر عربي في الأرخنتين

جواب عطوفة الأمير شكيب أرسلان للجنة التكريمية في بوانس أيرس

قال عطوفته بعد الديباجة:

«إنَّ نهضة الجالية العربية الكريمة في الأرخنتين (الأرجنتين) وما جاورها هي التي أقرّت عيني وشرحت صدري، وكانت التعزية لي على كروبي والتسلية لي في خطوبي؛ فالآن علمتُ أنَّ في هذه الأمّة بقيّة صالحة، وأنَّ الأمل بها وثيق بحول الله وقوّته، وما يفرحني المال بقدر جزء من ألف من هذه النهضة التي أنا آنستها من جهتكم، بارك الله فيكم. ولكنَّ المال جعله الله سترًا لعباده وواسطة للجهاد في سبيله، ولولا كونه جناح النجاح ما قدّمه الله في كتابه الكريم على النفس. ولذلك ليس عندي عبارة أرضاها للإفصاح عن شكري لكم هذه الأيادي البيض، فقد يسّرتم لي جهادًا كان ضروريًّا في هذا الوقت (...) حتّى أمكنني أن أتفرّغ للمطالبة بحقوق أمّة، إن لم يوجد مَن يطالب بحقوقها ويجاهد لحفظ كرامتها، حسبتها سائر الأمم هملاً لا يُقام له وزن ولا يشغل بمثله ذهن. ولي رجاء أن تتداعوا إلى مؤتمر عربي ينعقد في حاضرة الأرخنتين وتنتخب منه لجنة تنفيذية دائمة تطالب بحقوق العرب قبل أن تتقرّر أمور وتُحسم شؤون وتؤخذوا على غرّة. ولقد قمت بكلّ ما يستلزمه الوقت من المساعي (...) لنجاح المقاصد، ولكن لا بدّ أيضًا من أن تسمع الأمّة صوتها وتصرّح بمرادها ولا تخاف في حقّها لومة لائم.

تلقّيت دفعة أولى من قِبَلكم ألفَي فرنك سويسري، ودفعة ثانية ثلاثة آلاف فرنك جاءت مؤخّرًا، وجب تعريفكم مع جزيل الثناء وخالص الدعاء، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

المخلص

شكيب أرسلان

أخذوا الآن يندمون ويتنصّلون ممّا قالوه

ونسوا أنّ الوصمة التي وصموا بها سوريا والأمّة العربية لا يمحوها الملوان

لا يخفى أنَّ الناس كانوا يعتقدون بأجمعهم كون هذه الحرب فرصة ملائمة لتحرّر الأمم المستضعفة ونيلها استقلالها، إذ كان الانقسام بين الفريقَين المتقاتلَين في أوروبا يدعو كلاًّ منهما أن يسترضي ما أمكنه من الشعوب حتّى تنضمّ إليه، بل كان العرب خاصّة يتأوّهون ويتوجّعون ويتنفّسون الصعداء قائلين: «آه لو حصلت حرب في أوروبا ينصرف بها الحلفاء الإنكليز والإفرنسيون إلى قتال أعدائهم». فكنّا نحن الذين تحت حكم فرنسا وإنكلترا ننهض ونقول لهما بصريح العبارة: «الآن يجب أن تعترفوا بالاستقلال التامّ وتسلّمونا مقاليد أمور حكوماتنا، فإن فعلتم، فنحن وإيّاكم على ولاء، وإلاّ فلا تنتظروا منّا ولاء ولا إخلاصًا، بل نحن، في حال استمراركم على هضم حقوقنا واغتصاب ممالكنا، بالبداهة مع أعدائكم». ولم يكن يخامر أحدًا الشكّ في أنَّ هذه ستكون نغمة العرب، ولا سيّما السوريين الذين نكْثُ فرنسا بعهدها إليهم كان لم ينشف حبره، وبطْشُ إنكلترة بعرب فلسطين الذين لم يكن نشف دمه، بل كان الشنق والضرب بالرصاص والتدمير والتخريب هناك على أشدّ ما يكون.

فماذا كانت النتيجة؟ كانت، ويا للأسف ويا للخجل، ويا للعار ويا للشنار أنَّ نحوًا من عشرين شخصًا وزيادة من زعماء السوريين، أو من يزعمون أنهم زعماء وأنهم وطنيّون وأنهم كانوا يقاومون فرنسة وإنكلترة، ويطالبون بالاستقلال التامّ وبإلغاء السياسة الصهيونية... إلخ، انتهزوا فرصة هذه الحرب الطاعنة، لا لينذروا إنكلترة وفرنسة بأنهم سيكونون ضدّ الحلفاء فيما لو لم يسلِّموا البلاد إلى أهلها، بل ليعملوا بالعكس على خطٍّ مستقيم. فإنَّ هؤلاء التعساء ـ كما لقّبهم الأستاذ رحّال ـ قاموا يتسابقون من

كلّ فجٍّ للإعلان على صفحات الجرائد بأنهم موالون لفرنسة وإنكلترة في السرّاء والضرّاء، وأنهم في هذا الظرف الضيّق لا يريدون أن يطالبوا بحقوق بلادهم لئلاّ يحرجوا موقف الحلفاء أو يزعجوا إحساساتهم الشريفة. ويقول جميل مردم: "إنَّ الخلاف بيننا وبين فرنسة هو خلاف عائلي نحلّه في ما بيننا ولا مدخل للغريب فيه"! ولم نعلم متى كانت فرنسة ابنة عمّنا من الرضاعة! ويقول لطفي الحفار إنَّ فرنسة هي التي أسَّست حقوق الإنسان في العالم، ويكرّر ذلك وينسى أنه جعل السوريين وعرب المغرب بقوله هذا أحطّ من بني الإنسان لأنَّ فرنسة أكلت حقوقهم فعلاً. فلو كانوا من بني الإنسان لما كانت تعاملهم هذه المعاملة. فإنّها - بزعم الحفار - قد أسَّست حقوق الإنسان! ويطول بي ما قال فلان، وما هذر فلان، وما تشدّق فلان، وما تمطّق فلان، وكيف أنهم وجدوا لتبصبصهم الشائن حجّة يتذرّعون بها إلى هذه الزلفى للحلفاء، وهي قضيّة الديمقراطية! والحال إنَّهم يعلمون كما نعلم نحن أنَّ إنكلترة وفرنسة ليستا على ديمقراطية حقيقية، وأنَّ ديمقراطيّتهما إنّما هي رئاء في رئاء، وأنه وإن كان لها أثر من الصحّة، فلا يكون من ذلك شيء بالنسبة إلى الشرقيين، وبخاصّة إلى المسلمين. ولا نجد لزومًا لتعداد أسماء أولئك الأبطال من الوطنيين السوريين الذين لوّثوا اسم بلادهم، وارتكبوا هذا العار الذي ارتكبوه، واحتقبوا هذا الحوب[1] الذي احتقبوه؛ فالجالية العربية في المهجر كلّها تعرف أسماءهم واحدًا واحدًا، ولم نذكّرهم بهم الآن لمجرّد التشفّي بهم والتشنيع عليهم، فإنّنا لا نحمل لأحد منهم إحنة[2] شخصيّة ولا ننافس من هؤلاء أحدًا - ولله الحمد - وإنّما نرى الإخلاص للقضيّة العربية يقضي علينا وعلى هذه الأمّة جميعًا أن تذكر الفاسق بما فيه، وأن تشهِّر بغير المخلصين، وبالذين يخدمون الأجانب على قومهم حتّى ينبذوهم بالعراء، ويسقطوهم من نظر الأمّة ويحذّروها من الانخداع بهم مرّة أخرى. فإنّه "لا يُلدغ المؤمن من جُحرٍ مرّتين". ولقد علمنا أنَّ بعضهم صار اليوم يتبرّأ ممّا نقلت الجرائد عنه من تأييد الحلفاء ومن إعلان أنَّ سورية لا تطالب فرنسة بشيء، وأنَّ فلسطين لا تطالب إنكلترة بشيء في أثناء هذه الحرب، وأنَّ هذا الكلام وأشباهه قد وضعته تلك

(١) الإثم.
(٢) حقد وعداوة.

الجرائد على ألسنتهم كذبًا وميْنًا ولكنّهم لم يكونوا قادرين أن يعلنوا تكذيب تلك الجرائد. فإنَّ السلطة هي في أيدي الحلفاء والجيوش الفرنسية والإنكليزية مالئة السهل والوعر، وغير ذلك من الأقوال التي جاؤوا بعد انتصار ألمانيا يتنصّلون فيها ممّا كانوا قالوه ويبّضوا به وجوههم أمام الحلفاء، ولو لحقتها غيرة الخجل أمام الأمّة العربية.

وحقيقة الحال هي خلاف ذلك؛ فإنَّ الذي نشرت الصحف من أقوالهم لم يكن فيه افتراء عليهم إلاّ إذا كانت تلك الصحف التي منها ما هو على جانب عظيم من فراغ الذمّة وسقوط المبادئ قد أضافت بعض كلمات إلى الجمل التي سمعتها من أفواه أولئك الأبطال! ولكنَّ الحقيقة هي أنه لم يقع عليهم افتئات ولا افتراء أصلاً؛ يدلّ على ذلك أنَّ بعض الصحف المتبصبصة للإنكليز، في مصر وفلسطين وسورية، نشرت عن لسان الحاج أمين الحسيني أنه على وشك الاتّفاق مع إنكلترة، وكان ذلك كذبًا محضًا. فما اطّلع الحاج أمين على هذه الأخبار حتّى بادر بتكذيبها في الصحف المصرية والعراقية. إذن عندما يريد الواحد تكذيب أخلوقة أو أرجوفة قيلت على لسانه لا يعدم واسطة.

ونحن، بالرغم من أنَّ الحلفاء تمكّنوا من أخذ أمر بمنع دخولنا إلى مصر، ومن خنق صوتنا في مصر، ومن ضبط كثير من مقالاتنا ومنع نشرها، وضبط مكاتيب خصوصية كثيرة بعثنا بها إلى مصر والحجاز والعراق؛ وكلّها كانت مسجّلة بالبريد، حتّى أنَّ إدارة البوستة(١) في جنيف كتبت إلينا كتابًا رسميًا بأنَّ المراقبة الإنكليزية وضعت يدها على بعض مكاتيبنا. ولم يكن على مراسلات أحد من العرب من شدّة المراقبة ما كان على مراسلاتنا. نعم، بالرغم من كلّ هذا أمكننا أن ننشر في جريدة "منبر الشرق" في مصر تكذيبًا لمَن زعم أننا مؤيّدون لتلك الديمقراطية الكاذبة، وإعلانًا صريحًا بأننا لا نتخلّى، ولن نتخلّى عن استقلال سورية وفلسطين، ولا نوالي الحلفاء ما داموا سالكين هذه الخطّة التي هم سالكوها بإزاء العرب.

نعَم، إنَّ السلطة الإنكليزية منعت بعد ذلك منعًا مطلقًا نشر شيء من كلامنا في

---

(١) المقصود بها البريد، وهي مأخوذة عن كلمة La Poste.

الصحف المصرية، ولكنّنا في أوّل الأمر استطعنا أن نرفع صوتنا عاليًا في نفس مصر، كما رفعه مفتي القدس الحاج أمين الحسيني.

ثمَّ هناك برهان آخر لا يقبل الردّ على بطلان ادّعاء هؤلاء الزعماء التعساء، كون الجرائد نقلت على ألسنتهم ما لم يتفوّهوا به، وهو أنه بقيت في سوريا وفلسطين جماعات كثيرة من أُولي الحلّ والعقد والزعامة الحقيقية لم تقدر مذاييع الحلفاء ولا الجرائد العربية المستأجرة أن تعزو إليهم أقلّ كلمة تتعلّق بولاء السوريين والفلسطينيين للحلفاء!

فهذا هاشم الأتاسي رئيس الجمهورية السورية المستعفي، لا شكّ أنَّ سعاة الحلفاء قصدوه وحاولوا أن يأخذوا منه بيانات توافق سياسة الحلفاء، ولكنّهم وجدوا منه رجلاً ثابتًا متينًا أبى أن يداجي وأن ينافق وأن يتاجر بحقوق وطنه. ومثل ذلك شكري القوتلي الذي لم يقدر أحد أن ينقل عن لسانه كلمة واحدة تتضمّن تأييد فرنسة وإنكلترة. ومثل ذلك فارس الخوري، وسعد الله الجابري، والدكتور الكيالي، وغيرهم من المعروفين الذين لا يخلو الأمر من أنَّ أذناب الحلفاء قد قصدوهم ليوقعوهم في تصريحات شائنة، فامتنعوا عنها.

ولا يكون من باب التبجّح إن كنت أقول إنَّه لم يوجد ـ ولله الحمد ـ من عائلة أرسلان واحد تزلّف إلى الحلفاء بكلمة واحدة؛ فلا أمين مصطفى أرسلان، ومركزه من الوجاهة معروف، ولا سامي أرسلان الذي شغل مناصب عالية، ولا عادل أرسلان شقيقي الذي نفته السلطة إلى تدمر، ولا رفيق أرسلان الذي هو أعظم مأمور في زراعة لبنان، ولا مجيد أرسلان الذي كان من نوّاب الأمّة اللبنانية، ولا غير هؤلاء من هذه العائلة تفوّه بكلمة تدلّ على رضا أهل البلاد عن فرنسة وإنكلترة. ومع هذا، فلم يتعرّض لهم أحد بالإجبار على شهادة كاذبة، إذ كان الحلفاء يعلمون أنهم من جهة العائلة الأرسلانية إنّما يضربون في حديد بارد. ومثلهم عارف بك النكدي الذي نُفي أيضًا إلى تدمر ثمَّ أُفرج عنه مع أخي عادل عندما اضطُرَّت فرنسا إلى طلب الصلح، فإنَّه راسخ رسوخ الجبال في وطنيّته.

ساقنا إلى هذا البيان ورود مكتوبات معناها أنَّ كثيرًا من هؤلاء الزعماء ينكرون اليوم ما نُسِب إليهم من مديح الحلفاء... وكأنهم يريدون أن يخدعوا الأمّة مرّة أخرى. فليطمئنّوا من هذه الجهة، فإنَّ الأمّة لن تُلدغ من جحر مرّتين؛ وإنَّ اعتذارهم لا يفيدهم، وإنَّ هذه التوبة المتأخّرة منهم كاذبة ﴿لن ينفع نفسًا إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل﴾.

شكيب أرسلان

۞ ۞ ۞

العروبة جامعة كلّية

إنّ بين المسلمين والمسيحيين في الشرق جامعات كثيرة ارتباط المسلم والمسيحي بالعصوبة الدموية وبالجامعة اللغوية وبالرابطة العربية والمنافع المادية المشتركة

سبق لنا في مقالتنا التي عنوانها «لا بدَّ أن تزغرد الحزينة ولو في عرس جارتها»، إشارة إلى الخطّة العوجاء التي يسير عليها، مع الأسف، جانب غير قليل من إخواننا المسيحيين في الشرق من مناوأة السياسة العربية، واعتبارهم كلّ ما يؤيّدها ويعود عليها بالنجاح مضرًّا بهم؛ وتفضيلهم الإفرنجي أيًّا كان، وبأيّة صورة احتلّ البلاد على ابن وطنهم، وأحيانًا على ابن جلدتهم المشارك لهم في السرّاء والضرّاء بحجّة كونهم مختلفين مع ابن وطنهم في الدِّين. وقد أوضحنا عقم هذه السياسة وسقمها ومخالفتها للعقل والكرامة والمصلحة، ولكنّنا لم نخُضْ في الموضوع خوضًا شافيًا للغليل بما كنّا فيه من موضوع آخر هو بسبيل من عنوان تلك المقالة. فأردنا الآن أن نشرح ما في هذه الخطّة من الحيد عن طريق العقل ومن تغلُّب الشهوة على المصلحة الراهنة المادية وعلى الكرامة القومية المعنوية، وعليه نقول:

إنَّ العرب سواء كانوا مسلمين أو نصارى، هم عرب لا يقدرون أن يتبرّأوا من أصلهم ولا أن ينسلخوا عن أرومتهم العربية. ولا نزاع أنَّ رابطة الدم كانت ولا تزال من أقوى الروابط الجامعة بين الشعوب. ولا نزاع أيضًا في أنَّ رابطة العقيدة الدينية هي ذات تأثير عميق في اجتماع الشعوب وافتراقها، ولكنّها لا تنفي رابطة الدم ولا تمحوها من الوجود، لا سيّما إذا كانت رابطة الدم معزّزة برابطة الجوار ومقتضيات المصلحة المادية المشتركة. ولقد أثبتت التجربة أنَّ رابطة الدِّين، على أهمّيتها، لم تكن هي كلّ شيء، وأنَّ رابطة اللغة ورابطة الدم كان لهما في جانبها مكان من البال لا يقُلّ عنها. وفي بعض الأحيان

جاءت رابطة الجوار مع رابطة المصالح المادية فنسختا الروابط الأولى كلّها أو تغلّبتا عليها، فبقي أثرها في المجتمع صوريًا أكثر منه فعلاً. ولذلك وجدنا من الأمم مَن يأوون إلى مملكة واحدة وهم من أجناس شتّى ولغات متفرّقة، وذلك بسبب الجوار والمصالح المشتركة؛ حتّى أنَّ الفيلسوف رينان الإفرنسي ذهب إلى أنَّ أقوى جامعة بين الشعوب هي جامعة الإرادة في الاجتماع. وقال إنَّ هذه الجامعة قد تكون راجعة إلى غير رابطة الدين وإلى غير رابطة اللغة وإلى غير وحدة الأصل، وتعلو عليها كلّها بأسباب ومقتضيات مادّية تحلّها المحلّ الأوّل. ونحن أولاء نجد بين المسلمين والمسيحيين في الشرق لا جامعة واحدة، بل جامعات كثيرة كلّية منها، وحدة الأصل؛ وليس ذلك بالأمر الذي لا تبالي به الشعوب. وقد رأينا كيف أنَّ هيتلر زعيم ألمانيا جعل الرابطة الدموية واللحمة النسبية الجرمانية فوق كلّ شيء. وزدْ على هذه وحدة المصلحة الراهنة المشتركة في الحياة الدنيا، وهي لا تقُلّ شأنًا عن الوِحدتَين السابقتَين. فإنَّ المصلحة المادّية لا يمكن أن تشمل المسلم في الوطن العربي وأن تعدو المسيحي بحال من الأحوال، كما أنَّ المفسدة أو المصيبة الواقعة على ذلك الوطن لا يمكن أن تصيب أحدهما وتعفو عن الآخر. فإن لم يكن بينهما تكافل غير هذا لكفى. فكيف يُعقل أنَّ أحد هذين، وهما شريكان في مقومات كثيرة، ينفرد عن الآخر فيرجّح عليه الأجنبي بسبب اشتراكه مع هذا الأجنبي في العقيدة الدينية؟ وها نحن أولاء نجد الكاثوليك من الألمان ألمانًا مثل البروتستانت، وأضدادًا لكاثوليك فرنسة مثل البروتستانت تمامًا. كما أننا نجد بروتستانت فرنسة أعداء للألمان نظير كاثوليك فرنسة بلا فرق. وهذا شاهد نورده، بخاصّة نظرًا لما بين الفريقين، الإفرنسي والجرماني، من العداوة المزمنة، وإلاّ فالشواهد في هذا الباب لا تُعَدّ ولا تُحصى.

من المعلوم أنَّ إخواننا الإيرانيين هم مسلمون على مذهب الشيعة، وأنَّ الدولة الإيرانية إلى يومنا هذا تُعِدّ نفسها دولة شيعية فإذا ـ لا سمح الله ـ وقعت عداوة بين دولتَي إيران والعراق، أي بين العجم والعرب، أيكون هوى شيعة العراق مع الإيرانيين ضدّ إخوانهم أهل السُّنة من العرب، أم مع إخوانهم أهل السُّنة من العرب على إخوانهم الشيعة من العجم؟ إذن ثبت من هنا أنَّ رابطة النَّسب ورابطة اللغة لا تتغلّب عليهما

رابطة إلاّ إذا كانت هناك فئة باغية وفئة مبغٍ عليها، فلا شكّ أنَّ صاحب الحقّ، مهما كان أصله، تجب له النصرة، لأنَّ الحقّ لا يقف في وجهه شيء والروابط كلّها تتضاءل أمامه.

فإذا كان الحقّ هو الذي يجب أن يُتّخذ معيارًا للميل وعلّة للضمّ، فأيُّ حقٍّ أعظم من ارتباط المسيحي بالمسلم في البلاد العربية بالعصوبة الدموية الدينية؟ فإن لم تكن، فبالجامعة اللغوية، فإن لم تكن، فبالرابطة الوطنية والمنافع المادية المشتركة. أيغلب على هذه الأسباب كلّها كون فرنسا أو دولة أخرى أوروبية تدين بالدين الذي يدين به أخونا المسيحي في الشرق؟ ينسى أخونا هذا أنَّ الإفرنجي، ولو تظاهر له بالقربى، يحتقره في ذات نفسه كما يحتقر المسلم؛ ويعدّه، كما يعدّ المسلم، غريبًا عنه في النَّسب والسكن واللغة والمشرب. لقد كنّا في الأستانة، ونحن في مجلس نوّاب الأمّة العثمانية، مؤلّفين من عرب وترك وأرناؤوط وأكراد وأروام وأرمن ويهود وغير ذلك؛ فكنّا ـ نحن نوّاب العرب ـ إذا كنّا مجتمعين في مكان، ومنّا المسلمون ومنّا المسيحيون، نتحدّث في ما بيننا كأننا عائلة واحدة، فإذا دخل علينا تركي عددناه غريبًا عنّا وأمسكنا أمامه عن الكلام الذي يكون عادةً بين الإخوان المرفوعة بينهم التكاليف، مع أنَّ هذا التركي هو مسلم نظير أكثرنا وبيننا وبينه رابطة الإسلام، وناهيك بها من رابطة مقدّسة! وكذلك لو دخل علينا رومي أو أرمني لعددناه غريبًا عنّا لا يجمعنا معه إلاّ أننا وإيّاه من سكّان مملكة واحدة. والحال أنَّ هذا الرومي أو الأرمني يدين بدين أناس منّا، أي يدين بدين نوّاب المسيحيين من العرب. فكما أنَّ المسلم العربي لم يكن يسترسل إلى المسلم التركي ويعدّه غريبًا عنه برغم رابطة الإسلام، كذلك المسيحي العربي كان لا يأنس بالرومي والأرمني بالرغم من رابطة النصرانية؛ فهذا هو سرّ الوطنية والقومية وسرّ المثل القائل: «جارك القريب ولا أخوك البعيد».

ولينظر إخواننا ـ الجالية العربية في المهجر ـ فإنَّ منهم المسيحيين والمسلمين وقد تقع بينهم العداوة والبغضاء، وقد تقع بين المسلمين بعضهم مع بعض، وقد تقع بين المسيحيين بعضهم مع بعض، ولكنّهم إذا اعتدى على أحدهم مَن ليس من الجالية العربية كانوا كلّهم عليه لبدًا وتركوا ما بينهم من الفروق المذهبية. وكذلك إذا كانوا مجتمعين ودخل

عليهم غريب عن اللسان العربي، لم يأنس المسيحي منهم إلى ذلك الغريب، ولو كان مسيحيًّا، كما هو يأنس إلى المسلم العربي ولو لم يكن مشتركًا معه في العقيدة الدينية.

إنِّي أورد هذه الشواهد لأجل تمثيل قوّة رابطة الدم وجامعة اللغة ووحدة الوطن. ولعلّ قائلاً يقول: «إنَّ المسيحيين الذين في الشرق ليسوا عربًا في الأصل حتّى تدمجهم مع العرب المسلمين. وإن كان منهم عرب في النَّسب فليس هؤلاء إلاّ نزرًا، وإنّما غلبت على نصارى الشرق اللغة العربية بطول الزمن وبنشر الدولة العربية لثقافتها بين الشعوب التي استولت عليها». ونُجيب عن ذلك بكلمة مختصرة، لأنَّ هذا المبحث طويل متشعِّب الأطراف كما لا يخفى، فنقول:

العرب قبل الإسلام كان أكثرهم مشركين وكان منهم جماعة من النصارى مثل بني غسان وبني تغلب، وكان منهم نزر دانوا باليهودية، ولكنّهم كانوا كلّهم عربًا. وفي يوم ذي قار، عندما وقعت المعركة الكبرى بين العرب والعجم، كان العرب بإزاء العجم صفًّا واحدًا وكان النصارى من جملتهم. وكذلك عندما استولى الأحابيش على اليمن وجدوا العرب بإزائهم أمّة واحدة. ثمَّ ظهر الإسلام، فأسلم أكثر العرب ولكن بقي من بني غسّان ومن بني تغلب ومن لخم وجذام ومن تنوخ نصارى كثيرون أبوا أن يدخلوا في الإسلام. ولمّا كان الإسلام لا يجبر أهل الكتاب ـ أي النصارى واليهود ـ على ترك أديانهم، وكانت قاعدته ﴿لا إكراه في الدين﴾، وقع الخلفاء الراشدون في مشكل من جهة الضرائب المفروضة على نصارى العرب، فإنّه كان لا بدّ للرعيّة من دفع الضرائب، وكان غير المسلمين من الرعيّة يدفعون الجزية، وبذلك يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. فلمّا أراد الخليفة عمر بن الخطاب أخذ الجزية من بني تغلب بحسب كونهم نصارى، امتنعوا عن إعطائها باسم «جزية» وقالوا: «نحن عرب، ما نرضى أن نعامَل معاملة الأعاجم». وأجابهم عمر، رضي الله عنه: «ما دمتم نصارى فلا بدّ لكم من تأدية الجزية». وجرى في المسألة من الأخذ والردّ ما هو معروف في التاريخ. وقيل إنَّ سيِّدنا عمر قال لهم: «هاتوها وسمّوها ما شئتم». وقيل إنَّه لمّا صمّم على أخذها

منهم بأسم جزية انطلقوا هاربين، فقال له النعمان بن زرعة: «أنشدك الله يا أمير المؤمنين في بني تغلب، فإنَّهم قوم من العرب يأنفون من الجزية، وهم قوم شديدة نكايتهم فلا يستعِن عدوّك عليك بهم. فأرسل عمر في طلبهم فردَّهم وأضعف عليهم الصدَقة، ولكن لم يأخذها منهم كجزية. ورضوا هم أن يؤدّوا ضعف ما كان يأخذه من المسلمين في كلّ سائمة وأرض وقالوا: «أمّا إذ لم تكن جزية كجزية الأعلاج، فإنّا نرضى ونحفظ ديننا». وفي كتب الفقه فصل خاصّ ببني تغلب لأنهم من جهة كانوا يأبون تسويتهم بنصارى الأعاجم، ومن جهة أخرى لم يكن لهم مهرب من دفع الضرائب فانحلّت المشكلة على هذا الوجه. وذلك لأنَّ الخلفاء يقيمون وزنًا للعروبة كما لا يخفى.

ونحن لا نقول إنَّ جميع النصارى الذين يتكلّمون اليوم بالعربية هم من غسّان أو من تغلب أو من تنوخ، ولكنّنا نقول إنَّ هؤلاء وسلائلهم أكثر جدًّا ممّا الناس يقدِّرون. ثمَّ إنَّ سائر مَن في الشرق من المسيحيين الذين يتكلّمون بالعربية إن لم يكن أصلهم من العرب الصراح، فإنَّهم من سلائل الآراميين؛ وهؤلاء هم أمّة ساميّة شقيقة للأمّة العربية، بلا جدال، يستدلّ على وحدة أصلهما من تشابه السرياني مع العربي تشابهًا أشدّ ممّا بين الإفرنسي والطلياني. ومن نصارى المشرق مَن يُرْجعُ أصلهم إلى الفينيقيين وهو فخر لهم، فإنَّ الفينيقيين كانوا من أعظم أمم الأرض، وكانوا سادة البحار في عصرهم. وكانت لهم آثار على جميع سواحل البحر المتوسّط، بل قد تعدّوه إلى سواحل الأطلنطيق. وكانت دولة الفينيقيين، بأهميّتها تجاذب الدولة الرومانية الحبل كما لا يخفى. ولكن، مَن الفينيقيون يا ترى؟

الجواب معلوم، وهو أنَّ الفينيقيين هم من الكنعانيين الذين أصلهم من السواحل العربية الواقعة إلى الغرب من الخليج الفارسي، أي من الشجرة العربية، ولغتهم مشابهة للعربية كسائر اللغات الساميّة. فسواء كان إخواننا، نصارى المشرق، من العرب أو من سلائل الآراميين أو الفينيقيين فإنَّهم راجعون إلى الأرومة الساميّة التي أعظم فروعها الأمّة العربية، وبالتالي فهُم والعرب المسلمون من عائلة واحدة. وإذا قيل إنَّه لا بدَّ أن

يكون في سورية من بقايا الروم واللاتين والصليبيين ممَّن ليسوا بعرب، فالجواب أنه قد يكون ذلك، ولكنَّ هذه البقايا لا تُعَدّ شيئًا مذكورًا بالنسبة إلى السواد الأعظم المؤلَّف من العرب الصراح ومن أبناء عمومتهم الشعوب الساميّة. ثمَّ إنَّ هذه البقايا الضئيلة قد اندمجت في الأهالي الأصليين بحيث لم يبقَ أثر تقريبًا في الشرق الأدنى لشيء يقال له يوناني أو لاتيني. وإن كنّا نريد البحث والتدقيق، فأية أمّة في العالم تظهر أنها من أصل واحد اليوم لم تكن مركّبة في الأصل من عناصر شتّى؟! أفيظنّ الناس أنَّ الإنكليز كلّهم من أصل واحد؟ لا، لعمري، فإنَّ منهم الإنكليز النورمانديين، ومنهم السلتيين وغير ذلك، ولكنّهم أصبحوا بمرور الزمن أمّة واحدة يقال لها الأمّة الإنكليزية؛ مع علمهم بما بينهم من تباين الأصول. أفيظنّ الناس أنَّ الإفرنسيين هم من أصل واحد؟ الجواب: لا، لعمري، إنَّ الإفرنسيين منهم قسم يرجع إلى العِرق الغالي ومنهم مَن يرجع إلى العِرق الجرماني، واسم فرنسا نفسها مشتقّ من قبيلة جرمانية يقال لها الفرنك، ومنها جاءت لفظة الفرنج أو الإفرنج التي يستعملها العرب عنوانًا للأوروبيين من قبيل التغليب. ثمَّ إنَّ من الإفرنسيين جانبًا يرجع أصلهم إلى السلتيين وأكثرهم يسكنون في ولاية بريطانيا الإفرنسية، ومنهم جانب يرجعون إلى النورمنديين، وفي الجنوب من فرنسا يوجد جيل يقال لهم الباشكونس، والإفرنسيون يقولون لهم الباسك، وأكثر هذا الجيل يسكنون في شمالي إسبانيا. ثمَّ إنَّ في جنوبي فرنسا بقايا من سلائل الرومانيين واليونانيين؛ ويقال إنَّ في جنوبي فرنسا بقايا من الفينيقيين، وإنَّ مرسيليا إنّما اختطّها هؤلاء، وهلُمَّ جرّا.

وهل يظنّ الناس أنَّ الألمانيين كلّهم من أصل جرماني؟ لا، لعمري، بل يقال إنَّ أهل بافاريا أصلهم من آسيا جاؤوا منذ آلاف من السنين، فاختلطوا بالألمان وتعلّموا لغتهم وصاروا اليوم ألمانًا أقحاحًا. وكذلك أبناء السلالة السلافية كثيرون جدًّا في شرقي ألمانيا، وهم اليوم ألمان كغيرهم من الألمان. ومثل هذا لا تخلو منه أمّة، حتّى أنَّ العرب أنفسهم - وإن كانوا جميعًا ساميين - ليسوا من أصل واحد؛ فمنهم العرب البائدة مثل عاد وثمود وطسم وجديس، ومنهم العرب العاربة، وهم سلالة قحطان، ومنهم

العرب المستعربة، وهم سلالة ابراهيم الخليل عليه السلام. ومع ذلك، فإنَّ العرب أمّة واحدة، لا يقدح في وحدة أصلها إلاّ شانئ أو حاسد أو مشاق معاند. وكذلك الأمّة الألمانية هي اليوم أمّة واحدة، وكلّ ألماني جرماني أو سلافي أو بافاري يدخل تحت قولهم ألماني ويُعَدّ من الجنس الآري. ومثل ذلك الأمّة الإفرنسية، لا نعلم فيها واحدًا يطالب بالانفصال عن الجنس الإفرنسي إلاّ فريقًا من البريطانيين الراجعين إلى أصل سلتي يرجع إليه أيضًا أهل إرلندا وقسم من أهل إنكلترة. ولا حاجة بنا إلى الاستقصاء من الأمثال والشواهد التي لا يأخذها الإحصاء. فإن كان في الأمّة العربية اليوم أقوام هم من أصل آرامي أو كنعاني أو نبطي أو غير ذلك، فهذا لا يقدح في كونهم من جملة الأمّة العربية الكبيرة البالغة سبعين مليون نسمة، اتّحدوا في الأصل السامي، ثمَّ اتَّحدوا في اللغة العربية؛ وحسبك باللغة العربية عنوانًا على العروبة. وليست اللغة العربية وحدها هي البوتقة التي ذابت فيها قبائل شتّى فصيَّرتها جسمًا واحدًا وروحًا واحدة، بل كلّ لغة من اللغات الكبرى، كالإنكليزية والألمانية والإفرنسية والطليانية والروسية قد كانت بوتقة ذابت فيها عناصر مختلفة الأصل فصارت عنصرًا واحدًا. وقد يوجد في الأمّة الواحدة علماء وأدباء في لغة تلك الأمّة، إذا بحثت عن أصولهم وجدتهم غرباء عنها ولكنّهم بسبب تضلّعهم في لغة القوم الذين اندمجوا فيهم، صاروا من أعظم دعاة القومية في تلك الأمّة. وقلَّما تضلّع إنسان في لغة قوم إلاّ أحبّ أولئك القوم. ولهذا نجد أكثر علماء العربية من النصارى، سواء كانت أصولهم عربية بحتة أم لم تكن، يحبّون العرب ويفتخرون بالعروبة. وقد كان من الفرس ومن الترك علماء بالعربية جعلهم إتقانهم للعربية من أنصار العروبة. ونحن نعلم أنه لمّا ضعف التدريس العربي في تركيا وغلب على ناشئتها تعلّم اللغات الأوروبية وإهمال اللغة العربية ـ التي كانت لغة العلم عندهم من قبل ـ ضعف ميل الأتراك إلى العرب، بل انقلب إلى النفور وانتهى بالعداوة. وما نقوله عن الترك في هذا الباب نقدر أن نقوله عن الإيرانيين. ومَن جهل شيئًا عاداه.

ولينظر الإنسان إلى أهل لبنان الذين أكثرهم من المسيحيين وأكثرهم من مستعربة

الآراميين، ومنهم مَن لا يزال في لغته العربية نغمة تشعر أنهم بقايا قوم كانوا يتكلّمون بالسريانية. فهؤلاء مع اختلاف الدين بينهم وبين جمهرة العرب عندما يتبحّرون في العربية، يتولّد عندهم حبٌ جمٌ للعروبة؛ نجد ذلك في أدبائهم الكبار كاليازجيين والبستانيين وآل عوّاد والشدياق والشرتوني، وغيرهم. وفي عصرنا، لم أعلم إلاّ فيما ندر مسيحيًا أتقن اللغة العربية ونبغ فيها إلاّ وهو ميال بكلّ قوّته إلى العروبة وعدوّ لمَن ناوأها، وأحيانًا يميل إلى الإسلام نفسه بميله إليها. ولعمري، إذا نظرنا في المسلمين الأقحاح الذين دافعوا عن شريعة محمَّد وعن تاريخ محمَّد وخلفائه في الأرض، لم نجد كثيرًا منهم يضارع في هذا الباب الشاعر الشهير الأستاذ رشيد سليم الخوري الذي خدم الإسلام ببراهينه الساطعة وحججه الدامغة، أكثر ممّا خدمه مئات ألوف من المسلمين أنفسهم. وكذلك غَرَام الطيِّب الذِّكر جورجي الحداد، صاحب القلم الحديدي، باللغة العربية وآدابها، جعله في وقته من أمضى سيوف العروبة وأصدق حماة الإسلام. ومن هذا القبيل أمين الريحاني الذي فقدناه أخيرًا مبكيًّا عليه في جميع العالم العربي، فقد كان ـ أكرم الله مثواه ـ من المجلّين في هذا الميدان. ولا شكّ في أنَّ مرجع غيرة الريحاني على العروبة هو تمام ثقافته العربية، وقد انضاف إليها علوّ مداركه وعمق تفكيره. ومن هؤلاء الشاعر العبقري الأستاذ خليل المطران الذي جرّدت شاعريّته الفائقة منه صمصامًا[1] يفري حدّه أعداء العروبة. وقد اطَّلعت لأبي الفضل الوليد بن طعمة من أدباء إخواننا المسيحيين اللبنانيين على شِعر كثير يفيض كلّه شعورًا عربيًا، حتى إنّني أودعت الجزء الثالث من كتابي "الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية" قصيدة عذراء قالها على الأندلس لا ينفث بمثلها إلاّ من شغف بالعروبة، وأدّاه شغفه بها إلى المفاخرة بمآثر الإسلام الممتزج بالعروبة امتزاجًا يتعذَّر معه الفصل بينهما.

ومن أنصار العروبة المحضة في إخواننا المسيحيين، الأستاذ الخطيب المفوّه داوود مجاعص الذي كنت أتمنّى أن يكون في مسلمي العرب كثير في حميته وغيرته على العرب. وليس مرادي الآن توزيع شهادات على أعلام العربية والعروبة من إخواننا المسيحيين

(١) السيف الذي لا ينثني.(المحقق)

في لبنان وسوريا، فإنَّهم لا يحتاجون إلى تزكيتي، وإنّما أتيت الآن بذكر نفر منهم على سبيل الاستشهاد بأنَّ الجامعة العربية هي من القوّة والمتانة بحيث لا يصدّعها اختلاف الدين. لا جرم أنَّ الدين الإسلامي جعل العقيدة الإسلامية فوق كلّ شيء ونهى الذين آمنوا عن أن يتولّوا الذين لم يؤمنوا، ولو كان هؤلاء من ذوي قرباهم أو كانوا أصولهم أو فروعهم، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتّخذوا آباءكم وأبناءكم أولياء إن استحبّوا الكفر على الإيمان ومَن يتولّهم منكم فأولئك هم الظالمون. قُلْ إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربّصوا حتّى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾. وفي ذلك ما يقول به المعترض: إذا كانت الوحدة الإسلامية هي المقدّمة على كلّ وحدة أخرى من النَّسب واللغة والجوار والمصالح المشتركة، فأية فائدة إذن أن يتَّحِد نصارى العرب مع المسلمين منهم؟ والجواب عن ذلك سهل إلى الغاية وذلك من وجوه:

الأوّل ـ أنه إذا كان القرآن جعل الرابطة الإسلامية فوق كلّ شيء، فإنَّه جعل الحقّ في المعاملات فوق الرابطة الإسلامية، حتّى إنَّه سوّى في الحقّ بين المسلمين وغير المسلمين، ونهى عن أن تكون العداوة الدينية سببًا لحرمان الأعداء من حقوقهم. فقال تعالى في سورة المائدة (الآية ٢): ﴿ولا يَجْرِمَنَّكُم شنآن[1] قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تَعَاونوا على الإثم والعدوان واتَّقوا الله إنَّ الله شديد العقاب﴾، وقال تعالى في السورة نفسها: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يَجْرِمَنَّكُم شنآن[2] قوم على ألاَّ تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتّقوا الله إنَّ الله خبير بما تعملون﴾ (سورة المائدة، الآية ٨) فإذا كان الشرع الإسلامي لا يبيح لمسلم أن يجور على مسيحي أو على أيّ كان من غير المسلمين، ولو كان عدوًّا له وللإسلام عمومًا، وكان يوجب أن يوفِّر لهذا العدوّ حقّه غير منقوص، فأيّ مكان بعد هذا للخوف من الاجتماع مع المسلم في حكومة واحدة؟!

(١) (٢) شنئان.

وأيّ محذور من جعل القرآن رابطة الدين فوق كلّ رابطة وهي لا تقدر أن تبطل حقًّا ولا أن تحقّ باطلاً في معاملات المسلمين مع غير المسلمين؟!

الثاني ـ [ثمَّ] إنَّ هناك فرقًا في نظر الشرع الإسلامي بين المشركين وبين أهل الكتاب الذين منهم النصارى واليهود؛ فإنَّ هؤلاء ـ بالنظر إلى عقيدتهم بالخالق تعالى ـ ينظر إليهم الإسلام بغير النظر الذي ينظر به إلى المُلحدين والمُعطّلين والمُشركين، فيقول الله تعالى: ﴿ إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. فأنت ترى أنه قد سوّى تعالى بين المسلمين وبين هذه الأمم في استحقاق الأجر عنده تعالى وعدم الخوف من العاقبة. وقد يعترّض المعترض هنا بأنَّ هذا الحكم خاصّ بالمسيحيين الذين لا يقولون بمقالة التثليث ويستنكفون عن القول بألوهية المسيح عليه الصلاة والسلام، ولكن يُردّ على هذا أنَّ الله جعل باب الرحمة مفتوحًا لأهل الكتاب؛ فإنَّه يقول في آخر سورة المائدة على لسان سيِّدنا عيسى: ﴿ ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربّي وربّكم وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم، فلمّا توفّيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كلّ شيء شهيد. إن تعذّبهم فإنَّهم عبادك وإن تغفر لهم فإنَّك أنت العزيز الحكيم﴾. وعلى كلّ حال فإنَّ بونًا بعيدًا هنا بين الذين تُرجى لهم المغفرة بحسب القرآن الكريم، وبين ما تقوله الكنيسة من أنَّ كلّ خارج عنها مهما كان صالحًا هالك ذاهب إلى النار من دون استثناء. فإذا كنّا نريد أن نجعل اختلاف العقائد الدينية مانعًا دائمًا وأبدًا لاجتماع الكلمة القومية، فهنا ما يدعو المسلمين أن يبتعدوا عن المسيحيين أكثر ممّا يدعو المسيحيين أن يبتعدوا عن المسلمين. ونحن ـ مع ذلك ـ لا نرى في اختلاف العقائد الدينية سببًا لاختلاف العقائد السياسية بما تقدِّم لنا من إثبات الروابط الأخرى التي لا يمحوها اختلاف الدين.

الثالث ـ وهناك وجه ثالث لتقارب المسيحيين مع المسلمين لا يتنبّه له مَن لم يتأمّل القرآن العظيم، فإنَّه وارد فيه قوله تعالى بالنصّ الصريح: ﴿ لتجدنَّ أشدَّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنَّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين

قالوا إنَّا نصارى ذلك بأنَّ منهم قسّيسين ورهبانًا وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ممّا عرفوا من الحقّ يقولون ربّنا آمنًا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾، فقد جعل اليهود والمشركين أعداء للمسلمين من دون النصارى. وكان ذلك عقيدة عند المسلمين جميعًا في صدر الإسلام وما بعده. وقد ثبت في السيرة النبوية أنه في الحرب التي وقعت في زمن الرسول عليه السلام بين الروم والفرس، كان هوى المسلمين مع الروم وهوى المشركين من العرب مع العجم، فكانت تقع المجادلة بين الفريقين بهذا السبب. ونزل في سورة الروم من القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿ غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر مَن يشاء وهو العزيز الحكيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾. وقد حقّق الله هذه الآيات بأسرها، إذ لم تمض بِضع سنين على المعركة الأولى بين الفرس والروم حتّى نشبت الحرب ثاني مرّة وانتصر بها الروم وفرح المسلمون بذلك وخُذِل المشركون.

أقول، ولم يكن شيء في صدر الإسلام وما بعده مدّة قرون متعدّدة من العداوة التي صارت في ما بعد بين المسلمين والمسيحيين شنشنة[١] يعرفونها من أخزم[٢]. وقد كان الخلفاء بنو أميّة وبنو العبّاس، والفاطميون والملوك الأيّوبيون، وبنو بويه ودولة المماليك، وغيرهم إلى الدولة العثمانية، يعاملون المسيحيين كما يعاملون المسلمين ويقرّبونهم ويعوِّلون عليهم في مصالح الدولة. وقد يستوزرون منهم ويجرون عليهم الأرزاق الوافرة، ويتّخذون منهم خواص. وكانت لهم لديهم حرمات عظيمة، حتّى قيل إنَّ أحد أبناء بختيشوع ـ أحد أطبّاء دار الخلافة ـ عندما مات، أمر الخليفة بإقامة جنازته بحسب شعائر النصارى في وسط بيت الخلافة. وقد نُلِمّ في مقالة أخرى بهذا الموضوع ونذكر منه طرفًا صالحًا، ولكنَّ العداوة بين المسلمين والمسيحيين لم تبدأ في الشرق إلاّ بعد أن فكّر الغرب في الاستيلاء على الشرق، وزحفت الأمم الأوروبية كلّها على المشرق تريد القضاء على دولة الإسلام بحجّة استنقاذ بيت القدس. وارتكبت في

(١) بغضًا وعداوة.
(٢) أعلامهم. (المحقّق)

تلك الحروب من الفظائع ما إذا نقلناه لا ننقل منه حرفًا واحدًا إلاّ عن تواريخ الأوروبيين أنفسهم؛ وإن كنّا نعلم أنّ روايات مؤرّخي العرب عن تلك الحروب كانت كلّها مطابقة للواقع، وكنّا نعلم أنّ الصليبيين لمّا دخلوا إلى بيت المقدس ذبحوا من المسلمين سبعين ألف نسمة في المسجد الأقصى، حتّى غاصت الخيل في الدماء، ولم يعفوا عن الأولاد ولا عن النساء، وأنّ صلاح الدين الأيوبي عندما استخلص القدس من الصليبيين ودارت عليهم الدائرة، قال لهم: «لو شئت لفعلت بكم ما فعلتموه بالمسلمين ولكنّني أنزه الإسلام عن مثل أعمالكم». ثمّ استحياهم جميعًا واكتفى عن كلّ جمجمة منهم بفدية دينارَين، ثمّ لمّا لم يجِدْ أناس منهم ما يفتدون به أنفسهم أعفاهم صلاح الدين ـ رحمه الله ـ من الفدية أيضًا. ثمّ لمّا لم يجد أناس منهم ما يأكلون في طريقهم إلى صور التي كانت لم تزَل في أيدي الإفرنج، أحسن إليهم بأموال لأجل قوّتهم الضروري، وأَنْعَمَ على أمرائهم وأميراتهم بما تمكّنوا به من السفر. وهكذا اعترف مؤرِّخو الإفرنجة بأنّ عمل صلاح الدين هذا في مقابلة عمل الصليبيين جاء لطخة عارٍ على جبين أوروبا إلى الأبد، وبضدّها تتبيّن الأشياء.

ولماذا نحن مجتهدون في تبيين ما جرى على المسلمين في الحروب الصليبية من قبل الفرنج من الوقائع الوحشية؟ وها نحن أولاء نشاهد بأعيننا في هذا العصر الذين يقولون له عصر النور والمدنيّة من أعمال الأوروبيين بعضهم ببعض، وكلّهم من جنس واحد، ما لو لم نكن مشاهديه ومعاصريه لَما كنّا نصدّقه، فكيف تكون، يا ليت شعري، أعمال أجدادهم في عصر الهمجيّة وجهل الجاهلية في معاملة المسلمين الذين غلبوا عليهم؟! وليس هنا مقام الكلام على الحروب الصليبية من حيث هي وقائع ومعارك، ولكنّ كلامنا هذا عليها من حيث هي أسباب ونتائج. فنقول إنّ العروبة كانت جامعة قويّة خُفيت معها افتراقات المذاهب واختلافات الأديان بما غلب على ذلك من النعرة القومية والصارخة الدموية. ولم يشعر التاريخ بعداوة حقيقية بين النصارى والمسلمين من العرب في البداية، وإنّما كانت هناك عداوة بين الأعارب والأعاجم، وكان العرب

في هذه العداوة صفًّا واحدًا، المسلم منهم والمسيحي، وربَّما قيل لي: "كيف تقول ذلك وقد ذكرت التواريخ أنَّ متنصرة العرب من بني غسّان وتنّوخ وجذام وغيرهم قاتلوا في صفوف الروم عندما نشبت وقعة أجنادين ومعركة اليرموك وغيرهما؟" وأجيب عن ذلك: **أوّلا**، إنَّه كما قاتل يومئذٍ كثير من نصارى العرب في صفوف الروم، قاتل منهم آخرون في صفوف المسلمين. **ثانيًا**، لم يكن قتال نصارى العرب في صفوف الروم تغليبًا للنصرانية على العروبة وترجيحًا للعقيدة على القومية، ولكن كانت الدولة الرومانية هي الدولة الحاكمة على البلاد الشامية، وكان قسم من العرب رعايا لها، وكان الغساسنة عمّالاً للقياصرة على حوران. فكان لا بدَّ لهم من طاعة الدولة الرومانية التي كانوا تابعين لها. وهذا له أشباه اليوم في تجنيد دول أوروبة مئات ألوف، بل ملايين من المسلمين الذين ليسوا على دينهم، وقد يقاتلون بهم أنفس المسلمين، بل يمكن أن يقال إنَّ أكثر فتوحات أوروبة في بلاد الإسلام من آسيا وأفريقيا إنّما تمَّت على أيدي جنود من المسلمين بقيادة ضبّاط من الأوروبيين، وذلك لأنَّ هؤلاء المسلمين قد غلبت عليهم الدول الأوروبية فساقتهم بعصا القهر حتّى في قتال أبناء دينهم ووطنهم، ممّا هو نتيجة الضعف والجهل والعجز والذلّ والاستكانة وقبول الإهانة، وإلاّ فإنَّ هؤلاء المسلمين الذين يقاتلون إخوانهم وأبناء ملّتهم في صفوف الجيوش الأوروبية هم في أنفسهم لا يجهلون ما في عملهم هذا من البشاعة والمهانة، ولكنّهم مسيَّرون لا مخيَّرون. ومنهم مَن غلبت عليهم الشقوة فصاروا للأجانب عمّالاً ودعاة يواطئون على ملّتهم ووطنهم، ويبيعون مقدّسات الإسلام بمطاعم وبيّة ومنافع خسيسة. وعلى كلّ حال، هذه الحالة هي موجودة لا سبيل إلى المكابرة فيها. وهم نِعْمَ العذر للمسيحيين من العرب عندما يحطبون هؤلاء في حبال الأجانب ويخرجون من الجامعة العربية، فإنَّهم يقدرون أن يقولوا للاستقلاليين والأحرار من العرب: قبل أن تستنكروا انضمامنا إلى الأوروبيين في مقاومة الحركة العربية الاستقلالية، يجب عليكم أن تمنعوا انضمام مَن هم أكثر منّا عددًا وأوفر مددًا، وهم من أبناء ملّتكم المسلمين الذين يقاتلونكم تحت رايات الاستعمار

الأوروبي. فإن كان المسلم يستبيح لنفسه نصرة الأجنبي المتغلّب على أخيه في الدين والنَّسب، فلا عجب بعد ذلك أن يستبيح العربي المسيحي نصرة الأجنبي على أخيه في النَّسب فقط. فقتال المتنصرة من العرب يوم فتوح الشام إلى جانب الروم كان من قبيل قتال المسلمين اليوم في جانب الدول الأوروبية عندما تزحف على الاستيلاء على بلاد المسلمين، ناشئًا عن الضعف والجهل والعجز والاستخذاء.

ولقد أوجد فتح المسلمين للشام في زمن الخلفاء الراشدين وعصر بني أميّة عداوة بين العرب والروم الذين نزع العرب هذه البلاد من أيديهم، فكان استردادها يعنّ دائمًا على بالهم، وكان الروم يكرّون من وقت إلى آخر على سواحل الشام وسواحل مصر ويغزون المسلمين فيها ويسبون ويعيثون، بحيث إنَّ الخلفاء كانوا يقابلونهم بالمثل ويغزون بلاد الروم ويعيثون فيها ويسبون ويأسرون. وقد ألجأهم الأمر أن يقصدوا إلى القسطنطينية نفسها ليأخذوا بمخنق الدولة الرومانية. وكان الروم يداخلون مَرَدَة جبل لبنان وجراجمة جبل اللّكام، ويثيرونهم على خلفاء دمشق أملاً بإقلاق راحة العرب وأخذًا بالثأر. ولكنَّ العداوة في الحقيقة إنّما اشتدّت بين المسلمين والمسيحيين في الشرق عندما قامت أوروبا بحملاتها الصليبية على بلاد الإسلام، فكانت المصارعة بين الفريقين في الشرق الأدنى من جهة، وفي الأندلس من جهة أخرى. ولم تزَلْ أوروبة تنفخ في هذا النفير من ذلك الوقت. وكلّما هدأت حركة العداء بين المسيحيين والمسلمين في الشرق جاءت الدول الأوروبية فأشعلت نارها. وهكذا لم تزَلْ الفتن بين العنصرين في الروملّي والأناضول إلى أن انفصل كلّ من العنصرين عن الآخر في أخريات هذه الأيام، فخلت بلاد الروملّي من المسلمين، إلاّ بقيّة في أدرنة وجوارها، وخلت بلاد الأناضول جُميعها من النصارى. وكان المسلمون في جنوبي البلقان عدّة ملايين، وكان النصارى في الأناضول عدّة ملايين أيضًا، ففقد كلّ من الفريقين وطنه وانضوى هؤلاء إلى بلاد اليونان وأولئك إلى تركيا. وكلّ هذا منشأه أطماع الدول الأوروبية التي كانت توقد النار بين المسلمين والمسيحيين في الشرق على أمل كسر الدولة العثمانية وتقسيمها بينهنّ. ولمّا انكسرت الدولة العثمانية كسرتها الأخيرة في الحرب العامّة وتقلّص ظلّها

عن البلاد العربية، جاءت الدول الأوروبية التي كانت تقاتل الأتراك بحجّة الانتصار للعرب، فأخذت تقاتل أنفس العرب الذين كانت تزعم إرادة تحريرهم من سلطة الترك؛ فإذا هي تريد نقلهم عن عبودية كانت ناقصة وكانت مقرونة بشيء من المساواة إلى عبودية تامّة ليس فيها إلاّ الخضوع للسلطان الأوربي القاهر، وهي مع ذلك تزعم أنها إنّما جاءت لتحمي الأقلّية المسيحية من تسلّط المسلمين. ولكنَّ إخواننا المسيحيين ـ أو العقلاء منهم ـ يتذكّرون أنَّ حماية هذه الدول لنصارى الأناضول، وكانوا لا يقلّون عن سبعة ملايين نسمة، قد أدّت بهؤلاء إلى خروجهم عن أوطانهم وفقدهم جميع أملاكهم والنعمة التي كانوا يتمتّعون بها من أعصر متطاولة. وقد حاول الإنكليز قبل الحرب العامّة أن يثيروا الأقباط على المسلمين في مصر ليتّخذوا من الأقباط أعوانًا على استعمار إنكلترا للديار المصرية، إلاّ أنَّ الأقباط بعد أن تذبذبوا بعض الشيء في البداية، رأوا الأصلح لهم الاتّفاق مع المسلمين على صيانة استقلال مصر، ومضوا في هذه السبيل غير متردّدين. ولم تكن صفقتهم بذلك خاسرة؛ إذ لا توجد بلاد، الاتّفاق الوطني بين أهلها أشدّ ممّا هو في مصر، مع أنَّ المسلمين مستمسكون بدينهم والأقباط مستمسكون بدينهم. ولكنَّ الجامعة المصرية عامّة للفريقين بدرجة واحدة. وترى المسلمين لا يفرّقون أصلاً بين قبطي ومسلم وإنّما ينظرون إلى نافع وغير نافع ولطالما انتخب المسلمون عن أنفسهم نائبًا من الأقباط بسبب أهليّته.

فكان ينبغي أن يكون مَثَل الأقباط والمسلمين نصب أعيننا جميعًا فنحسن تطبيقه في سورية ونخلص من أيّ أجنبي امتدّت يده إلى بلادنا، ونجعل البلاد لأهلها ولا نُذَلّ لأيّ أجنبي يتغلّب علينا بحجّة أنه جاء يحمي فريقًا من اعتداء فريق آخر! وهو في الواقع يقصد إذلال الفريقين واستغلال الفريقين. فهل يا ترى خسر الأقباط في مصر باتّحادهم مع المسلمين وقيامهم بشأن الوطنية المصرية وعدم استماعهم لوساوس الإنكليز أم ربحوا؟ لا جرم أنهم ربحوا ربحًا ماديًّا ومعنويًّا معًا ولم يقع عليهم أيّ إجحاف ولا أيّ مساس بكرامتهم من حيث هم مسيحيّون. وإنّك لتجد القضيّة المصرية عزيزة على القبط عزّتها على المسلمين من دون فرق، فهل كان هذا الاتّحاد أطبق على مصلحة

الفريقين وأعود عليهما مادة ومعنى إلاّ الافتراق والعمل بدواعي الشهوة والسير وراء الغرض، بحجّة أنَّ القبط هم غير المسلمين وأنه من حيث كان الإنكليز نصارى مثل القبط وجب على هؤلاء أن يشايعوهم حتمًا في ما ساء وما سرَّ، وما نَفَعَ وما ضَرَّ، ولو كان في ذلك مضرّة بالوطن المصري عمومًا؟! وهل يا ترى هذا الوئام الذي جمع شمل المصريين هو أحسن لصالح المصلحة العامّة، أم ذلك الشقاق الذي فرَّق بين الأتراك والأرمن، وبين الأتراك والأروام في بلاد الرومللي والأناضول، حيث لعبت الدسائس الأوربية ألاعيبها فانفجرت الدماء أنهارًا وجرّت على الفريقين مصائب لا تحيط بوصفها الأقلام، وانتهى الأمر بقرار من أنفس الدول الأوروبية اللاّئي كان لهنَّ اليد الطولى في هذا الشقاق البعيد والبلاء العظيم إن قرّرنَ في مؤتمر لوزان سنة ١٩٢٣ جلاء جميع المسيحيين عن الأناضول، وجلاء جميع المسلمين عن الرومللي وجزائر الأرخبيل، فخرج كلّ فريق من الفريقين يندب وطنه وينوح على مسقط رأسه ويلعن أولئك الذين صحّ فيهم قوله تعالى: ﴿ مثلهم كمثل الشيطان إذ قال للإنسان إكفر فلمّا كفر قال إنّي بريء منك إنّي أخاف الله ربّ العالمين ﴾؟!

ثمَّ إنَّ الجماعة العربية الناظمة لشمل المسلمين والمسيحيين من العرب هي أشدّ قوّة وأحصف مريرة بالنظر إلى وحدة الدم واللغة والمصلحة من روابط سائر الأمم الدامجة بعضها مع بعض. وعهدنا أنَّ السوريين واللبنانيين والفلسطينيين يفوقون كلّ قبيل في تقدير المصالح الراهنة والتبصّر بعواقب الأمور بحيث يُضرب بهم المثل في الإدراك وثقوب الفكر وصحّة الحساب. فإذا كانت سائر الأمم تجتمع على كلمة الوطن حفظًا لمصالحها المادّية وكرامتها الأدبية، فمَن أَوْلى من السوريين واللبنانيين بذلك؟ نعَم، إنَّ عرب فلسطين، سواء أكانوا من المسيحيين أم من المسلمين، قد استغنوا، والحمد لله، عن الحثّ على الوئام، ولم تكن بهم حاجة إلى مثل عظاتنا هذه، وذلك بمصيبة اليهود التي حلّت بهم، وكانت ميثاقًا وطيدًا بين المسلم والمسيحي إذ كلّ منهما يعرف ترشيح الإنكليز واليهود لفلسطين أن تكون في المستقبل مملكة يهودية. فكفاهم هذا الخطر مؤونة الوعظ من أجل الاتّفاق، وإن كانوا نُكبوا من جهة أخرى ببليّة امتاز فيها المسلمون على المسيحيين

وهي أنَّ أكثر الخونة الذين رضوا لأنفسهم بخدمة اليهود وسمسروا على الأراضي وتجسَّسوا للإنكليز ومرقوا من العروبة والوطنية، بل مرقوا من الإنسانية، وزوّروا المكاتيب ووشوا على أبناء وطنهم الوشايات التي بها أُزهقت أرواح المئات والألوف من المدافعين عن عروبة فلسطين، هؤلاء كانوا من المسلمين ـ إنَّ الله لا يستحيي من الحقّ.

فأمّا سوريا ولبنان، فعسى أن لا تُصابا بمجيء اليهود حتّى تتّفق فيهما كلمة المسلم والمسيحي. ولنا الأمل في أن تكون العروبة، سواء كانت من جهة الدم أو من جهة اللغة، هي الجامعة الكلّية، لا بين المسلم والمسيحي فقط، بل بين أبناء الفرق الإسلامية من سُنّة وشيعة ودروز وعلويين واسماعيليين، وبين الفرق المسيحية بعضها من بعض من أتباع للكنيسة الشرقية وأتباع للكنيسة الغربية. وهكذا يرتفع شأن الأمّة السورية وتصان منافعها، وتخلص من الذلّة والمسكنة، وتصير من أقوى أعضاء الأمّة العربية. وهذا أولى من السير على قاعدة «بي وبأعدائك يا رب»، ممّا لا يقول به عاقل ولا رشيد. فإنَّ المصالح لا تعمر، والخيرات لا تدرّ، والأوطان لا تصير عزيزة، والأقوام لا تكون محترمة إلاّ إذا بُنِيَت الإدارة على أساس العدل، ودارت السياسة على محور العقل، وفي هذا كفاية.

جنيف، في أيلول سنة ١٩٤٠ — شكيب أرسلان

فرنسا ملّت اليهود ودسائسهم

فجعلت جزاءهم في جزائر الغرب أن أسقطتهم إلى مستوى المسلمين

لا يخفى أنَّ فرنسة، التي لم يأمر الله تعالى بنكالها عبثًا ـ جلَّ تعالى عن العبث ـ كانت من جملة ما أهانت به المسلمين وأسرفت في قهرهم وإعناتهم أنها جعلت لهم في جزائر الغرب قانونًا خاصًّا يُعاملون به كطبقة سُفلى، ويُعامل به أبناء فرنسا كطبقة عليا، ويكونون بهذا القانون أعلى من العجماوات ولكن أدنى من البشر. وقد أصرّت فرنسة على هذا القانون الجائر بحقّ المسلمين ولم ترضَ به بديلاً. وكانت في جميع حروبها منذ مائة وتسع سنوات ـ أي منذ فتحها للجزائر ـ تأخذ من مسلمي الجزائر ألوف ومئات ألوف من شبّان المسلمين يقاتلون في سبيل فرنسة فيَقتلون ويُقتَلون. وفي الحرب العامّة، ساقت منهم ما يناهز ثلثمائة ألف مقاتل، فقُتِل منهم في ساحة الحرب اثنان وستّون ألفًا. ولكن في الحرب الحاضرة، ضاعفت التجنيد منهم، فربّما يكون عدد مَن ساقتهم إلى الحرب من مسلمي الجزائر نحوًا من سبعمائة ألف. فإنَّها قد أخذت من شمالي أفريقيا ما يناهز مليونًا وثلاثمائة ألف، وكان ربع الجيش الفرنسي كلّه من المسلمين. وبرغم هذا، بلغت قلّة الإنصاف من هذه الأمّة العاتية ـ التي لا تحلّل ولا تحرّم إذا ظفرت ـ أنها كانت تأبى أشدّ الإباء تسوية المسلمين في الحقوق وأنواع المعاملات بجميع مَن يساكنهم من غير المسلمين، وذلك منها لأجل الحطّ من كرامتهم والإمعان في إهانتهم، حتّى إنَّها جعلت اليهود الذين هم المثَل المضروب في الذلّة والمسكنة، فوق المسلمين. ولقد خاطب الله تعالى المسلمين بقوله: ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾، فأراد الإفرنسيون تكذيب هذا النصّ الإلهي قصدًا وعمدًا حتّى لا يظنّ المسلمون أنه على شيء من الصحّة، كأنّما يريد الفرنسيس أن يقولوا لهم: «إنَّكم لا تزالون حلفاء الهون والحزن، وإنَّكم الأسفلون ما دمتم مسلمين». ولقائل أن

يقول: إذا كان الأمر كذلك، فكيف يقول الله للمسلمين: ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾، وتأتي فرنسة فتكذِّب قوله تعالى، وتجعل الأعلين أسفلين؟ فنجيب هذا المعترض: « مهلاً، مهلاً، إنَّ كلام الله تعالى حقّ ولا يزال حقًّا، ولكنّه معمول به في المسلمين الذين يعلمون ما الإسلام ويقومون بأوامره ونواهيه، لا المسلمين الذين لم يبقَ عليهم من الإسلام غير الاسم، والذين إذا أهانتهم فرنسا وجعلت اليهود من فوقهم، فضلاً عن النصارى، خنعوا لها وخضعوا رقابهم خضوعًا طبيعيًا لم يأتوا فيه بأدنى مقاومة. بل منهم فئة يفتخرون بأنهم من أتباع فرنسة ويقاتلون في صفوفها بكلّ شرّة، ولا يتذكّرون كيف أهانتهم وأسقطتهم وسلبت أراضيهم وسلّمتها إلى المستعمرين من الفرنج ولم تُبقِ لهم إلاّ وظيفة أن يخدموا المستعمرين ويحرثوا ويزرعوا بالأجرة الضئيلة، ووظيفة أن يموتوا في سبيل فرنسة على حين أنها تهينهم وتذلّهم وتحتقرهم. فالذي يرضى بهذا الذلّ كلّه ولا تأنف نفسه ولا تثور حميّته بإزائه، بل يقابل هذه الإهانة بالتعلّق والمحبّة والافتخار، شأن كلّ ذليل وهوان يحبّ ويعظّم مَن يحقّره، ويكبّ فيقبّل اليد التي تمتدّ إليه بالضرب، هذا بدون شكّ لا يرضى عنه الباري تعالى ولا رسوله، ولا يدخل تحت حكم آية: ﴿ولا تهِنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ ».

لا شكّ أننا لا نعني بهذا جميع مسلمي الجزائر الذين فيهم أبطال طالما جاهدوا ليرفعوا النير الفرنسي عن رقابهم، وخاضوا المعامع في هذه السبيل. ولمّا لم يبقَ في الجزائر قوّة على المقاومة بجميع ما استعملته فرنسة من فنون العنف والقهر، كانت نفوسهم لا تزال تجيش بهم مترقِّبة الفرصة حتّى ترفس ذلك النير الثقيل، وتكيل للأجنبي الغاصب بالكيل الذي كاله وأزيد. فهؤلاء داخلون تحت قوله تعالى: ﴿ألا مَن أكره وقلبه مطمئنّ بالإيمان﴾، ولا كلام لنا في مثلِ هؤلاء. وواجب على المسلمين أن يستمطروا الرحمة على كلّ مَن جاهدوا في سبيل استقلال الجزائر، وفي مقدّمتهم الأمير عبد القادر بن محيي الدين. ولا ننسى الفئة التي تجاهد في هذا العصر، إن لم يكن بالسيوف، فبالأقلام، وفي مقدّمتها السيِّد عبد الحميد باديس الذي توفِّي إلى رحمة ربّه في أوائل هذه الحرب، وكان قد نهض بالجزائر نهضة معنوية ذات بالٍ، رحمه الله وأكثر من أمثاله. وإنّما نذكر

هذه الفئة الضالّة الحمقى المجرّدة من الكرامة وعزّة النفس التي تنكر كلّ علاقة بالعالم الإسلامي وتسمّي نفسها "بالمسلمين الفرنسيين"، وتفتخر بالدولة التي وضعت اليهود فوق المسلمين، ولا تأخذها من ذلك أنفة ولا تشعر منه بخجل. وإنّما هي كما قال المتنبّي:

مَن يهُن يسهل الهوان عليه ما لجرحٍ بميِّتٍ إيلام

ثمَّ هي هذه الفئة التي لا تزال تغري الحكومة الفرنسية بأبناء جلدتها من مسلمي الجزائر وتشدّدها على البطش بهم؛ كما فعلت بمصالي الحاج وحزبه المطالبين باستقلال الجزائر، فزجَّتهم في السجون وارتكبت فيهم أصناف المظالم لأجل جهادهم في تحرير وطنهم وقومهم ورفض العبودية الإفرنسية، والاعتراض على أن يكون ثلثا أرض الجزائر ملكًا للإفرنسيين، مأخوذًا غصبًا من المسلمين، والغضب من أن يكون ثمانمائة ألف ولد من أولاد المسلمين محرومين من أيّ تعليم كان، كالبهائم السارحة في البرّية، بينما جبايات الجزائر تنفق على الإفرنسيين ومصالحهم. والأنفة أنَّ الإفرنسي لا يخاطب الجزائري إلاّ بالكاف وما أشبه ذلك تحقيرًا له، وأنه يوجد أندية فرنسية مكتوب على أبوابها "ممنوع دخول العرب والكلاب إلى هنا"، وأنه إذا قَتل فرنسي مسلمًا في الجزائر لا يمكن أن يُقتل به، وأنه إذا غصب له حقًّا لا يمكن أن محكمة تحكم للمسلم. وقصارى المسلم أن يوكِّل وكيلاً فرنسيًّا يقاوم له الإفرنسي المعتدي عليه، فإن كان حقّه كالشمس لا سبيل إلى المكابرة فيه انتهت المسألة بالمصالحة، فأمّا أن يُحكم لمسلم على فرنسي فهذا غير معهود. ومع ذلك، فقد وُجدت في الجزائر فئة بلغ بها الضلال وفَقْد الكرامة أن تتعصّب لفرنسة وتغريها بالانتقام من أبناء وطنها الذين أبت بهم حميّة أنوفهم أن يقبلوا من فرنسا الاستمرار على هذه الإهانات المخجلة والمعاملات الجائرة.

لمّا كانت فرنسة قد جوزيت هذه المرّة على أعمالها هذه بما جوزيت به، وذاقت من علقم الذلّ ما كانت تذيقه المسلمين وزيادة، وجلس الألمان في عقر دارها يحكمون فيها حكم السادة في العبيد ويشفون صدور جميع الأقوام الذين كانت فرنسة قد ملأتها حسرات وألهبتها جمرات، خطر ببال فرنسة بعد فوات الوقت أن تسترضي مسلمي

الجزائر، فألغت الأمر الذي يقال له: «أمر كريميو»[1] الصادر في ٢٤ أكتوبر [تشرين الأول] سنة ١٨٧٠ الذي يجعل يهود الجزائر الذين كانوا خدمًا وخولاً للمسلمين طبقة عليا من فوقهم، ويجعل المسلمين طبقة دنيا من تحتهم. وذلك لأنَّ اليهودي الجزائري كان يتمتّع بحقوق الوطني الإفرنسي، وبقي هذا الأمر معمولاً به سبعين سنة ولا يخطر ببال فرنسة أن ترقّي المسلم إلى درجة اليهودي. ولو أخذت في كلّ حرب من حروبها خمسمائة ألف مقاتل من المسلمين، كانت لا تأخذ ولا بضع مئات من اليهود، وإذا أخذتهم لم يشهدوا الكريهة[2]، بل جعلتهم في وظائف ليس فيها قتال ولا نِزال.

فهذه المرّة رجع إلى فرنسة عقلها بحكم النكال الذي حلّ بها، والعبرة التي شاهدتها في نفسها، ففكّرت بأنَّ ترقّي المسلمين إلى درجة اليهود، بل الأَوْلى أن يقال أن تحطّ اليهود إلى دركة المسلمين؛ فإنَّ اليهود في هذه الآونة أصبحوا ممقوتين في فرنسا لاعتقاد الإفرنسيين أنهم بدسائسهم زجّوا فرنسة في أتون هذه الحرب التي كانت القاضية عليهم، وأنهم إنّما فعلوا ذلك انتقامًا من ألمانية التي طردت اليهود. فلمّا تأسّست حكومة المارشال بيتين[3]، عمدت إلى تخليص فرنسا من نفوذ اليهود وجعلت تقصّ من أجنحتهم. ومن جملة ما فعلته أنها ألغت أمر كريميو هذا، وذكرت أنَّ يهود الجزائر بعد الآن يُعاملون بالقانون الذي يُعامل به المسلمون. وصرّحت بأنَّ حقوق اليهود المذكورين، السياسية، ستعود مساوية لحقوق المسلمين؛ فيا ذلّ مَن إذا نزل اليهودي ينزل إلى مستواه... ولكن وجد في هذا الأمر استثناءات، وذلك إذا كان اليهودي ممَّن سبق له الخدمة من الوحدات العسكرية بهذه الحرب أو الحرب السابقة أو كان له مكانه خاصّة. وسيجد الناس أنَّ أكثرهم سيدخلون في حكم هذه الإستثناءات بدسائسهم الكثيرة. وأمّا الخدمة

---

(1) واضع هذه الوثيقة هو أدولف كريميو Adolphe Crémieux، محام فرنسي وسياسي مرموق، وُلِدَ في مدينة نيم (Nîmes) عام ١٧٩٦ وتوفّي عام ١٨٨٠. تبوّأ منصب عضو في حكومة الدفاع الوطني. (المحقّق)

(2) المعركة.

(3) بيتان، هو المارشيل فيليب بيتان Philippe Pétain، وُلِدَ في كوشّي الاتور - پا دو كاليه في فرنسا عام ١٨٥٦، صاحب انتصار ڤردان عام ١٩١٦، وقائد القوّات الفرنسية إثر هزيمة طريق الشام عام ١٩١٧؛ الذي قاد سلك القوّات وعاد وانتصر عام ١٩١٨. شغل مناصب وزارية عدّة وكان رئيسًا للحكومة عام ١٩٤٠، ثمَّ أصبح رئيسًا للدولة الفرنسية وهو في الرابعة والثمانين من العمر، وذلك في مدينة ڤيشي، إبَّان الاحتلال الألماني لفرنسا. حُكِمَ بالإعدام عام ١٩٤٥، ولكنَّه نُفي إلى جزيرة ديو، حيث توفّي عام ١٩٥١. (المحقّق)

العسكرية التي من أجلها يستثني اليهود، فلا يستثني من أجلها المسلمون، فإنَّ المسلمين هم وقود النار وخطب الملاحم، تقدر فرنسة أن تأخذ منهم سبعمائة ألف عسكري تقاتل بهم الألمان ولا يرفعهم ذلك إلى درجة الإفرنسي أو الإفرنجي مطلقًا، أو اليهودي قبل إلغاء هذا الأمر. فتأمّلوا يا أُوْلي الألباب! لا جرم أنَّ مَن يقبل الاستعمار ولا يكفر به ولا ينشز عليه يكون في الحطّة نظير العجماوات، إن لم يكن أدنى.

ـ نكتة أخرى

وقد حدّثني صاحب مقام رسمي جاء من فرنسا بهذين اليومين، فقال إنَّ المقري ـ كبير وزراء سلطان المغرب ـ جاء إلى فيشي ليؤكِّد عبوديته لفرنسة في أثناء هذه الشدّة ـ والصديق عند الضيق كما لا يخفى. فبعد أن جاء بأيام قلائل، أقام مأدبة حافلة جمعت كثيرًا من وزراء فرنسة، ودعا إليها سفراء الدول العربية مصر والحجاز والعراق، وهذا أمر لم يكن معهودًا من قبل. فإنَّ هؤلاء المغاربة كان محظورًا عليهم أن يتّصلوا بإخوانهم المسلمين من أهل المشرق، حتّى إنَّهم كانوا لا يجرأون أن يسلّموا عليهم إلاّ خِفية. فهذه النوبة تجرّأ المغربي أن يدعو إلى مأدبة سفراء الدول العربية، ولا شكّ أنَّ ذلك وقع بإشارة من الحكومة الإفرنسية. وقد قابل السفراء المذكورون، وهم محمود فخري باشا سفير مصر، وفؤاد بك حمزة سفير العربية السعودية، ومزاحم بك الباشجي سفير العراق، عمل المقري بمثله وأقام كلّ منهم مأدبة له وُجد فيها كثير من وزراء فرنسا، وتبادلوا عبارات المودّة. وقد سألت محدّثي، وهو ثقة، قائلاً: هذا من جهة الأكل والشرب والمباسطة والمؤانسة، أفلا جرى كلام بما يتعلَّق بحقوق المسلمين في تلك الديار وارتقائهم إلى درجة المساواة مع الإفرنسيين؟ أجابني محدّثي: أمّا هكذا فلا. قلت: على كلّ حال هذه خطوة إلى الأمام لم تكن من قبل، وإنّما أتت بها سيوف هيتلر. وعهدي بالمقري وأمثال المقري لا يجرأون أن يتّصلوا ولو لأجل السلام المعتاد بأحد من مسلمي الشرق.

ومرّة أراد أحد أعيان المغاربة أن يجتمع بي، وكان الإفرنسيّون جعلوا معه جاسوسًا فرنسيًا يلازمه حتّى إذا جاء إلى جنيف لم يتمكّن من الاجتماع بي، ولكنّه وجد خلسة اجتمع بي فيها ولم يكن الجاسوس حاضرًا، وخاطر من أجلي مخاطرة عظيمة. ولمّا عقدنا المؤتمر الإسلامي - الأوروبي في جنيف، منعت الحكومة الإفرنسية أيّ مغربي من حضوره، كما منعت سنة ١٩٣١ أيّ مغربي من حضور المؤتمر الإسلامي في القدس، فلم يحضره إلاّ المكّي الناصري ورجل من آل الكتّاني كان ساكنًا في الشام. فأمّا الكتّاني، فلا يزال في دمشق، وأمّا المكّي الناصري، فرحل إلى تطوان ونشر فيها جريدة «الوحدة المغربية» المعتبرة وقام بجلائل أعمال وطنية. وقد جاءنا إلى المؤتمر الإسلامي - الأوروبي سنة ١٩٣٥ بعض الأفراد من مجاهدي الجزائر، مثل مصالي الحاج وإيماش عمر، اخترقوا حدود فرنسة بدون إذن وخاطروا بأنفسهم، فلمّا رجعوا حكمت عليهم المحاكم الإفرنسية بالحبس مدّة سنتَين. وفي إحدى المرّات صادفت في أحد الشوارع بجنيف عدّة أشخاص من تونس بملابسهم الوطنية كان يصحبهم جاسوس فرنسي، فألقيت إليهم السلام العربي، فأقبلوا عليّ مبتهجين وكانوا يريدون أن نجلس في أحد المقاهي، ولكنّهم عندما عرفوا اسمي تغيّرت ملامحهم واضطربوا وأسرعوا بالانصراف مهرولين. وكان يأتيني إلى جنيف بعض الجزائريين من طريق أنماس ويعودون بسرعة، فأدعوهم وأُلحّ عليهم بالبقاء عندنا يومًا أو يومَين، فيعتذرون بأنهم جاءوا بغير إشارة على تذاكر جوازهم، لأنَّ الحكومة الإفرنسية لا تسمح لهم بالمجيء إلى جنيف لمشاهدة شكيب أرسلان، وهذا ممنوع. ومن هذا القبيل ما إن أحصيناه لا ينتهي، ﴿ ولا تجزون إلاّ ما كنتم تعملون ﴾.

(الاستقلال) جنيف، ١١ أكتوبر

شكيب أرسلان

۞ ۞ ۞

البلاغ الألماني الرسمي بشأن البلدان العربية

ـ صدى هذا البلاغ في الأقطار العربية

من مدّة طويلة، يسعى بعض مَن لهم علاقة بألمانيا من المشتغلين بالسياسة العربية في أن تعلن هذه الدولة، ببلاغ رسمي، احترامها لاستقلال الأمّة العربية، واعترافها بأنَّ البلدان المنفصلة عن السلطنة العثمانية على أثر الحرب العامّة، والتي هي من بلاد العرب، داخلة مصر في ذلك، هي كلّها مستقلّة في نظر ألمانيا. ولقد انتهت هذه المساعي بإعلان الحكومة الألمانيّة رسميًّا البلاغ الآتي، ننقل ترجمته العربية بالحرف:

«إنَّ ألمانيا التي شعرت دائمًا بصداقتها المتينة للعرب، والتي تمنّت لهم حياة عزيزة سعيدة وأن يتبؤّوا[1] مكانًا لائقًا بين شعوب الأرض يتكافأ مع عظمتهم التاريخية وأهمّيتهم الطبيعية، قد تتبّعت دائمًا بعين الاهتمام كفاح البلاد العربية في سبيل استقلالها.

إنَّ الأمم العربية، وهي تجاهد وتكافح في سبيل هذه الغاية، تستطيع أن تعوِّل وتعتمد على عطف ألمانيا التام.

وإنَّ ألمانيا بإعلانها هذا التصريح الرسمي لهي على اتِّفاق تامٍّ مع حليفتها إيطاليا بهذا الصدد». انتهى.

لا جرم أنَّ القرّاء من هذه الأمّة يريدون الوقوف على أفكارنا في ما يتعلّق بهذا البلاغ، ويريدون أن يعرفوا منّا هل نجده نحن كافيًا أم لا؟ فنحن نجيبهم قبل كلّ شيء أنَّ هذا البلاغ، وإن كنّا نجده حسنًا ونعرف جميع الأسبابَ التي حملت على الاكتفاء فيه بهذا القدر الآن، لا نجده كافيًا، وأنَّ الحكومة الألمانية نفسها تعرف منّا أننا لم نجده كافيًا، ولكنّنا نسترعي الأسماع ونستجلب الأنظار إلى نقاط في هذا البلاغ جديرة بمزيد التقدير:

(١) يتبوّأوا.

[النقطة] الأولى - كون ألمانيا العظيمة التي في يدها الآن نحو النصف من قارّة أوروبة، تخصّ الأمّة العربية ببيان رسمي تعترف فيه بأهمّية العرب التاريخية، كأنها تقول للعالم إنَّ هذه الأمّة وإن كانت اليوم قد فقدت مكانتها السابقة كدولة ممتدّة من جدار الصين إلى جبال البيرانيه، ومن حدود القوقاس إلى أقاصي السودان، فإنَّها لا تزال - في نظر التاريخ - تلك الدولة العظيمة التي يجوز أن تعود كما بدأت، وإنَّها في حالتها الحاضرة الراهنة ذات حقوق كبيرة طبيعية وكفاءات عظيمة لا يمكن أحد أن يسلبها إيّاها، مستمدّة من اشتمالها على أقاليم جغرافية من أهمّ أقسام المعمور، يندمج فيها أكثر من النصف من شطوط البحر المتوسِّط، ومن كونها مصدر الإسلام الذي يدين به أربعمائة مليون نسمة بين الشرق والغرب، وفي يدها الحرَمان الشريفان اللذان هما مهوى أفئدة هذه الملايين الأربعمائة من بني آدم، أي خِمس العائلة البشرية.

النقطة الثانية - أنَّ ألمانيا تنظر بعين العطف إلى الأمّة العربية على وجه الإجمال، أي أنها لا تعِدّها من الأمم التي لا ترتاح ألمانيا إلى وجودها بحال القوّة والمنعة ونفوذ الكلمة، بل تعدّها من الأمم التي يمكنها أن تقوى وترقى ويكون من نهضتها وبسطتها فائدة للإنسانية. فهذا إعلان صريح لا تخفى أهمّيته ولا تمكن المكابرة في خطورة شأنه.

النقطة الثالثة - أنَّ ألمانيا مستعدّة للاعتراف باستقلال البلاد العربية إذا كانت هذه البلاد مثابرة على طلب استقلالها، ماضية في الكفاح لأجله، وأنها في أثناء الكفاح تقدر الأمّة العربية أن تعتمد على معاضدة ألمانيا. ولسنا مبالغين في القول بأنَّ معاضدة ألمانيا للعرب تقدِّم وتؤخِّر كثيرًا في مصاير الممالك العربية.

النقطة الرابعة - أنَّ ألمانيا لا تتكلّم بلسان نفسها فحسب في هذا البلاغ الرسمي، بل تتكلّم بلسان نفسها ولسان حليفتها إيطاليا. ولا يقدر أحد أن يقول إنَّ ألمانيا تفتئت على حليفتها إيطاليا وإنَّ إعلانها هذا وقع بغير مشاورة حليفتها.

هذا الذي يخطر لنا الآن من مزايا هذا البلاغ، ولقد تلقّينا من بعض المصادر الألمانية التي يرجع إليها الحلّ والعقد بأنَّ هذا البلاغ - مع أهمّيته - ليس بالبلاغ الأخير، وأنه

قد يكون مقدِّمة لبلاغ آخر فيه من ضمان الاستقلال العربي والاعتراف به بصورة رسمية أكثر ممّا في هذا البلاغ؛ وذلك بعد أن تستوثق دولتا المحور بأنَّ البلدان العربية لن تقف موقف العداء لهما. وتلقّينا أيضًا أنَّ ألمانيا وإيطاليا لا تحتاجان إلى الاعتراف باستقلال مصر والعراق والمملكة السعودية والمملكة اليمنية، وذلك بحجّة أنهما معترفان باستقلال هذه الممالك الأربع من قبل هذه الحرب ومن بعدها، وكان لها سفراء لدى الحكومة المصرية والحكومة السعودية والحكومة العراقية؛ وإن لم يكن لها سفراء لدى إمام اليمن، فلأنَّ الإمام يحيى مستنكف إلى اليوم عن قبول سفراء للأجانب في بلاده، ولكن بينه وبين إيطاليا كما بينه وبين إنكلترا وفرنسا وهولاندا وغيرها، معاهدات تعترف هذه الدول فيها باستقلال اليمن. نعَم، إنَّه إلى حدّ نشوب الحرب الحاضرة لم تقع بين ألمانيا واليمن معاهدات كما وقع بين اليمن وبين الدول الأخرى. ولكن وقعت مراسلات سياسية بين الإمام يحيى وبين زعيم ألمانيا الأكبر تقوم مقام المعاهدات. ومراد الحكومة الألمانية في الإشارة إلى وجوب سفارات لها في الممالك العربية، ومثل ذلك الحكومة الإيطالية، إثبات أنَّ هذه الممالك الأربع، وهي مصر والمملكة السعودية والمملكة اليمنية والعراق، ليست في احتياج إلى اعتراف جديد من قِبَل دولتَي المحور باستقلالها. أمّا من جهة الأقطار العربية الأخرى التي تحت احتلال إنكلترا وفرنسا، فإنَّ دولتَي المحور تريدان حججًا باهرة ودلائل واضحة على كونها نازعة إلى إخراج الدول الغالبة عليها من أرضها، ومعتصمة بحبل الاستقلال دون وصاية ولا انتداب ولا حماية ولا شيء من هذا القبيل.

ونحن قد أجبنا الذين خاطبونا من تلك الجوانب في هذا الموضوع بأنه لا يوجد قطر عربي إلاّ قد صرّح بنزوعه التامّ إلى الاستقلال التام؛ وإن كانت الحوائل المعهودة قد حالت دون هذا التصريح بسبب الضغط الشديد الواقع على هذه الممالك العربية من جهة فرنسا وإنكلترا، فإنَّ الحقائق غير خافية. ولو أُعطيت الحرّية للأهلين أن يختاروا لأنفسهم، لأعلنوا بصفاق الرأي وإطباق الكلمة أنهم لا يرضون من الاستقلال بديلاً. فألمانيا تقدر أن تعلن، إذا شاءت، استقلال هذه الأقطار من دون أدنى حرَج، وتكون

مستريحة البال بأنها تنال في ذلك، هي وحليفتها إيطاليا، مزيد الشكر والثناء من جميع الأمّة العربية التي هي مستعدّة أن تقابل عطفهما بعرفان الجميل.

على أنَّ سورية أعلنت بثلاث عشرة ثورة سالت فيها الدماء كونها لا ترضى من الاستقلال بديلاً. ولمّا عقدت فرنسا مع سورية معاهدة ١٩٣٦، واعترفت فرنسا باستقلال كلٍّ من سورية ولبنان، ثمَّ عادت فارتكبت ذلك الفعل الشائن، وهو تمزيق تلك المعاهدة من دون أدنى سبب سوى الطمع في استملاك البلاد، أعلن مجلس النوّاب السوري باتّفاق جميع الأصوات فيه أنَّ سورية تعرف نفسها مستقلّة استقلالاً تامًّا وترفض الانتداب رفضًا تامًّا، سواء أأرادت فرنسا تصديق تلك المعاهدة أم أرادت تمزيقها.

وأمّا فلسطين، فماذا تريد دولتا المحور دليلاً على استمساكها باستقلالها التام أكثر من ذلك الجهاد الدموي المستمرّ من عدّة أعوام الذي كان هذا القطر يناضل فيه دولة إنكلترا العظيمة نضال المستميت الذي آثر أن يموت على أن يقبل سلطة دولة أجنبية أو أمّة أجنبية عليه؟ وأمّا سائر البلاد العربية التي استضعفتها إنكلترا، مثل سلطنة المكلا، وسلطنة لحج، وإمارات النواحي التسع، وإمارة البحرين، وإمارة الكويت، وغيرها، فهؤلاء لو أُطلقت لها الحرّية، لأعلنت بلسان واحد كونها ترفض كلّ سلطة أجنبية عليها وتنزع إلى الاندماج في استقلال عربي عام. ولا تزال المقاومات بالسلاح، عدا المطالبات باللسان، مستمرّة في هذه الأقطار ضدّ الأجانب المتغلّبين عليها بالغصب والحِيَل والدسائس وشراء الذمم.

أمّا الممالك الأفريقية التي استضعفتها فرنسا وأرادت خنقها خنقًا، فإنّها، بالرغم من ضغط فرنسا الشنيع الذي لا يشبهه شيء في الشناعة والفظاعة، قد أتت ببراهين ساطعة كالشمس على أنها لا ترضى ولن ترضى بشيء دون الاستقلال التام. ففي تونس، ثار الأهالي مرارًا، وآخر مرّة سنة ١٩٣٨ أعلن حزب الدستور أنه لن يخضع لفرنسا، وأنه يطالب بمجلس نيابي يمثّل الأمّة التونسية وتكون الحكومة مسؤولة لديه. وأدّى ذلك إلى قمع دموي سقط فيه مئات من قتلى وجرحى، وجرى من بعده اعتقال ألوف

من الوطنيين. وفي الجزائر جرى أيضًا اعتقال كثيرين من الوطنيين الذين شعارهم: إنَّ الجزائر للجزائريين. أمّا في المغرب الأقصى، ففي سنة ١٩٣٧ انتهت الحركة بقتل الجيش الإفرنسي عددًا كبيرًا من شبّان الوطن ونفيهم عددًا أكبر منهم، وطرحهم في السجون أكثر من ألفي شخص. فهل يُعَدّ هذا من دليل أدلّ على أنَّ هذه الشعوب العربية والإسلامية نازعة إلى استقلالها التامّ وسلطانها القومي غير المنقوص؟

إنّنا معتقدون كون تلك الشرذمة المنافقة التي كانت تتزلّف إلى الحلفاء من بداية هذه الحرب قد أضرّت بالأمّة العربية ضررًا بليغًا بموقفها المخجل لدى الأمم التي استباحت حقوق العرب وأهانت كرامتهم وأسقطت مكانتهم. فبدلاً من أن ينتهزوا فرصة الحرب الحاضرة لأجل أن يطالبوا بجلاء الجيوش الأجنبية وتسليم البلاد إلى أهلها، لم يجعلوا نصب أعينهم غير التملّق للأجانب الغاصبين والكذب على العرب بأنهم راضون بحكم الحلفاء! أو أنَّ الخلاف بينهم وبين فرنسا وإنكلترا هو خلاف لا يمنع كون العرب تفضّل حكم هاتين الدولتين الديمقراطيتين، وما أشبه ذلك من الخزعبلات والأكاذيب يقولونها وهم يعلمون أنَّ ليس لها أثر من الصحّة، وأنَّ العرب والمسلمين عمومًا قد لقوا من هذه الديمقراطية الكاذبة الخائنة المنافقة التي تتلبَّس بها فرنسا وإنكلترا من الاستبداد والاستعباد للظلم والقهر ما لم يكن يحدِّث نفسه بمثله نيرون أو النمرود، أو أي جبار من جبابرة الأرض.

ولكنَّ هذه الشرذمة التي أقدمت على خيانة وطنها بإطراء الغالبين عليه، المستبيحين لحماه، لا تمثِّل في الحقيقة سوى بطونها وأجوافها ومطامعها الخسيسة ومطاعمها الدنيئة. ولو سُئلت الأمّة العربية عن بكرة أبيها لأجابت بأنها براء من هؤلاء المتزعِّمين ومن تلك الجرائد التي كانت قائمة بالدعاية للحلفاء ببدل يؤدّى إليها شهريًّا، فتطبِّل وتزمِّر بحمدهم، على حين لم يكن مأذونًا لأحد أن ينشر كلمة واحدة في الردّ عليهم.

وعلى أيّ الأحوال، بيان ألمانيا هذا فيه تأمين وتأكيد مودّة، وتشجيع للأمّة العربية على المطالبة بحقوقها الشرعية، ووعد بأنَّ ألمانيا تزيدها عضدًا كلّما ازدادت هي بحقوقها

استمساكًا وعلى استقلالها تصميمًا. والبون بعيد جدًّا بين هذه الخطّة من دولتَي المحور، وبين خطّة إنكلترا وفرنسا اللتين، إحداهما إنكلترا، إلى يوم الناس هذا لم تقُلْ كلمة واحدة تدلّ على أنها ترضى بالرجوع في فلسطين عن سياستها اليهودية، بل صرّح مستشار خارجيتها مؤخَّرًا بأنهم لا يؤيّدون اتّحاد العرب العام. والثانية، فرنسا، نزلت إلى الحضيض الأوهد بعد السنام الأمجد، وهي لا تزال زاعمة أنها منتدبة على سوريا ولبنان، وذلك بعد تمزيقها تلك المعاهدة التي كانت اعترفت فيها بإلغاء الانتداب.

وبالجملة، فإنَّ العلامات مشجّعة والإرهاصات إرهاصات خير، ولم يَحِن لنا أن نقول المَثَل الذي كَثُر تداوله في هذه الأيام وهو: « من الدلفة إلى تحت المزراب»، بل علينا أن ننتظر ونتربّص ونرتقب، فأمامنا مدى فسيح لذلك. على أني، وإن لم أجزم بعدم وقوع « دلفة » في المستقبل، أنا جازم بأنَّ « المزراب» هو ما تعلّق بالماضي، وأنَّ المزراب الذي لا مزراب غيره هو إنكلترا، وأنَّ كلّ المزاريب إنّما طرقت على الأرض من بعده، وأنه ليس في الأماكن أخبث ممّا كان.

جنيف، في ٧ تشرين الثاني سنة ١٩٤٠

شكيب أرسلان

إعلان ألمانيا الرسمي في ما يتعلّق بمستقبل البلاد العربية ـ وإعلان إنكلترة في الحرب الغابرة استقلال البلاد العربية ونكثها لعهودها! ـ موقف العرب الصريح من هذه الإذاعات ـ كيف عاهدت إنكلترة بلاد العرب ونقضت هذه المعاهدات

منذ أُعلنت هذه الحرب، تؤكّد ألمانيا وحليفتها إيطاليا ولاءهما للعرب، وميلهما إلى العرب، وعطفهما على العرب، وغير ذلك من النيّات الحسنة التي عند دولتَي المحور بحقّ العرب، وتتّخذان لذلك أصناف الإذاعات من راديو وجرائد ومجلاّت وغيرها.

ومنذ أُعلنت هذه الحرب، وأخذت مذاييع هاتين الدولتين تلقي إلى العالم العربي ما تلقيه من عبارات التأمين والطمأنينة، كان بعض المعروفين من زعماء العرب بكونهم من ذوي العلاقات بألمانيا وإيطاليا ـ استظهارًا بهما على فرنسا وإنكلترة ـ ينصحون لهاتين الدولتين بنشر بيان صريح تقولان فيه بأنهما لا تنويان المساس باستقلال الممالك العربية المستقلّة، ولا الاستيلاء على شيء من الأقطار العربية النازعة إلى الاستقلال، ويؤكّدون لدولتَي المحور بأنَّ بيانًا صريحًا رسميًّا في هذا المعنى من جانبهما يجيء ضربة قاضية على دسائس إنكلترة وفرنسا في بلاد العرب، ويقابل به هؤلاء بين سياسة الإنكليز والفرنسيس الذين لم يتركوا وسيلة من وسائل قهر الأمّة العربية وقصم ظهرها ونثر جامعتها إلاّ أتوها وتفنّنوا فيها، وبين سياسة دولتَي المحور التي ترمي إلى حفظ استقلال ما كان من قبل مستقلاً من ممالك العرب مثل، المملكة السعودية والمملكة اليمنية ومصر والعراق، وإعادة استقلال ما اعْتَدَتْ عليه فرنسا وإنكلترة وحاولت أن تسلبه استقلاله الطبيعي وسيادته القومية الشرعية مثل، سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن والكويت والبحرين وسلطنة عمان، وسلطنتي حضرموت والمكلا، وسلطنة لحج، وامارات النواحي التسع وغيرها، في الشرق، وسلطنة مراكش ومملكة تونس وبلاد الجزائر، في الغرب.

ونحن على ثقة أنَّ إعلانًا كهذا، صريحًا من قبل دولتَي المحور، لو صدر في هذه الأيام، لم يبقَ عربيّ واحد متكلّم بالضادّ إلاّ منحازًا إليهما وعدوًّا لإنكلترة وفرنسا، وإن شذَّ من هذه الأمّة بعض سفلة ساقطين، أو بعض سقط سافلين عن المجموع، فلا يُبالى بهم ولا يُؤبَه لهم، ومثل هؤلاء لا تخلو منهم أمّة.

ولقد أثمر طول التأمّل في هذه المسألة صدور الإذاعة العربية الآتية من قِبَل حكومة ألمانيا، وتاريخها ٢١ تشرين الأوّل ١٩٤٠، ونصّها هو هذا:

«لمّا كانت ألمانيا تشعر بالصداقة الصميمة للعرب وترغب في رفاهيتهم وسعادتهم، كما ترغب في أن ينالوا المكان اللائق بهم وبأهمّيتهم التاريخية والطبيعية بين شعوب الأرض، فهي قد كانت ولا تزال تتبع كفاح البلاد العربية في سبيل استقلالهم باهتمام.

إنَّ البلاد العربية يمكنها ـ وهي في حال سعيها إلى هدفها هذا ـ أن تعتمد في المستقبل على عطف ألمانيا التامّ؛ وإنَّ ألمانيا بإعلانها هذا التصريح الرسمي لَهِيَ على اتِّفاقٍ تامٍّ مع حليفتها إيطاليا».

فنقول في هذا البيان إنَّه بيان لا بأس به، بل هو بيان جميل، وإنَّ فيه دلائل عطفٍ أكيدٍ واستعدادٍ حسنٍ وثيقٍ من ألمانيا نحو العرب لا جدال فيهما، وإنَّ فيه أيضًا اعترافًا من ألمانيا بأهمّيّة العربِ التاريخية والطبيعية التي تؤهّلهم للاستقلال. وكلّ هذا، نُقرُّ ونعترف، بأنه صريح، إلاّ أنه لا يقال فيه إنَّه اعتراف باستقلال تامٍّ ناجز للعرب، ولا إنَّه يرفع الأخذ والردّ في المستقبل إن اعتدت ألمانيا، أو إيطاليا حليفتها، على شيء من بلاد العرب...

لقد كاد هذا البيان يكون أوقع في نفوس العرب وأدعى إلى ثقتهم وطمأنينتهم، وأجدر أن يعتمدوا عليه ويعضّوا بالنواجذ، لولا الانهيار الأدبي الذي غلب في هذا العصر عمومًا، ولولا أنَّ الدول العظام سارت على سنّة منكرة قبيحة، لا سيّما في الزمن الأخير، وهي تحرير نصوص المعاهدات والبلاغات الرسمية على شكل يمكن احتمال تأويله على وجهَين، بل على وجوه، ويقدر المتعهِّد أن يتفصّى فيه من عهده من دون عناء كبير، لا سيّما إذا كان المتعهِّد دولة كبيرة.

نحن لا ننازع في أنَّ هذه السنّة القبيحة في تحرير المعاهدات والبيانات الرسمية بشكل مبهم، محتمِل لتعدُّد وجوه التأويل، كان أول مَن سنّها بين الدول بريطانيا العظمى التي ظنّت أنها أتت في ذلك دهاء وأثبتت مهارة سياسية لا تتهيّأ لغيرها، حتّى قيل إنَّ في نظارة الخارجية الإنكليزية دائرة خاصّة يُحال إليها تحرير المعاهدات والبيانات الرسمية التي تتعمَّد إنكلترة فيها الكذب والنكث واختداع دولة تريد أن تسكّنها مؤقّتًا إلى أن يتاح لها الغدر بها، أو خطاب شعب تغلب عليه السذاجة، فترى إنكلترة وجوب الضحك من ذقون أبنائه... إلخ.

وحقيقة الحال «فمَن نكث فإنّما ينكث على نفسه»، وإنَّ إنكلترة بسنّتها هذه الشنيعة قضت على احترام الناس للعهود والمواثيق، وقضت على نفسها بنفسها؛ إذ لم يبقَ في البشر مَن يصدّقها أو مَن يقيم وزنًا لعهودها أو مواعيدها. وصار كلّ مَن صافحها بيده يعدّ أصابعه بعد ذلك، حسبما جاء في المثل السائر؛ فالذي فعلته إنكلترة لم يكن من الدهاء في شيء. وكلّ كذّاب في الناس لا يمكن أن يكون داهية، فإنَّه إنّما يختدع الناس مرّة أو مرّتين وبالكثير ثلاثًا، وبعد ذلك لا يبقى على وجه الأرض مَن يأخذ بقوله أو يصدّقه ولو عثر مرّة بالصدق. فلا نبالغ إن قلنا إنَّ الإنكليز، باستعمالهم الكثير لهذه الطريقة المعيبة في معاهداتهم، فقدوا كلّ ثقة من الناس شرقًا وغربًا، وصار الآخرون يقتدون بهم في هذا الأسلوب الخاسر، فيفقدون الثقة أيضًا. وما زال هذا المرض يفشو في الأرض - وأساسه الإنكليز - إلى أن لم يبقَ للعهود ولا للبيانات الرسمية شيء من الشأن الذي كان لها في الماضي. فهذه قوّة أدبية عظيمة قد انهارت وضاعت فوائدها على العالم.

إن خضنا عباب التمثيل وقعنا إلى بحر لا ساحل له، ولكنّنا نأتي على عمل إنكلترة بالعهود ببعض أمثلة ليُقاس عليها:

كنّا صيف سنة ١٩٢٢ في لندرة نحتجّ على قرار مجلس عصبة الأمم الملتئم وقتئذٍ في تلك العاصمة - التي تذوق اليوم جزاء فسادها في الأرض - فذهبنا، نحن الوفد السوري - الفلسطيني، إلى وزارة الخارجية الإنكليزية لنطالب بتنفيذ العهود التي قطعتها إنكلترة للأمّة العربية. فجاء لمقابلتنا رجل يُقال له آدم فوريس يتولّى مسائل الشرق في تلك

الوزارة، فكلّمناه في هذا الموضوع وتولّيت، أنا الفقير إلى ربّه، شقّ الخطاب، فقلت له إنّ الأمّة العربية تطالبكم بإنفاذ المعاهدة التي عقدتموها معها. فما رأيته إلاّ نبر قائلاً: «أنتم العرب تذكرون دائمًا معاهدة عقدت بيننا وبينكم وليس بيننا وبينكم معاهدة». فقلت له وقد نُبرت أكثر ممّا نبر: بلى، تعهّدتم للملك حسين بن علي على لسان الجنرال مكماهون، ممثّلكم بمصر، باسم ملك الإنكليز بعهود محرّرة لا تقدرون أن تنكروها وقد انتشرت في الآفاق. فهل هذه عهود تربطكم بإزاء العرب أم لا؟ فلمّا رأى أننا نعلم ماذا نقول وأنّ موقفنا لديهم موقف مطالب بحقّ لا موقف سائل، عَدَل عن اللهجة الأولى وقال لنا: «ونحن قد أوفينا بعهودنا هذه، فماذا تريدون؟»، قلت: هذه العهود تقضي بأن تكون سورية وفلسطين من ضمن المملكة العربية المستقلّة، وأنتم احتللتم فلسطين، وحلفاؤكم الإفرنسيون احتلّوا سورية واحتلّوا لبنان. قال: «هذا انتداب. والانتداب لا ينفي الاستقلال». قلت له: أتريد أن تقول إنّ ما نحن فيه الآن هو الاستقلال؟ أتحسب أنك تكلّم أطفالاً؟ إنّنا لا نعترف بانتدابكم هذا أبدًا. ونهضتُ أنا ورفاقي وتركناه واجمًا. وكنت ألقيتُ خطابًا في أوتيل سيسل بلندرة في مأدبة كان فيها اللورد سدنهام واللورد لانتون، وغيرهما من كبار الإنكليز، ذكرت فيه كيف أنّ إنكلترة وفرنسا كانتا سنة ١٩١٢، أي قبل الحرب العامّة بسنتَين، قد تقاسمتا سورية وفلسطين بموجب معاهدة خفيّة لم تعترفا بوجودها إلاّ بعد نشوب الحرب. فادّعاء هاتين الدولتين أنهما لم تكونا مستعدّتَين للحرب، وأنهما لم تحتلاّ سورية وفلسطين إلاّ بنتائج الحرب، هو كذب محض. قلت هذا القول في وجه لوردات الإنكليز من دون محاباة، إذ كان مثل هذا العمل الشائن يستحقّ مثل ذلك القول الجارح. ﴿إنّ الله لا يحبّ الجهر بالسوء من القول إلاّ من ظلم﴾. ولقد اغبرّت وجوه أولئك الجماعة عند سماعهم وصف دولتهم المتكبّرة بالكذب والرياء مع تكرارهما، ومنهم مَن أشار إلى جيرانه من العرب وهم على المائدة بوجوب الاعتدال، ولكنّ واحدًا منهم لم يجرؤ على الردّ زاعمًا أنّ هذه الأكاذيب لم تقع. وفي اليوم التالي صدرت الجرائد وفيها جميع خطابي بما فيه من القوارص، وقولي: «إنّنا سننال استقلالنا بأيدينا برغم الدول المعتديات علينا».

وحدَّثني يومئذٍ رفاقنا الفلسطينيون أنهم عندما واجهوا رجال حكومة إنكلترة وطالبوهم بإنفاذ عهود إنكلترة إلى الملك حسين، ومن ضمنها كون فلسطين من البلاد العربية المستقلّة، حاول الوزراء الإنكليز أولاً أن ينكروا دخول فلسطين في جملة البلاد العربية التي تعهّدت إنكلترة باستقلالها. فنبّههم الوفد الفلسطيني إلى نصّ العهد الذي يتضمّن استقلال البلاد، من جبال طورس شمالاً إلى عدن جنوبًا، ومن البحر المتوسِّط والبحر الأحمر غربًا إلى حدود فارس شرقًا، وقال لهم: «كيف يمكن، والحالة هي هذه، إخراج فلسطين من هذا المحدود؟»، فقال لهم الإنكليز: «إلاّ أننا نحن استدركنا على الشريف حسين وذكرنا في جواب طلبه أنَّ غربي سوريا غير داخل في هذا المحدود لأنه عائد إلى فرنسا!»، فقال لهم إخواننا الوفد الفلسطيني: «سبحان الله! إنَّكم قلتم للشريف حسين هذه الجملة، وهي: إنَّ لحليفتنا فرنسا مصالح في البلاد الواقعة إلى الغرب من المدن السورية الأربع، دمشق وحمص وحماه وحلب. فهل هذه الجملة يكون معناها أنَّ البلاد السورية الواقعة غربي المدن الأربع مستخرج من حدود المملكة العربية وتصير تابعة لفرنسا؟ أنتم ما زدتم على جملة «مصالح لفرنسا»، فمصالح لفرنسا تُقدَّر بقدرها، ولا تعني أنَّ بلاد العلويين وجبل لبنان وجبل عامل صارت بهذه الجملة تابعة لفرنسا. ثمَّ إنَّنا لو فرضنا المحال وكانت هذه الجملة تعطي حقًّا كهذا لفرنسا، فكيف تصنعون بفلسطين التي لا يوجد عليها استدراك كهذا؟ وأنتم قد أخرجتموها من بلاد العرب المستقلّة، فأين هذا من الحدود المنصوص عليها في العهد؟

حينئذٍ كان جواب حكومة إنكلترة هو هذا: «إنَّ فلسطين داخلة في المنطقة التي قلنا إنَّ فيها مصالح لحليفتنا فرنسا؛ وذلك أنها غربي لواء الكرك ولواء حوران، وهذان كانا تابعين دمشق، فتكون فلسطين واقعة غربي نفس دمشق، إحدى المدن الأربع». فضحك الفلسطينيون من غرابة هذا التعليل ولكنَّهم قالوا لهم: إنَّ فرنسا ليست محتلّة لفلسطين، فكيف تطبّقون هذا على هذا؟ فقالوا لهم: «إنَّ فرنسا نزلت لنا عن الانتداب على فلسطين فصار لنا حقّ الانتداب عليها الآن».

بمثل هذه المماحكات الفارغة، ظنّت إنكلترة أنها قد أصابت أغراضها ونالت آرابها، والحال قد أخطأت الحفيرة. وقد كنت أحدّث بهذه الغرائب السنيور جيوليتي، رئيس وزراء إيطاليا الأسبق، فضحك هو أيضًا وقال لي: "هذه شنشنتهم من أخزم[1]، لا يبرمون معاهدة إلاّ وقد أودعوا فيها عبارات مبهمة تحتمل الوجهين". وكم من مرّة أبرموا معاهدة وكانوا في الخفاء قد أبرموا ضدّها. قال لي: "وقد كذبوا علينا كما كذبوا على العرب، ولذلك لم يكن من رأيي دخول إيطاليا في الحرب العامّة". هذه شهادة شيخ من أكبر ساسة أوربا بحقّ الإنكليز.

ويروي عن بسمارك أنه كان يتبرّم بسياسة إنكلترة، فقيل له: اتّفق معها. فقال: كيف يمكن أن اتّفق معها؟ قالوا: تعقد معها معاهدة. قال: ما أجهلكم! أتظنّون أنَّ إنكلترة ترتبط بمعاهدة إن كانت تريد أن تتفضّى منها، إنَّها لا تدخل تحت عهد إن لم يكن قابلاً لعدّة تأويلات".

ما زالت إنكلترة تابعة لهذه الخطّة حتّى فقدت كلّ ثقة بين الناس، وهي هي المسؤولة عن سقوط جمعيّة الأمم التي أرادت أن تجعلها آلة لأغراضها، لا محكمة عليا ومرجعًا للجميع. فلمّا صار فيها الوزن بميزانَين والكيل بمكيالَين، فارقتها اليابان، ثمَّ ألمانيا، ثمَّ إيطاليا. وحسبك بفراق هؤلاء لها حطّة لدرّها وإسقاطًا لمكانتها، والآن تحصد إنكلترة ما زرعت. أمّا فرنسا، فقد حصدت ودرست وذرّت وانتهى الموسم وذاقت منه ما ذاقت.

ونعود إلى تصريح ألمانيا بحقّ العرب فنقول، إنَّ ألمانيا أجلّ من أن توصم بما وصمت به إنكلترة من جهة التلاعب بالعهود والتفنّن بالمماحكات الفارغة. ولكنّنا، برغم هذا، لا نجد هذا التصريح كافيًا، وإن كان حسنًا. ولنا الرجاء في أن يتبعه بيان أوفى وأوعى وأحوط وأضبط يكون شاملاً وصادرًا من دولتَي المحور معًا، وبذلك يُثلج صدر الأمّة العربية وتدور سياستها في الأرض على محور المحور.

---

(1) المقصود بها هنا، عاداتهم.

والأمّة العربية سبعون مليون نسمة بين آسية وأفريقية، والعالم الإسلامي أربعمائة مليون نسمة هو عضدها، وسيكون لهذا العالم مستقبل من النهوض والتماسك غير بعيد، فمَن يسلفه الجميل فلن يخسر، وقد يُحمد السُّرى[1].

جنيف، ٢٧ رمضان/ وفق ٢٠ تشرين الثاني

شكيب أرسلان

---

(١) وهو سَيْر عامّة الليل. والمثل القائل: "عند الصباح يَحْمَدُ القوم السُّرى" يُضرب في احتمال المشقّة والحثّ على الصبر حتى تُحْمَد العاقبة. (المحقّق)

هذا مبلغ ادّعائهم وقد انهزموا هزيمة لم يعرف مثلها التاريخ

فكيف يا ليت شعري لو كانوا انتصروا والعياذ بالله

تقدَّم لنا، وفي أكثر من موضع، تشخيص درجة عماية فرنسا وغرورها وسكرها واستخفافها بالبشر في ما لو كان الباري سمح وتأذّن في انتصارها بهذه الحرب، وسبق لنا تقدير ماذا يكون منها في مثل تلك الحالة من تجاوز كلّ حدٍّ في استعباد المسلمين وبخاصّة العرب، الذين كانت تعتقد أنَّ أقدس واجب عليها هو تمزيقهم كلّ ممزق ومحوهم من لوح الوجود إن استطاعت، بحجّة أنَّ نهضتهم في الشرق تؤدّي إلى سريان عدوى نزعة الاستقلال إلى الأمم المغربية، فتخرج بعدئذٍ مراكش والجزائر وتونس من يد فرنسا، على حين أنَّ الإفرنسيين يطلقون على هذه البلدان اسم أفريقية الإفرنسية، وكانوا إذا خُيِّروا بين فقد الإلزاس واللورين وفقد شمالي أفريقية، فضّلوا مرارًا أن يفقدوا الإلزاس واللورين على أن يفقدوا مراكش والجزائر وتونس التي فيها من الخيرات ما لا يحصيه إلاّ الله تعالى، والتي أهلها هم اللحم وفرنسا هي السكين، فهي تفعل بهم كلّ ما تريد من دون إثم ولا حرَج، ومن صنف الأجناد تأخذ منهم مليونًا وثلثمائة ألف شاب هم وقود نارها في الحرب.

ولقد منَّ الله على الكرة الأرضية عامّة، وعلى أمّة محمَّد بخاصّة، بعدم تحقّق أحلام فرنسا في النصر، وبذهاب مداهنات أولئك المنافقين ممّن يزعمون أنهم مسلمون، وبيعهم ضمائرهم لفرنسا وذلك أدراج الرياح. وكانت الهزيمة التامّة والدبرة الكبرى على تلك التي لم ينافقوا لها هذا النفاق الفاضح كلّه إلاّ على ظنّهم أنها ظافرة لا محالة، فانكسرت وانهزمت ﴿ وقُضي الأمر وقيل بعدًا للقوم الظالمين ﴾.

وظننّا وظنّ كلّ عاقل معنا أنَّ فرنسا بعد مصابها هذا تثوب إلى رشدها وتُقلع عن غرورها وتطأ من خيلائها وتعرف أنَّ الله حقّ، وأنَّ البغي مصرع، وأنَّ الكبرياء رداء الله، وأنَّ مَن تردّى بردائه تعالى قسمه الله شطرين ـ كما قسم الآن فرنسا إلى شطر تحتلّه ألمانيا، وهو ثلاثة أخماس فرنسا، وشطر باقٍ من دون احتلال، وهو الخمسان الباقيان ـ ولكن خابت آمالنا هذه ورأينا أنَّ فرنسا لا تزال فرنسا وأنَّ طبعها غالب عليها لا حيلة فيه للمصائب ولا للعِبَر؛ وإن هي خضعت وأسلست واعترفت بالانكسار واستنامت إلى الذلّ، فذلك أمام ألمانيا التي قهرتها وجدعت أنف خنزوانتها. فأمّا نحو المسلمين، فلم يحسّ أحد من جهتها نيّة إقلاع عن خطّة عسف أو جنوح إلى نزعة اعتدال. ففي سورية ولبنان يوهم عمّالها وأذنابها أنها باقية هناك، ماكثة لابثة غير متزحزحة حتّى لو فُرض أنَّ الحرب انتهت بانتصار ألمانيا في جميع المواطن! وقد فكّر بعض السوريين أنَّ فرنسا قد تبادر في ساعتها هذه الشديدة إلى إعلان استقلال سورية ولبنان فعلاً، ومحو ما علق بأذهان العرب من شناعة نكثها بالمعاهدة الإفرنسية ـ السوريّة، فلم تفعل فرنسا من ذلك شيئًا. وظاهر أنها تؤمل أن تبادل على سورية وتقدّمها للفئة التي يتمّ لها الظفر الأخير بدلاً عن مسامحات أو مساعدات تنالها من تلك الفئة الغالبة. والحال أنها لو سلّمت سورية إلى أهلها لم يبقَ لها وجه للمقايضة عليها. ويجوز أن تؤمل دخول الحرب في شكل غير الشكل الذي انساق إلى الآن، وباب الأمل واسع كما لا يخفى، فتعود فرنسا إلى موالاة إنكلترة، وبواسطة «الغول» الذي هو اليوم حليف لإنكلترة تعود فرنسا فتبلع سورية ولبنان ثانية. لا تأويل لاستمسال فرنسا بقضيّة سوريا إلاّ بأحد هذين الاحتمالين.

ومن الغرائب أنَّ دولة قد حلَّت بها هذه الهزيمة الشنعاء واحتلّ العدو أكثر بلادها لا تبرح تتكلّم على إمبراطوريتها، وتجعل سورية ولبنان من جملة أجزاء هذه الإمبراطورية! وإنّي لباعث إلى «العلم العربي» بقطعة من جريدة «الطان» تذكر فيها خبر مقتل المسيو كياب، المندوب السامي الذي عيّنته فرنسا مؤخَّرًا خلفًا للمسيو بيو، وتقول فيها إنَّ الجنرال دنتز مكان المسيو كياب مندوبًا ساميًا لها في سورية كان له وقْع حسن في أنقرة، إذ دلَّ

تركيا على اهتمام فرنسا بحفظ التناسب في إمبراطوريتها، فإنَّها جعلت الجنرال فيغان في شمالي أفريقية، والجنرال دنتز في سورية.

إذن نحن أصبحنا من ضمن إمبراطورية فرنسا! وإن عَجِبْتَ أيها القارئ، فاعجبْ لدولة لا حكم لها على نفسها في وسط ديارها، وهي لا تزال تزعم الحكم علينا في بلاد عربية تبعد عنها ألوفًا من الكيلومترات.

أمّا في مراكش والجزائر وتونس، فالدعاية الإفرنسية تسعى بيدَيها ورجلَيها في إقناع إخواننا المغاربة بأنَّ الجبال تزول والكواكب يعتريها الأفول، ولكنَّ حكم فرنسا عليهم لا يتزلزل ولا يتزعزع ولا يحول. وقد تقوم الساعة وينتصب الميزان ويبقى هنالك الملك لفرنسا لا للواحد القهّار... وقد يعيد الله نظْم الأكوان من جديد من بعد يوم الحساب، عملاً بقوله تعالى: ﴿ كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعدًا علينا آنّا كنّا فاعلين ﴾ ولكنَّه لن يمسّ هذا حكم فرنسا على شمالي أفريقية! فلهذا تجد السكون التام مخيّمًا على هاتيك الأقطار خوفًا من أن يحلّ بهم غضب فرنسا فيما إذا حدَّثتهم أنفسهم بشيء من المطالبة بحقوقهم. فلقد بلوا من ظلم فرنسا وانتقامها وجبروتها ما جعلهم لا يصدّقون برحيلها عنهم ولو نظروه بأعينهم ولمسوه بأيديهم. هذه نتائج مظالم الإفرنسيين للمسلمين، ولكن سيقرعون سنّ الندم على مظالمهم هذه ويذوقون ما أذاقوا غيرهم، (فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيرًا).

جنيف، ١٥ كانون الأوّل

شكيب أرسلان

ألمانيا وإيطاليا إزاء البلدان العربية

نشرت جرائد سويسرة في تاريخ ٥ كانون الأوّل، تحت عنوان «الريخ[١] والإسلام»، برقيّة رسمية واردة عليها من برلين، نصّها هو هذا بالحرف:

«في الأيام الأخيرة، أذاعت إنكلترة في البلاد العربية أنّ دول المحور تنوي أن تحتلّ البلاد العربية وأن تحفظ لنفسها بها».

فلأجل تفنيد هذه الدعاية، ولأجل تنوير الأمّة العربية بما يتعلّق بالسياسة الألمانية نحوها، قد أذاعت الحكومة الألمانية بالأثير، وباللغة العربية، البيان الآتي:

«إنّ ألمانيا التي كانت دائمًا تنطوي على عواطف وداد للأمّة العربية، والتي تتمنّى أن تراها راقية سعيدة، حائزة المنزلة التي تستحقّها بين شعوب الأرض، قد تتبّعت من القديم بمزيد الاهتمام كفاح الأمّة العربية في سبيل استقلالها، وإنّ البلدان العربية لتَقدر أيضًا على أن تعتمد على مزيد عطف ألمانيا في جهادها المنصرف إلى إدراك هذا الغرض، وإنّ ألمانيا، في بيانها هذا، لَعلى وفاق تامٍّ مع حليفتها إيطاليا في هذا الغرض السامي».

ثمّ نشرت الجرائد السويسرية خبرًا واردًا من رومية في ٥ كانون الأول، بأنّ المحافل الإيطاليّة تُعِدّ البيان الألماني المذاع بالأثير باللغة العربية، عمّا يتعلّق بحسن نيّات ألمانيا نحو الشعوب العربية تدبيرًا مقرّرًا باتّفاق تامّ بين دولَتي المحور. ثمّ إنّ الجرائد الإيطالية في هذا النهار قد علّقت شروحًا إضافية على هذا البيان، وقالت إنّ سياسة رومية وبرلين قائمة على أساس التحالف مع الشعوب العربية. ولهذا، فهي تأخذ بيد العرب حتّى يحصلوا على استقلالهم الناجز. وهي تقول: «إنّ هذا البيان يشمل بالبداهة مصر والبلدان المتعلّقة بها (السودان) وبلاد شبه الجزيرة العربية داخلة فيها سورية وفلسطين».

(١) المقصود به «الرايخ» الألماني. (المحقّق)

هذه بالحرف ترجمة البيان الألماني المعبّر عن شعور ألمانيا وإيطاليا نحو العرب. والقارئ يرى أنّ هذا النصّ الذي نشرته جرائد سويسرة هو نفس النصّ الذي جاءنا من وزارة الأمور الخارجية الألمانية لهذا البلاغ الذي وجهّته ألمانيا إلى العرب وبعثنا به في أوائل تشرين الثاني المنصرم إلى الجرائد العربية الاستقلالية في الأرختنين، مُعلّقًا عليه من عندنا من الملاحظات بشأنه.

إنّنا نعيد الآن تلك الملاحظات بعينها ونقول للعرب جميعًا، من أيّ قبيل وفي أيّ قارّة، إنّ اعتمادهم يجب أن يكون على أنفسهم، لا على ألمانيا، ولا على إيطاليا، ولا على إنكلترة، ولا على فرنسة، ولا على تركية، ولا على غيرها. فليس في هذه الدول دولة، إذا استطاعت أن تأكلنا، تتعفّف عن أكلنا؛ وفي ماضي بعضها ما يدلّ على أنّ هذه كانت تتعمّد إهلاك الأمّة العربية حتّى لا تقوم لها قائمة وتزداد هي قوّة، فتبقى آمنة على مستعمراتها.

نعَم! نقدر أن نقول ـ ووجداننا بما نقوله مستريح، والله وعباد الله على ذلك شهداء ـ إنّ ألمانيا لم تكذب على العرب ولا مرّة، ولا غدرت بهم ولا سامتهم خسفًا، ولا أرهقتهم عسرًا، ولا أمكن العرب أن يقيّدوا لها في فذلكة سيّئات أوربة إليهم سيّئة واحدة. فهي، إلى هذه الساعة، بريئة من دم هذا الصديق. فلهذا نحن نتلقّى بيان ألمانيا هذا بالتفاؤل وحسن الظنّ، ونعتقد بأنّ إيطاليا لا تخالف حليفتها ألمانيا. وإنّنا على وجه الإجمال، نعدّ صديقًا لنا كلّ مَن يعادي فرنسة وكلّ مَن يعادي إنكلترة، وعدوًّا لنا كلّ مَن يواليهما، أيًّا كان وأنّى كان. وهذه العداوة منّا لهاتين الدولتين اللتين نهلتا وعلتا من دماء الأمّة العربية، وشبعتا من لحمها وشيّدتا بوانيها على أنقاض العروبة والإسلام، تبقى متغلغلة في نفوسنا، ممتزجة بدمائنا ولحمنا وجميع جوارحنا حتّى يخرج آخر إنكليزي من فلسطين ومصر والسودان وأطراف جزيرة العرب؛ هذا فضلاً عن سائر الممالك الإسلامية التي قضت إنكلترة على استقلالها، وحتّى يخرج آخر فرنسي من سورية ولبنان ومن مراكش والجزائر وتونس. ولو لم يكن لألمانيا عندنا حسنة سوى قصمها لظهر فرنسا العاتية التي فعلت بالعرب والمسلمين من أنواع القهر ما لا ينساه العرب والمسلمون أبد الدهر، ولو لم يكن لألمانيا مأثرة في الدنيا سوى كونها أقبعت أولئك الإنكليز الشامخين

أكنان الدجان، وجعلتهم يعيشون آناء ليلهم وأطراف نهارهم في ظلمات المخابئ، فرارًا من نيران طيّاراتها، لكان ذلك كافيًا لنمدّ أيدينا لمحالفتها. فمَن كان عدوًّا لأعدائنا فهو صديقنا بطبيعة الحال.

ونحن نعلم أنَّ هيتلر قد اجتمع قبل هذه الحرب بقليل، وذلك بمندوب عربي قادم من قِبَل إحدى دول العرب، فكان من جملة ما قاله الزعيم الألماني للمندوب العربي: « إنّي طالما طالعت في صبايَ تاريخ الفتوحات العربية، فكنتُ مفتونًا بأولئك الأبطال من قادة العرب الذين زيّنوا التاريخ بأفعالهم الباهرة، وطالما عشقت أخلاق العرب العالية وما اتّصفوا به من كرم وفتوّة وبسالة وعفو عند المقدرة، وإنّي واعدك بالعمل الجدّ في أوّل فرصة لأجل تحقيق الآمال العربية».

فنحن الآن ننتظر ختام هذه المصارعة العالمية بقهر إنكلترة التامّ، كما سبق ذلك قهر فرنسة التامّ، ونرى ماذا يكون من إنجازِ المواعيد الذي بذلها لنا « الفوهرر[(١)]»، وفّقه الله، ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾.

جنبرة، في ٨ كانون الأوّل

شكيب أرسلان

---

(١) هتلر.

بعد انتصار إنكلترا على إيطاليا
بدأ المصريون يقلقون على مصيرهم...

ـ بين الإنكليز والترك اتّفاقات سرّية يجب أن تحذر منها الأمّة العربية

من عادة الدول الاستعمارية، إذا وضعت نصب عينَيها أخذ مملكة شرقية، أن تتودَّد إلى أهلها وتتزلَّف وتتبصبص، وتبحث عمَّن لهم نفوذ الكلمة في تلك البلاد، فتتقرّب إليهم وتتحبَّب ما استطاعت، إلى أن يظنّ هؤلاء الناس أنها إن استولت على بلادهم عبدتهم من دون الله تعالى ووضعت مالها ورجالها تحت طلبهم. فما هي إلاّ أن تدخل وتستولي وترفع علَمها على ذلك القطر حتّى تقلب لأولئك الزعماء ظهر المجنّ، وتعاملهم بعكس ما كانت محتاجة إليهم. وقد يكون منها أن تحتقرهم وتهينهم فيما بعد، وإن كانوا قبل الاستيلاء قد تناولوا منها أموالاً، فربّما تنتقم منهم وتضبط أملاكهم، ويصدق فيهم المثل القائل: «أكل إبرة وقاء مسلّة». وقد رأيت من هذا الباب عدّة حوادث وقعت مع أناس كانوا حطبوا في حبل الأجانب بين يدَي الاستيلاء النهائي، حتّى إذا قضى الأجنبي وَطَرَهُ ونال إربه، عاد فباق بهم وخاس ونكث وأساء إليهم. علمتُ هذه الحوادث بتفاصيلها وهي جمّة.

ومن عادة الدول الاستعمارية أيضًا أنها لا تنتظر الاستيلاء النهائي حتّى تقلب لأصحابها هؤلاء ظهر المجنّ وتردّهم يعضون أناملهم ندمًا، بل تبدأ معهم بتغيير المعاملة منذ يبدأ بها الشعور أنها أصبحت مستغنية عنهم وأنَّ فوزها أصبح مضمونًا.

وممَّن ظنَّ أنَّ إنكلترة ستكون له عند فوزها أطوع له من بنانه، فلمّا أشرفت على مرادها أحسّ منها نيّة النكث المرحوم الملك حسين بن علي ـ عفا الله عنه ـ الذي، قبل انتهاء الحرب العامّة، كتب إلى الحكومة الإنكليزية كتابًا لم يكن سرًّا من الأسرار

حيث إنَّه نشره في الجرائد، ومآله: أنه شعر بأنَّ العظمة البريطانية ـ على تعبيره ـ قد تعدل عن تنفيذ ما عاهدته عليه. فإن كانت هذه هي نيّتها، فلتجد له جزيرة في أملاكها الواسعة ينتقل هو وأولاده إليها... وظنَّ المرحوم الشريف أنه يأخذ إنكلترة من طريق العاطفة، كأنَّ السياسة الأوروبية فيها عاطفة، أو كأنَّ إنكلترة بنوع خاصّ عندها عاطفة، وكأنَّ الأوربيين عمومًا يجرون في سياستهم على أعراق العرب الذين عندهم « ارحموا عزيز قول ذَلَّ ». فانتظر، عامله الله بعفوه، أنَّ إنكلترة عندما تقرأ كلامه هذا تستعبر عيونها وتجيبه: « قد قرّرنا إنفاذ كلّ ما عاهدناك عليه »، وتتلو له قوله تعالى: ﴿ إنَّ العهد كان مسؤولاً ﴾ أو قوله ـ عزَّ وجلَّ: ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ﴾ أو قوله ـ تقدّس وتبارك: ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ أو تذكر له المثل العربي « أنجزَ حرٌّ ما وعد ». وتردفه بسجعة الحريري: « وسحَّ[١] خال إذ وعد ». فكان من إنكلترة أن جمدت بإزائه جمودها في وجه كلّ ضعيف وعدت تلك العهود كأنها لم تكن، ولم تُجبِه إلى شيء من مطالبه إلاّ إلى قضيّة « الجزيرة » التي طلب أن تنقله إليها. فإنَّه عندما فارق الحجاز وأراد الاستقرار في العقبة، وكانت إنكلترا تنوي الاستيلاء على العقبة لتتّخذ منها قاعدة بحرية، أخذته من هناك أَخْذَ عزيز مقتدر ونقلته على بارجة حربية إلى جزيرة قبرس[٢]. فما أجابته من مطالبه إلاّ إلى نفيه إلى جزيرة كما كان قال لها.

ووجه هذا الشاهد هنا ما نراه بمصر:

تزلّفت إنكلترة إلى المصريين منذ بدأ شبح هذه الحرب يلوح وأخذت تتبصبص إليهم وإلى جميع المسلمين، على شرط أن تكون هذه الوسائل كلّها كلامًا في كلام. فاشترت ذممًا وابتاعت أقلامًا واستأجرت جرائد تسبِّح بحمدها وتقدّس لها، وتقول إنَّها دولة العدل والحرّية والديمقراطية، وتسكت عن أعمالها في فلسطين! وقرارها أن تجعلها مملكة يهودية تحت حمايتها. وعملت بقول محرّر « التيمس[٣] » السياسي إلى أحد زعماء

(١) انصبّ صبًّا متتابعًا، والخال هو الخير. (المحقّق)

(٢) قبرص.

(٣) التايمز (صحيفة بريطانية). (المحقّق)

مسلمي الهند في أوائل هذه الحرب، وهو: «لا نحتاج إلى تغيير سياستنا في فلسطين لأجل استمالة العرب إلينا، فقد اشترينا العرب في الحرب العامّة وسنشتريهم في هذه الحرب أيضًا».

ومضت إنكلترة على خطّتها المعهودة من تسلية المسلمين بالكلام وتمنيتهم بالمواعيد الكاذبة إلى أن تنتهي هذه الحرب بينها وبين ألمانيا. فإن خسرتها بلغ المسلمون منها مرادهم على كلّ حال، وإن هي كانت الرابحة نكثت بجميع ما قالته للعرب خاصّة، وللمسلمين عامّة، ونسيت بعد الحرب كلّ ما أعلنته قبل الحرب. فإنّ سياسة الإنكليز لا تتغيّر ولا تتبدّل، وهي أنها لا تحترم إلاّ القويّ ولا تحتقر إلاّ الضعيف، ولا توفي لضعيف بما عاهدته عليه، ما بلَّ بحر صوفة، ورأس الحكمة عندها هو قول القائل:

فإن يضربوني جئتهم بدقيقهم وإن حلّفوني فانَخلي أمّ عامر

إلاّ أنَّ المسلمين بدأوا يعلمون ما إنكلترة ومَن إنكلترة، ويعرفون قيمة المواعيد والمواثيق عند دول أوروبا، لا سيّما «الديمقراطيّات» منها. فكانوا هذه المرّة على حذر تامٍّ من جميع ما يقال لهم ويراغ منهم. ولمّا شرعت إنكلترة تجتهد في إدخال مصر بالحرب إلى جانبها، رفض أكثر المصريين إجابتها إلى ذلك لكونهم يعلمون علم اليقين أنها تريد أن تجرّهم إلى عداوة ألمانيا وإيطاليا، وتحفر بينهم وبين هاتين الدولتَين هوّة عميقة، وأنه إن انتهت الحرب بالدائرة على إنكلترة، تركتهم يقتتلون مع أعدائها، وإن انتهت الحرب بالدائرة على ألمانيا وإيطاليا، وضعت هي يدها على مصر ـ ولا نقول السودان لأنه في يدها فعلاً ـ ونسيت كلّ ما قامت به مصر من المجهودات لأجلها. وكانت إنكلترة تظنّ أنَّ سبب استنكاف مصر عن دخول الحرب هو علي ماهر الذي كان رئيس الوزارة عند نشوب الحرب، فضغطت على الملك فاروق ضغطًا شديدًا إلى أن نحّاه جانبًا وأتى بصبري باشا الذي كانت ترجو أن يخوض بمصر غمرات هذه الحرب. فرفض هذا أيضًا خوض بلاده غمرات لا توجبها المعاهدة المصرية ـ الإنكليزية، ورأى أنّ ما تجشّمته مصر من مشاق ورزايا، وما اقتحمته مصر من أخطار،

وما قطعته من علاقات لأجل رضى إنكلترة، هو كافٍ وفوق الكفاية؛ فلا ينبغي أن تسفك مصر دماء أولادها وتكمل تخريب ديارها في سبيل دولة إن انتصرت كانت أوّل الغادرين بحلفائها، كما أثبت ذلك تاريخها مرارًا لا تحصى. وقام الحزب السعدي، الذي استمالته إنكلترة، يقول إنَّ تعهّدات إيطاليا باحترام استقلال مصر إن انتصرت لا يجب الوثوق بها، فأجابته الأحزاب الأخرى: « ومَن يجعلنا نثق بتعهّدات إنكلترة إن انتصرت، وهي التي خاست معنا باثنين وستّين عهدًا رسميًّا منذ دخلت مصر إلى الآن. فإن كان لا يوثق بعهد لا هذه ولا هذه، فلماذا تخريب مصر من أجل أناس، كلا الفريقين منهما إن انتصر لم يوفِ بعهده. ولكنَّ الإنكليز أذاقوا صبري باشا هذا عرف القربة بدسائسهم المتواصلة، إلى أن كان من أمره أن مات في أثناء تلاوته للبيان الرسمي الذي بدأ يتلوه في مجلس النوَّاب دفاعًا عن سياسته في عدم إقحام مصر في هذه الحرب. وخَلَفَه حسين سري باشا الذي رأى ثلثي مجلس النوَّاب كارهين التورّط في الحرب، مكتفين بما لقيته مصر من أهوال وخاضته من أوحال في سبيل إنكلترة خارجًا عن المعاهدة. فتابع سري باشا أكثرية المجلس في عدم التهوّر بحرب تجعل القاهرة، وسائر مدائن مصر الزاهرة، وجميع قرى مصر، عرضةً لطيّارات الدولتين المحوريتين من دون ما موجب يقضي بذلك، ومن دون أن تكون مصر واثقة بوفاء إنكلترا لها فيما إذا استوسق لها النصر.

ولمّا أكمل الإنكليز جميع استعداداتهم الحربية في مصر وهجموا على المعسكر الإيطالي في سيدي براني، فمزّقوا شمله وهزموه إلى ما وراء السلوم، ودخلوا في إثره الحدود الطرابلسية، وقبل أن يأخذوا ميناء «بورديا» وفرضة «طبرق»، شعر المصريون بأنَّ الانكليز سكروا بخمرة النصر وبدت منهم علامات الغطرسة. ولفظ رئيس الحكومة الإنكليزية المستر شرشيل خطبة في مجلس العموم يقول فيها: « إنَّ إيطاليا كانت شنّت الغارة على مصر التي هي تحت حمايتنا ».

فما اطَّلع المصريّون على هذا الخطاب حتّى قامت قيامتهم وقالوا: «إنَّ الحرب لمّا تدخل في دورها الحاسم ولا تزال هناك ألمانيا التي لا تهمل حليفتها إيطاليا، وقد بدأ

الإنكليز يقولون: «إنّا تحت حمايتهم، فكيف يصنعون إذا انتهت الحرب بفوز إنكلترة؟».

وهتف رئيس وزراء مصر بالتليفون ليلاً يخاطب السفير البريطاني بمصر، فقيل له إنَّه راقد، فقال: «أيقظوه». فلمّا استيقظ، قال له: «إنَّ البرقيّات نقلت عن المستر شرشيل أنه قال هذه الجملة «مصر التي هي تحت حمايتنا» في أثناء خطبة بمجلس العموم، فما هذا الكلام الذي لا يمكننا السكوت عليه؟»، فأجابه السفير: «لا أظنّه إلاّ قاصدًا «الحماية» بمعناها اللغوي، ومع هذا، فسنبرق إلى لندرة سؤالاً عن هذا الأمر». فلمّا أبرق إلى لندرة أجابه ناظر الخارجية المستر آيدن بأنه سيسأل المستر شرشيل عمّا إذا كان استعمل هذه اللفظة، وكيف كانت القضيّة، فالعلاقات بين إنكلترة ومصر محدّدة بموجب معاهدة. ثمَّ استوضح المستر شرشيل عن هذه اللفظة وأردف قوله الأوّل بأنَّ «الحماية» هنا إنّما قيلت بالمعنى اللغوي لا المعنى الدولي، وإنَّ الوضع بين إنكلترة ومصر محدَّد بمعاهدة ١٩٣٦.

والخلاصة أنَّ المصريين هبّوا مذعورين من تلفّظ شرشيل بهذه الكلمة... وما ذاك إلاّ دليل على ما يساورهم من القلق على مصيرهم فيما إذا خرجت إنكلترة من هذه المعمعة ظافرة. وقد يقال: أفكان الأصلح لمصر أن تنتصر إيطاليا على إنكلترة؟، ونجيب عن ذلك أنَّ الجمهور في مصر معتقد أنَّ أيَّ الفريقَين انتصر لم يبعد عليه أن يغدر بمصر. نعَم، إنَّ أكثرية المجلس لا توافق الحزب السعدي الذاهب إلى أنَّ إنكلترة، وإن فازت في هذه الحرب، تبقى محافظة على معاهدتها الأخيرة مع مصر. فإنَّ التجارب الماضية علّمت الشرقيين أن لا يثقوا في عهود أوربا.

ثمَّ إنَّ الوفد المصري قدَّم مذكّرة إلى جلالة الملك فاروق يعدِّد فيها ما تحمّلته مصر من أثقال وتقبّلته من أضرار في سبيل إرضاء حليفتها إنكلترة، مع أنَّ المعاهدة الإنكليزية ـ المصرية لم توجب عليها أن تقوم بكلّ ما قامت به نحو الحليفة، ومع أنَّ الشقيقة العراق لم تقطع العلاقات السياسية بأعداء إنكلترة كما قطعت مصر. والوفد المصري يطالب من الآن أن تصرِّح إنكلترة لمصر بأنها إذا انتهت الحرب الحاضرة تسرِّع جنودها بالجلاء عن مصر.

وخلاصة القول، إنَّ الشرقيين قد تعلّموا ـ بكثرة الحوادث التي عدّت عليهم من جهة الدول الاستعمارية ـ أن لا يثقوا بكلام هذه أصلاً، وأنه مهما يكن من عهود لا يفتأون يطالبون بتحديدها وتأكيدها. وهذا في نظرنا خطوة شرقية إلى الأمام، إذ يُستدلّ منها على الحذر واليقظة وحسن تشخيص المرض؛ ومتى عرف الطبيب حقيقة الداء أمكنه أن يعرف طريق الشفاء.

ولكنَّنا على اعتقاد تامّ بأنَّ إبلال[1] الشرق من أمراضه، ونجاة العالم الإسلامي من أخطاره، وفي مقدّمته مصر، إنّما يكون بانهزام بريطانيا العظمى وعدم نهوض فرنسا. وكلّ مصيبة في جانب مصيبة الإسلام بهاتين الدولتين هي هيّنة. ثمَّ إنَّنا على اعتقاد وثيق بأنَّ المعاهدة المنعقدة بين إنكلترة وتركيا في هذه الحرب، والتي من بعدها تكاد تركيا تقرض لجامها تترعًا إلى مساعدة إنكلترة، ليست قاصرة على المائة والعشرين مليون جنيه التي نقدتها إنكلترة لتركيا، بل هناك عهد خفيّ بينهما مآله أنه إذا انتصرت إنكلترة على ألمانيا، تقاسمت إنكلترة هي وتركيا جميع البلاد العربية، فخرجت سورية ولبنان وولاية الموصل من شمالي العراق بنصيب تركيا، وخرجت فلسطين بنصيب اليهود، وخرجت مصر وجزيرة العرب كلّها بنصيب إنكلترة. وبعبارة أخرى، ينهار العالم العربي انهيارًا عظيمًا يتأخّر به استقلاله خمسين سنة إلى الوراء، إن قضى الله بانتصار إنكلترة والعياذ بالله. إلاّ أننا، وإن لم ندَّعِ علم الغيب، نظنّ أنّ الحقّ تعالى لا بدَّ أن يكبح جماح إنكلترة ولو كانت أميركا الشمالية لها ظهيرًا. وحاشى[2] الله أن يترك ٥٠٠ مليون آدمي، بينهم ١٥٠ مليون مسلم، عبيدًا لإنكلترة، وذلك لأجل أن تنعم هي بشقوتهم وتمتلئ بفراغ جيوبهم خزائن «السيتي»، والله رؤوف بالعباد.

جنيف، في ٢٥ كانون الثاني

شكيب أرسلان

(١) تعافِ.

(٢) حاشا.

ضرورة عقد المؤتمر العربي في المهجر
أثناء الحوادث الحاضرة

لقد ناديت الجوالي[1] العربية الكريمة المنتشرين وراء البحار، إلى عقد مؤتمر عربي عام في أثناء هذه الحزّة الرهيبة التي لها ما بعدها. ولقد لبّى ندائي الكثيرون ورأوا فيه خير العمل. وإن يكونوا عَجِبُوا، فلا يكون عجبهم إلاّ مِنْ تأخُّر هذه الدعوة إلى هذا الوقت. والحال أنَّ الخطب عظيم، واليوم عصيب، والليالي حبالى يَلِدْنَ كلّ عجيب. ولعمري، ماذا ينتظر العرب، إن كانوا في الأوطان أو في المهاجر، من لزومهم هذا الصمت الغريب عن المطالبة بحقوقهم وعن الجزم بوجوب إخلاء الأجانب لبلادهم، وإذكار بعضهم بعضًا أنَّ الأمّة العربية هي مِنْ أنجب أمم الأرض عِرقًا، وأصلبها عودًا، وأشرفها نسبًا، وأمجدها تاريخًا، وأكرمها سلفًا، وأفصحها لغةً، وأحفلها آدابًا، وأكثرها عددًا، وأهمّها مساكن ومواقع جغرافية؟ فماذا يريدون؟ وماذا ينشدون؟ وإلامَ هم متربّصون ليرفعوا صوتهم عاليًا في وجه كلّ فريق من الفريقَين المتحاربَين قائلين بالصراحة: « ليس لنا منكما أبناء عمٍّ، لا لحًا[2]، ولا كلالة[3]، ولا نؤْثر منكما فئة على فئة، إذ أنتم عندنا جنس واحد ومن أرومة واحدة، وإنّما صديقنا منكما الذي يتحامى بلداننا ويحترم استقلالنا ويرعى عهوده لنا. وعدوّنا منكما هو الذي يعتدي علينا ويتجاوز على ممالكنا ويهتضم حقوقنا ويعبث بمصالحنا ومقدّساتنا. فليكن ذلك معلومًا عند الجميع». نعَم، إنَّ مَن في قلوبهم مرض يحاولون أن يثبّطوا ويعوّقوا، وأن يعرقلوا كلّ سعي يعود على الأمّة العربية بالفلاح، فيقولون: «وهل مجرّد عقد مؤتمر يقرّر المتداعون إليه استقلال الأمّة العربية وخروج المستعمرين من بلادها كافٍ لحصول هذه الأمّة على أرابها هذه؟ وهل في أيدي

---

(١) الجاليات.

(٢) أهل البيت الواحد.

(٣) ذوو القربى الذين يرثون من ليس له والد أو ولد يرثه.

العرب من الوسائل المادّية ما يتمكّنون به من إنفاذ قراراتهم هذه إن كانت الدول الغالبة تأبى أن تنفّذها؟ وما أسهل التثبيط والدسّ وإدخال الوهل على القلوب وإيجاد الوساوس في النفوس، إن كان ثمّة من المرض آكل قلبه، أو من يُعدّ نهضة الأمّة العربية مصيبة نازلة عليه، أو من كانت تدرّ عليه أموال «دائرة الاستخبارات الإنكليزية» أو «المكتب الثاني الفرنسي» ليصدّ عن سبيل الاستقلال ويثبّط ويوسوس، ويقارع النزعة الوطنية، ويناهض النهضة القومية، ويمكّن في أرض لعربٍ للأجانب الغادرين، ويوطّئ مناكب العزّة القومية لأقدام الاستعمار المهين.

ولكنَّ هذه الوساوس وهذه التحمّلات لا تثبت لحظة واحدة أمام المنطق السديد أو العقل السليم. فأية أمّة على وجه الأرض - ولو لم تبلغ عشر معشار الأمّة العربية - قطعت أملها من الاستقلال ويئست من رحمة ربّها بمجرّد احتلال الأجانب لبلادها؟ وأية أمّة لم يتعاقب عليها الإقبال والأدبار والنهوض والعثار، وسادت وسِيْدت، وقادت وقِيْدت، وذاقت الحلو والمرّ وتجرّعت الشهد والصبر؟ هذه فرنسة التي كانت تظنّ نفسها أعظم دولة برّية في العالم، وكانت تتخيّل أنه لو عاندها معاند في العيوق لسرحت إلى العيوق جيشها يجوس خلاله، رأيناها انهارت انهيار الكثيب المهيل في بضعة أسابيع، واحتلّ عدوّها ثلاثة أخماس بلادها، وضرب عليها من الذلّة والمسكنة ما لم يعرف تاريخها نظيره، وصارت جرائدها تلقّب الألمان صباح مساء بكلمة «غالبينا»، وتعلن أنَّ الأمّة الفرنسية ليست في حالتها الحاضرة «أمّة حرّة»، إلى غير ذلك من مظاهر الهوان، ومشاهد الذلّ والخذلان. فهل قضى ذلك على آمالها في الاستقلال، وجعل عثرتها في نظرها ونظر غيرها عثرة لا تُقال؟ كلاّ، بل فرنسة اليوم، على الرغم من الفادحة الكبرى التي ألقت عليها بجرانها، ملأى آمالاً بأنها سترتاش[1] وتنهض وتعلو علوًّا كبيرًا. وليست فرنسة هذه الدولة العظيمة هي وحدها التي لم تيأس من نفسها، بل دول لا تبلغ مقدار العِشر من فرنسة في الحول والطول قد غلبت على أمرها وملكت من أقطارها، وهي واثقة تمام الوثوق برجوع استقلالها إليها.

---

(١) من رتاش، وهو من أصاب خيرًا فرُئِيَ عليه أثرُ ذلك.

إنَّ شأن المستضعفين في الأرض، أيًّا كانوا وحيث كانوا، أن يعملوا بقول فريدريك الكبير، ملك بروسيا الشهير: «يجب أن نعوِّد أنفسنا قوّة الاستغناء عن كلّ شيء، مع إرادة عدم التخلّي عن كلّ شيء»، هذا هو المبدأ الذي يستمسك به كلّ مَن لم يقنط من رحمة ربّه، وكلّ مَن لم يرضَ أن يكون عبدًا قِنًّا لغيره. وهو المبدأ الذي يثيب الله عليه بإقالة العثرة وردّ الكرّة، واستئناف الحول والقوّة. ألَم يقل الله تعالى: ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمّة ونجعلهم الوارثين﴾؟ فكَم تحقّق هذا القول بالفعل؟ ألَم يقل تبارك وتعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطّفكم الناس فآواكم وأيَّدكم بنصره ورزقكم من الثمرات لعلّكم تشكرون﴾؟ فالأمّة التي تَوجَّه إليها هذا الخطاب الآلهي لم يمضِ على هذا الخطاب أكثر من خمسين سنة حتّى فتحت بين مطلع الشرق ومغربها أكثر من نصف المعمور.

و(بعد)، فالأمّة العربية لا تزال، بحمده تعالى، من الأمم اللاتي لها مكانتهنَّ العظيمة في العالم، على الرغم من كلّ ما وجهّت إليها أوربا من ضربات، وأصابتها به من قوارع، وعلى الرغم من حملات فرنسة وإنكلترة اللتين ظنّتا أنهما إن لم تمحقا العرب، لن تتوطّد أقدامها في مستعمراتهما البالغة ثلث العائلة البشرية والكرة الأرضية. أمّا فرنسة، فلا يهمّها من جميع همومها شيء مثل أن تستعبد ممالك أفريقيا المغرب الأقصى والجزائر وتونس، وما وراءها في أواسط أفريقية وغربيها من الأقطار الإسلامية، بالغًا عدد المسلمين فيها ٢٥ مليونًا. ولذلك تلتزم إبادة كلّ استقلال سياسي لعرب الشرق الذين هم قطب رحى العروبة، اتّقاءً أن تعود لهم دولة وصولة وتسري عدواهما إلى الأقطار المغربية، فتنادي هذه الأقطار بـ«يا للثارات»! ولا تبرح في النضال إلى أن تستردّ استقلالها المغصوب، فتفقد فرنسة بذلك النهوض المغربي من الرجال أكثر من نصف أهل فرنسة، ومن المال مزارع ومتاجر ومرافق ومعادن لا تقوم بثمن من كثرتها. فكلّ عداوة في ألمانيا تُرجى إزالتها، غير عداوة فرنسة للعرب خصوصًا والإسلام عمومًا! وكلّ مكابرة في هذا الأمر أشبه بمكابرة مَن يزعم وقوع الظلام عند طلوع الشمس في القطر الواحد. وأمّا إنكلترة، فكلّ هذا السلطان الأكبر الذي جمعت أقطاره في يديها إنّما تأتّى لها من الشرق. ولولا

الشرق لكان الإنكليز أفقر الأمم، ولاضطروا إلى الرحيل عن تلك الجزيرة ليجدوا في الآفاق مراغمًا وسعة. فهي لا تألو تبثّ الدسائس في الكرة الأرضية جمعاء، لا سيّما في الشرق، حتّى تمنع نهضة المسلمين، الذين إنّما انتزعت سلطنة الهند من أيديهم، وهم الآن في الهند ٩٠ مليونًا، لا يتّسق للهند استقلال، ولا ينتظم حال من دونهم. وأخوف ما تخاف منه إنكلترة هو إجماع شمل العرب الذين إذا اجتمع شملهم في غربي آسيا وشرقي أفريقيا، وبعبارة أخرى، بين جزيرة العرب والشام والعراق من جهة، ومصر والسودان من جهة أخرى، صارت طريق الهند إلى يد الأمّة العربية، وعاد البحر الأحمر بحيرة عربية لا ينازع العرب فيه منازع. فلهذا تجد أولئك الثعابين يبثّون سمومهم في كلّ سهل وجبل من سهول العرب وجبالها. ووراء تلك السموم الناقعة، القناطير المقنطرة من الذهب والفضّة، يمنعون بها الوحدة العربية، ويؤلّبون فريقًا على فريق، ويجيلون مبضع الشقّ العميق في الجروح الواقعة بين أشراف مكة وآل سعود، كما أنهم، في أثناء ما نكتب هذه السطور جاءت الأنباء البرقيّة الرسمية من الشرق وملأت صحف أوربا بأنَّ حكومة الحجاز كشفت مؤامرة كان المقصود منها اغتيال الملك عبد العزيز بن سعود، حفظه الله وأدام تأييده، وقد ثبت بالتحقيقات، وبإقرار بعض الداخلين في المؤامرة أنَّ هذا الأمر المدبّر بليل كان مصدره دائرة الاستخبارات الإنكليزية، أي ما يقال له «أنتيليجانس سيرفيس»[1] التي لا تخلو من آثار دسائسها المعزّزة بخيَّالة القدّيس جرجس زاوية من زوايا البسيطة مهما كانت ضيّقة. وسبب اضطرار الإنكليز إلى هذه الدسيسة الدنيئة هو أنهم استجلبوا إلى جهتهم في هذا المأزق المتحرّج بعض الدول الشرقية التي لا حاجة إلى ذكرها والتي هي أَوْلى بأمر نفسها. وكان استجلابهم لها بالقروض والاتّفاقات الاقتصادية، وشراء الصحف على حدّ ما شروا صحفًا كثيرة في البلاد العربية. فحاولوا أن يسوسوا هذه السياسة نفسها في البلاد العربية ليحملوها على مناوأة ألمانيا ويقولوا للعالم الإسلامي: «إنَّ الأمّة العربية هي من جملة أنصارنا على دول المحور». ونسوا ما كادوا، ولا يزالون يكيدون، للعرب، ومطامعهم في البقاء بمصر على الرغم من معاهدتهم

---

(١) «الخدمة الذكيّة».

للمصريين على الجلاء عن بلادهم، واستئثارهم بأمر السودان الذي هو قطعة من المملكة المصرية. ونسوا، ومن عادة الكذّاب أن لا يكون ذَكورًا، أنهم هم الذين أنزلوا الطليان في بلاد الأريتري من ملحقات مصر، وأعانوا الحبشة على أخذ سلطنة هرر الإسلامية التي كانت تحت حماية مصر. ونسوا أخذهم لسلطنتَي حضرموت والمكلا من عهد قريب؛ لم يكفِهم ما كانوا أخذوه من قبل من أطراف اليمن مثل، سلطنة لحج والإمارات التسع. ونسوا أنهم وضعوا تحت حمايتهم سلطنة عمان وجزيرة البحرين وإمارة الكويت وغير ذلك، بالحيَل والدسائس وأفنان فنون المفاسد التي يتقنها سواهم. وإذا رجعنا من الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر نقول إنَّهم نسوا الفظيعة العظمى باحتلالهم مرفأ العقبة، مفتاح الأراضي المقدّسة الإسلامية، مع أنَّ العقبة لم تنفصل في وقت من الأوقات عن الحجاز. وطالما احتجّ ابن سعود على هذا الاعتداء المحض فلم يعبأوا به. ونسوا كذلك أنهم جعلوا شرق الأردن تحت انتدابهم ظلمًا وعدوانًا، وكانت عقاربهم تدبّ من شرق الأردن إلى جميع بادية العرب بتواطُئهم مع الأمير عبد الله بن الحسين الذي تناسى خيانتهم للعرب ولوالده. وكلّ هذا يسير وقليل وزهيد وضئيل في جانب دسيستهم الكبرى ومكيدتهم العظمى، وداهيتهم الدهماء وفتنتهم الصمّاء التي هي اعتداؤهم على فلسطين قهرًا وقسرًا، ووعدهم لليهود بجعلها مملكة يهودية يحيون لهم بها مُلكًا قديمًا بَادَ من ٢٤ قرنًا، وكان من قبل قد حازه اليهود غصبًا. ولم يكن مرماهم في مصيبة فلسطين هذه مجرّد إرضاء بني إسرائيل، بل كان مرادهم أن يؤسِّسوا تحت حمايتهم على قلب الأمّة العربية مملكة يهودية يحصِّنونها من جهاتها البرّية بجميع الحصون والمعاقل، ومن جهاتها البحرية بالمرافئ الحربية والأساطيل المنيعة. ويجعلون فيها المطارات لأسراب الطائرات التي يقدرون أن يتهدّدوا بها جميع مدن مصر والشام والعراق والحجاز، بحيث إن حدَّث العرب أنفسهم بالانقضاض على فلسطين، سرَّحوا طيّاراتهم على الحواضر العربية جميعها فدمّرتها تدميرًا. نسي الإنكليز هذا كلّه واعتمدوا على الأمير عبد الله أنه برضاه هو عن فظائع أعمالهم هذه، يكفيهم الله بأس الأمّة العربية. فوجدوا الأسد السعودي رابضًا للنزال في أوّل فرصة تتاح له ليميط هذه المعرّات عن العرب

والإسلام. وكانوا يعلمون أنَّ هتلر قد وعد العرب من قبل أنه سيكون أوّل نصير لهم في تحرير بلدانهم لهم وقلع الجراثيم الإنكليزية والفرنسية منها، فجنّ جنونهم كيف يؤمل العرب الوصول إلى تحقيق أمانيهم القومية بمساعدة ألمانيا، على حين أنَّ القاعدة الجارية إلى اليوم هي أن ترتكب إنكلترة كلّ كبيرة في العرب، ويأبى المنافقون وضعفاء النفوس منهم فيقولون لها: أنتِ صديقة العرب! وعلى حين أنَّ إنكلترة تعمل في كلّ مكان لمحو كلّ قوّة سياسية للإسلام في هذه الحياة الدنيا، ويأتي زعانف المسلمين بعد ذلك وروّاد الحظوة لدى إنكلترة فيعلنون ولاء الإسلام لها بقولهم: "إنكلترة أمّة ديمقراطية، والإسلام ديمقراطي، فكان لزامًا أن يكون المسلمون في جانب إنكلترة!"؛ يقول هذا أولئك المراؤون البائعون لضمائرهم، الخائنون لأوطانهم، وهم يعلمون كما نعلم نحن أنه إن كان في إنكلترة شيء من الديمقراطية، فيكون لأهلها، لا للآسيويين ولا للأفريقيين، وأنَّ هذه السلطنة البريطانية الواسعة التي بُنيت على الحِيَل والدسائس والرشوة وشراء الضمائر وسرقة حقوق غيرهم، ليس فيها إنكليز إلاّ ١٢ في المائة، وأنَّ الباقي، وهو ٨٨ في المائة، كلّهم من شعوب آسيا وأفريقيا، لا يمتّون إلى إنكلترة بنَسب ولا جوار ولا دين ولا مصلحة، وكلّ منهم ينشدها بلسان حاله:

وأنتَ امرؤ من أهل نَجْدٍ وأهلنا تهام وما النجدي والمتغور

وإنَّ هذه المئات من ملايين البشر هم عبيد عصا إنكلترة، لا يملكون لأنفسهم أمرًا ولا يشمّون رائحة الديمقراطية من قريب ولا من بعيد. وأية ديمقراطية تقدر أن تدّعيها إنكلترة، وهي التي وعدت اليهود بملك فلسطين وإخراج أهلها من ديارهم؟! ولمّا نضح هؤلاء عن ديارهم ودافعوا عن مسقط رؤوسهم، رمتهم بأربعين ألف مقاتل يرمونهم بقنابر أمثال التي يقذف بها الألمان اليوم على إنكلترة. فدمّرت عشرين ألف دار من دور عرب فلسطين، وقتلت عدّة آلاف من رجالهم ونسائهم وأطفالهم، واعتقلت ألوفًا آخرين، وعذّبت نفرًا من هؤلاء تعذيبًا وحشيًا رجعت فيه إلى عادات القرون الوسطى. ثمَّ إنَّه لمّا نشبت هذه الحرب، ظنّ ضعفاء العقول أنَّ إنكلترة ستعدل عن خطّتها في إرهاق العرب وتحسب لهذه الأمّة حسابًا، فإذا بها لم تتزحزح قيد شعرة

عن سياستها الصهيونية، ولا عن إتيان تلك المخازي بأنواعها. ولماذا تتزحزح؟ ولأي شيء تعتدل؟ وهي من أزمان وحقب تعامل العرب وجميع المسلمين معاملة السادة للعبيد بأنواع الإهانة، وتجد من هؤلاء مَن يقول لها: "أنتِ ديمقراطية ونحن فداء الديمقراطية!"، هذا عوضًا عن أن يقولوا لها:

معلّلتي بالوصل والموت دونه — إذا متّ عطشانًا فلا نزل القطر

إلاّ أنَّ أعظم غرماء العرب هم من أنفس العرب، وأنَّ أشقى الجناة على المسلمين لَهُم من المسلمين! ولهذا، طالما كرّر الملك السعودي قوله: "أنا ما أخشى على الإسلام إلاّ من المسلمين، ولا أخشى على العرب إلاّ من العرب". ومعناه بهم أولئك الذين يقولون لإنكلترة: "أنتِ صديقة الإسلام وأنتِ سنَد الأمّة العربية"، ولا يخافون الله ولا يخجلون من عباد الله. وهكذا تمعن إنكلترة في غيّها وتتمادى في بغيها وتقول لنفسها: أنا أضربهم وهم يقبِّلون يدي الباطشة بهم، وأنا أقهرهم وأسلب ممالكهم وهم يقولون لي: "فما لجرح إذا أرضاكمو ألمُ"، فيكون من الجنون أن أكترث لهم واهتمّ بإرضائهم، أوَلا ترون أنهم على كلّ حال حامدون شاكرون؟!

أمّا ابن سعود والإمام يحيى، فقد أبيا ذلك وشمخت أنوفهما عن أن يقولا للمحسن إنَّك مسيء وللمسيء إنَّك محسن. وكذلك أبت الأمّة العراقية العربية أن تتبع شرذمة المنافقين في هذا التملّق الدنيء. وكذلك نفرت جمهرة المصريين من أن تساير إنكلترة إلى أبعد ممّا نصّت عليه المعاهدة المصرية ـ الإنكليزية، وأن تجعل مصر آلة صمّاء في يد دولة نكثت باَثنين وستّين وعدًا رسميًّا أقطعتها في الماضي مصر. وأبى الحاج أمين الحسيني، بطل الجهاد الفلسطيني، أن ينخدع بالمواعيد الفارغة حينما يكون المحسوس شاهدًا ببطلانها. وهتف الشعب الدمشقي أمام المحكمة التي حوكم بها قَتَلَة الدكتور شهبندر قائلين "لتسقط إنكلترة عدوّة الأمّة العربية"، وذلك على أثر إقرارٍ تَعلَّق بسبب تلك الحادثة لسنا الآن في صدده.

فالأمّة العربية تفرِّق بين عدوّها وصديقها وتميّز بين الخمر والخلّ. وهي تعلم

أنه لو حازت ألمانيا الانتصار النهائي على إنكلترة لمَا جاءت تحلّ محلّها في مصر ولا بلاد العرب، وهي تعلم أيضًا أنَّ ألمانيا شريكة عنان للعروبة في عداوة اليهود الذين يريدون، تحت حماية إنكلترة، أن يؤسِّسوا دولة يهودية في أنف الأمّة العربية. وهي تعلم أيضًا أنه لو قُدِّر أنَّ إيطاليا طمحت إلى شيء جديد من الأقطار العربية، لوقفت ألمانيا في وجهها في هذه السبيل، حسبما تجلّى من وعدها الرسمي الذي أعلنته ألمانيا بأسمها وباسم حليفتها إيطاليا، وأيّدته وزادته إيضاحًا الجرائد الإيطاليّة قائلة: «لا مطمح لإيطاليا لا بمصر ولا بتوابعها ولا بسورية ولا بفلسطين، وقصارى دولتَي المحور أن يكون العرب لهما أصدقاء».

ويقول المثبطون والموسوسون لصرف العرب عن المساعي القومية: إنَّ مواعيد ألمانيا هذه كمواعيد سائر الدول، تذهب في حال انتصار ألمانيا أدراج الرياح. ونجيب عن ذلك: إنّنا لا نضمن الغيب، ولكنّنا نحكم بالتجاريب ونجعل من الماضي دليلاً على المستقبل، وهو أنَّ ألمانيا لم تكذب على العرب ولا في زمن من الأزمان، ولا أساءت إليهم ولا مرّة، ولا إلى سائر المسلمين ولا مرّة.

والذي لم يكذب من قبل جديرٌ به أن لا يكذب من بعد. وزِدْ على ذلك أنَّ مناطق تبسُّط ألمانيا هي في شرقي أوروبا لا في بلاد العرب. وزِدْ عليه أنَّ أعداء ألمانيا هم في الحقيقة أعداء العرب وأعداء المسلمين، فبين هؤلاء وبين الألمان هوىً جامع وشعور مشترك. وعدوّ عدوّي صديقي كما لا يخفى. وأنّى وجدتَ من أملاك المسلمين مُلكًا مغصوبًا أو حقًّا مسلوبًا، فابحث عنه تحت أيدي إنكلترة وفرنسة. وإن كانت ثمّة أمم أخرى قهرت المسلمين، فتكون اقتدت في ذلك بإنكلترة وفرنسة وحمت خبزها على نارهما. فلا يجوز أن تتّهم ألمانيا بالنكث في ظهر الغيب وبدون سبق مثال، ولا يجوز أن يُحسَن الظنّ في إنكلترة وفرنسة بعد أن كان من نكثهما، لا سيّما في عهودهما إلى الإسلام ما لا يأخذه العَدّ. فأمّا إنكلترة، فإنَّ شأنها في النكث والتملّص من المعاهدات هو من الشهرة بحيث لا يحتاج إلى بيان؛ وإيضاح الواضحات من الفاضحات. وأمّا فرنسة، فلمّا دخلت إلى جزائر الغرب أعلنت أهاليها عهدًا لم تلبث أن نكثت به من

أوّله إلى آخره. ثمَّ، لمّا اعتدت على تونس عقدت مع صاحبها محمَّد الصادق باي معاهدة « الباردو »، ثمَّ لم يمض إلاّ قليل حتّى فعلت في تونس كلّ ما يناقض أحكام هذه المعاهدة. ثمَّ لمّا اقتحمت مراكش غصبًا وعدوانًا أجبرت سلطانها مولاي عبد الحفيظ على قبول معاهدة لم يقبلها إلاّ مرغمًا، ولم يقبلها أحد من رعيّته الذين كانوا بايعوه على شرط الاستقلال التام للبلاد. ومع هذا، فما عتمت فرنسة أن خرقت هذه المعاهدة من جميع جوانبها وجعلت حكمها على المغرب الأقصى حكمًا مباشرًا. فأمّا الأفاعيل التي انطوى عليها خرق هذه المعاهدات من نهب وسلب وسفك دماء ونزع أملاك واستعباد وإهانة وإذلال، وتجاوز على العقيدة الإسلامية واللغة العربية وغير ذلك، فليقرأ الباحث منه أمثلة في كتاب « تونس الشهيدة »، وفي كتاب « برنامج الإصلاحات المغربية »، وفي تواريخ للجزائر الحديثة أهمّها كتاب « الجزائر »، للسيِّد توفيق المدني؛ هذا عدا كتبًا ألّفها الإفرنسيّون أنفسهم وطبعوها في باريز. ثمَّ إنَّ خَرْق فرنسا في سنة ١٩٣٩ معاهدة عَقَدَتها مع سورية سنة ١٩٣٦، وذلك نكثًا وغدرًا وبوقًا وخِسًّا لا فسحة فيه لعذر، وحلّها لمجلس النواب السوري، وتصرّفها بسوريا ولبنان كأنهما مستعمرتان وحشدها الجيوش فيهما، وإعطاءها إسكندرونة وإنطاكيا لتركية بدلاً عن انحياز تركية إلى فرنسة وإنكلترة في هذه الحرب ـ كأنَّ سورية من السلع التي يساوم عليها أو على بعضها ـ مع أنَّ فرنسة تعهّدت لجمعيّة الأمم بالمحافظة على كلّ شبر من أرضها. هذه أمور حديثة العهد يعرفها كلّ عربي، وما قامت به فرنسة بين يدي نكثها بالمعاهدة السوريّة ـ الفرنسية من إثارة السوريين بعضهم على بعض لتقول إنَّ دوام احتلالها لسورية ولبنان لا غناء عنه؛ فقد أوقعت بين دروز حوران شقاقًا بعيدًا، وذلك باتّخاذ حزب لها فيهم يقاوم الحزب الأكبر الذي يقول بالجماعة العربية. وألْقَت شقاقًا مثله بين الطائفة العلوية التي علّقت آمالها بتنصيرها أو تنصير بعضها، على حدّ ما علّقت آمالها بتنصير بربر المغرب. وأحدثت فتنة في الجزيرة الفراتية قوامها بعض المتشرّدين الفارّين من تركية إلى الجزيرة، وحكمت هذه الفئة المفسدة التي لا تزيد على ٢٥٠٠ شخص في جمهور سكان الجزيرة الذين كانوا يقدرون أن يزيلوا معرّتهم في يوم واحد، فصبروا على الأذى صبرًا عظيمًا

لمعرفتهم بأنَّ مقصد فرنسة كان إحراج المسلمين حتّى يثوروا وتقول هي إنَّ المسلمين ذبحوا المسيحيين، وذلك نظير إعادتها الآشوريين إلى العراق من بضع سنين، بعد أن خرجوا منه على أمل إيجاد مذبحة تتّخذها فرنسة حجّة لبقائها في البلاد؛ مضافًا كلّ هذا إلى كون فرنسة من عشرين سنة دائبة في النفخ ببوق العصبية الدينية في سورية ولبنان، قائلة علنًا بلا ملل للمسيحيين إنّها إنّما احتلّت سوريا لمنع المسلمين من ذبح المسيحيين، ومتجاهلة أنه في الحرب العامّة غاصت الدنيا في بحر من الدماء مدّة أربع سنين ونصف سنة، وكانت في بلاد الأناضول على مقربة من سورية الفتنة الأرمنية التي ذُبح فيها جانب من الأرمن وأُخرج الباقون من ديارهم، ومع ذلك فلم تُطِرْ من جسم مسيحي واحد طوال الحرب الكبرى نقطة دم بيد مسلم من العرب، ولا أُهين مسيحي، ولا اعتُدِي على حقّ مسيحي. وقبل ذلك، عاش المسلمون هم وإخوانهم المسيحيون دهرًا يبلغ ثلاثة عشر قرنًا ونصف قرن، وكان للإسلام اليد العليا منبسطة حتّى على أوروبا، ولم يحدِّث المسلمون أنفسهم بالاعتداء على المسيحيين في الشرق، وكانوا يعاملونهم بقاعدة "لهم ما لنا وعليهم ما علينا". وإن كانت جرت في بعض الأحايين من الفتن المنحصرة في محلّها ما يتّخذه الذين في قلوبهم مرض حجّة على هذا القول، فما كان ذلك إلاّ من أثر المفاسد والإغراءات التي كان يلقيها هؤلاء الزاعمون أنهم إنّما جاؤوا إلى بلادنا لأجل وقاية المسيحيين من المسلمين! وهي خطّة فساد راجعة إلى أيام الصليبيين، وضلالٌ قديم امتازوا به عن غيرهم. واكتفى الألمان بزحفة واحدة، واجتزأ الإنكليز بحملة واحدة، ولكنَّ الفرنسيين قاموا على مسلمي الشرق بإحدى عشرة حملة صليبية، كلّ واحدة أصعب من أختها. وبينما كان ملك فرنسة يتأهّب لغزو مصر والشام، كان فريدريك الثاني - إمبراطور ألمانيا، حفيد بربروس - يبعث إلى الملك الكامل، ابن الملك العادل الأيّوبي صاحب مصر ليكون على حذر من اعتداء "ريد إفرانس"، كما يقول مؤرِّخو العرب، وذلك لأنَّ هذا الإمبراطور كان يحبّ السلام بين المسيحيين والمسلمين وينقم على الفرنسيس تأريث هذه العداوة إلى ما لا نهاية له. وكان قد تعلّم اللغة العربية، وقد اتّخذ من العرب جيشًا لنفسه نحو ثلاثين ألف مقاتل، وكان يعطف على بقايا العرب في صقلية التي كانت من جملة ممالكه.

وليعلَم القرّاء أنَّ كلّ ما دسّه الإنكليز والفرنسيس من الدسائس، ونصبوه من الأشراك للأمّة العربية من قبل الحرب العامّة، وخصوصًا من بعد الحرب الغامّة، لم يفتّ من أعضاد هذه الأمّة ولا زادها إلاّ مضيًّا في سبيل استقلالها، وإصرارًا على كشح الأجانب عن ديارها، وتصميمًا على أن تعود كما بدأت، أمّة عزيزة كبيرة محترمة الجوانب، لها بين الأمم المقام الذي يؤهّلها له نجابتها وصلابتها وعزّة نفسها وكثرة عديدها وأهمّية أوطانها. ولننظر الآن إلى حالة العرب الحاضرة الراهنة ونقيسها بحالتهم السابقة للحرب العامّة، فنقول:

كانت إنكلترة تظنّ أنها، وقد ربحت الحرب العامّة، ستتمكّن من استلحاق مصر بصورة نهائية، ويقطع المصريّون آمالهم من فائدة المقاومة. فكانت النتيجة بالعكس، وهي أنَّ المصريين ثاروا في وجهها بعد الحرب الرابحة أكثر ممّا ثاروا من قبلها، وما زالوا معها في المقيم المقعد إلى أن أعطتهم نصف استقلال وامتنعت عن إكماله. فانتظروا إلى أن وقعت حرب الحبشة، حينما كانت إيطاليا تزاحم إنكلترة على النفوذ في الشرق، فثار المصريّون ثورة جديدة انتهازاً للفرصة، وطلبوا حلّ المشكلة المصرية بتاتًا. فماطلتهم إنكلترة على عادتها، فازداد شبّانهم هياجًا. ولم يخمد الثوران إلاّ بعد أن رضيت بإعطائهم أربعة أخماس استقلال، حاسبةً أنها إذا نشبت حرب أوروبيّة كبرى وفازت فيها، تعود فتنسخ ما عاهدتهم عليه. والآن، نيّة إنكلترة أنها إن خرجت من هذه الحرب ظافرة، تبوق بمصر والعراق، وتُخرِج ابن سعود من الحجاز، وتعتدي على اليمن، وتعلن مُلك اليهود لفلسطين ولشرق الأردن، وترتكب في العرب موبقات أخرى. نقول هذا قياسًا على الماضي، لأنَّ الأمور تقاس بأشباهها، وتقرن بنظائرها، وتُردّ إلى أصولها، والدولة التي تاريخها السياسي كلّه سلسلة خلف ونكث وتخريج عبارات مبهمة، تكون قد تعمّدتها من قبل لأجل التفصّي من العهد، هذه، لا يبعد عنها أن تفعل هذا وأكثر من هذا. فالأمل الوحيد لمصر أن تنجو من غدر إنكلترة بها هو انتصار ألمانيا على إنكلترة. وليس بصحيح أنَّ ألمانيا تسمح لإيطاليا بالاستيلاء على مصر ولا على سودان مصر، كما يُعرف من جميع القرائن، كما أنَّ مصر لن تخضع لإنكلترة ولو فرض البعيد، وهو انتصارها. أمّا العراق، فإنكلترة تتحامى الاعتداء عليه إن فازت

في الحرب أو لم تفز، لأنها تعلم شدّة مراس العراقيين وكون قناتهم لا تلين لغامز، وأنهم أصحاب جيش يناهز ثمانين ألف مقاتل من أشجع جنود البسيطة، مجهّز بأحدث الأسلحة العصرية، ولديهم وراء هذا الجيش ثلاثمائة ألف مسلّح من قبائل العرب وعشائر الأكراد. وإنكلترة تذكر أنها كانت ازدرت بالعراق وألحقته بالهند مستعمرة صغيرة تابعة لمستعمرة كبيرة، فأراها العراقيون وَبَال استخفافها بهم ونالوا استقلالهم بسيوفهم. وهم في هذا الوقت أعظم قوّة وأعزّ نفرًا ممّا كانوا يوم ثاروا على إنكلترة سنة ١٩١٩. فلا خوف على العراق من بطش إنكلترة بهم، وإنّما الخوف كلّ الخوف من إفسادها بين زعمائهم وإعمال طرقها الشيطانية فيهم. وأمّا ابن سعود، فإذا فشلت إنكلترة في هذه الحرب، فإنَّه ينال غرضه منها ويكشح إنكلترة من البلدان العربية التي اختلستها. وإن قُدِّر العكس، فقد يستقبل أهوالاً وأخطارًا. ولكن لدى الملك السعودي من نَجْد وحدها مائة ألف مقاتل يتسابقون إلى حياض ألمانيا يوم النزال، تسابق العِطَاش على الزلال. فليس ابن سعود بالذي يؤكل هنيئًا، ولو صحّ حلم إنكلترة بالنصر. ومثله أخوه الإمام يحيى، صاحب اليمن ذي الأعداد الكثيرة، والجبال الشامخة الباذخة، والقبائل التي لم تعطِ القفى لسائق. هذا الإمام الصادق إن دارت الدائرة على إنكلترة، استرجع إلى المملكة المتوكلية اليمانية جميع ما تجاوزت عليه إنكلترة من أطراف اليمن، كالإمارات التسع ولحج وحضرموت والمكلا وظفار. وإن قُدِّر العكس ـ وهو أبعد بعيد ـ اعتصم بجباله الشامخة الوعرة ورجاله الذين لم يعرفوا الخضوع لأجنبي، ولا للدولة العثمانية نفسها في أيام عزّها. وأمّا فلسطين، فما زال أهلها العرب، مع قلّة الوسائل وإحاطة الإنكليز بهم، يذودون عن حوضهم بالسلاح القليل والزاد الخفيف، إلى أن نشبت الحرب الحاضرة فملأت إنكلترة فلسطين جنودًا وطيّارات ودبّابات، وبلغ عدد جيشها هناك ثمانين ألف مقاتل عدا اليهود المسلّحين. ولولا معرفتها ببسالة المجاهدين من أهل هذا القطر الصغير، لمَا أرصدت لقتال أهله هذا الجحفل الجرّار مع وجود الأمير عبد الله رديفًا للجيش البريطاني بجند شرق الأردن، يقاتل العرب بالعرب ليتمكّن من الاستيلاء على فلسطين، وبعدها على شرق الأردن ـ خيّب الله أمله وآمال أصحابه الإنكليز، إنَّه على كلّ شيء

قدير، وأخزى كلّ خائن لأمّته. وإن كان بعض المتبصبصين إلى فرنسة من أهل سورية ولبنان قد طبّلوا لها وزمّروا على ظنٍّ أنها ستكون في هذه الحرب ذات الكفّة الراجحة والشقّة الرابحة، فلا تزال سورية هي ذلك القطر العربي الصميم الذي منه تنبعث أكثر الحركات القومية العربية، وتُرجى منها النهضة الوطنية، التي تدلّ على ما للسوريين من التفوّق الباهر في قابلية العلم والصناعة وإحسان السياسة والإدارة والاقتصاد والثقافة، وأنهم أصحاب القدح المعلّى في جميع مناحي العمران. ولا يزال لبنان جزءًا غير منفكٍّ عن سورية التي لا يستغني عنها طرفة عين، مع احتفاظه بامتيازاته القديمة وخصوصيّاته التي لا ينازع فيها أحد. وإن كانت فرنسة قد زرعت بذور الشقاق دأبًا بين زعنفة خائنة من المسلمين لا يمشي وراءهم أحد هذه الأمّة، وبممالأة بعض أحبار النصارى، أمثال البطريرك طبوني الموصلي، قبيح السيرة، الذي تبرّأ من أعماله أكثر قومه وشهّروا به تشهيرًا؛ فلا عجب أن تكون هذه السياسة هي سياسة فرنسة المبنية على الرعونة والطيش والنكاية وإيغار الصدور وتأريث الضغائن، وهي هي السياسة التي تجني منها اليوم لنفسها أمرَّ علاقم الذلّ وأحمض حوامض الندم معترفة بفظاعة أغلاطها وعماية قلبها، ولات ساعة مندم. وليست استفاقتها إلاّ إنابة عارضة ورشدًا موقّتًا ثمَّ تعود إلى تحيّزاتها المعروفة وغرورها المعهود، والطبع يغلب التطبّع. ومن قبيل الاستشهاد، أسوق إلى القرّاء مثالاً اطّلعت عليه بين يدَي هذه الحرب، وهو أنَّ حكومة شرقية إسلامية أبرقت إلى الحكومة الفرنسية تنصح لها بالاعتراف باستقلال سورية وحسم هذا الخلاف بينها وبين السوريين حتّى تضمّد هذا الجرح الواقع بينها وبين العرب، في زمن هي فيه جديرة بالتفاهم معهم. فكان جواب فرنسة الرسمي هو هذا: «إنَّ مسئلة سوريا هي مسئلة[1] داخلية محضة عند فرنسة، وهي تعمل بها حسبما تشاء. نعَم، إن كان عندكم مَن ترشّحونه لتبوُّء عرش سورية، فإنّنا مستعدّون للنظر في ذلك».

فليتأمّل المتأمّل قول فرنسة: «إنَّ مسئلة سورية هي عندها مسئلة داخلية محضة»، أي أنَّ سورية هي من جملة مستعمراتها، لا حقّ لأحد أن يسألها عنها، (لا يسأل عمّا

(١) مسألة.

يفعل). وهذا على خطٍّ مستقيم مباين لزعمها ألف مرّة أنَّ احتلالها لسورية هو بموجب تفويض من جمعيّة الأمم، ولإرسالها كلّ سنة مندوبًا إلى لجنة الانتدابات يوضح لديها الدقيق والجليل من أعمال فرنسة في سورية ولبنان، متلقيًّا جميع ملاحظات اللجنة على ذلك. وهو مخالف على خطٍّ مستقيم لدستور جمعيّة الأمم في المادّة ٢٢ في الفقرة الرابعة التي تعترف لسورية ولبنان بالاستقلال، وإنّما توجب أن يكون لهما من إحدى الدول دولة مرشدة إلى أجل معيّن. وهو مخالف على خطٍّ مستقيم لقول المسيو بيو أخيرًا إنَّ سورية مستقلّة ـ هكذاً بالحرف ـ تحت انتداب فرنسة. إنّنا نحن لم نعترف ولا نعترف بانتداب فرنسة على سورية لأنه معلول بحسب نظام الانتداب نفسه، ولكنّنا نريد أن ندين هؤلاء الجماعة من أقوالهم نفسها ونظهر تناقضها. وهو [مخالف] على خطٍّ مستقيم لقول بيو لإيطاليا أنَّه لا يقدر أن يسلّمها المطارات التي في سورية ولبنان، لأنَّ هذه المطارات ملك هاتين الحكومتين المستقلّتين لا ملك فرنسا. أفلا يخجل هؤلاء الناس من أن يقولوا: إنَّ مسئلة سوريا هي عند فرنسا مسئلة داخلية محضة، بعد أن أعلنوا ألف مرّة أنهم مفوَّضون على بلادنا من قِبَل جمعيّة الأمم؟ مثلهم مثل النعامة تارةً طير وتارةً جمل! مرّة تكون سورية ولبنان لهم، ومرّة تكونان لأهليهما، بحسب الظرف الذي يكونون فيه. ثمَّ، انظروا إلى دناءة هذه الدسيسة: يسألون هذه الحكومة الشرقية الإسلامية هل عندها مرشّح لعرش سورية؟ وذلك على أمل أن تسكت عن مطالبتهم باستقلال سورية، بائعة ذلك ببدل وضع أحد أمرائها ملكًا على عرش سورية الوهمي! ولكنَّ الوزير الذي ورد عليه هذا الجواب الفاضح لفرنسة أجابها بغاية الكرامة قائلاً: « إن أردنا إلاّ الإصلاح وليس عندنا مرشّح لعرش سورية »؛ بغوا رشوته بهذا العرش الوهمي فأجابهم بأنه لا يقبل الرشوة على استقلال أمّة شقيقة.

لا يقدر أحد أن يكابر في صحّة هذه الحادثة، فالوثائق رسمية وقد قرأتها بنفسي حرفًا حرفًا. وليس لفرنسة أن تستغرب تدخّل هذه الحكومة في هذا الأمر لأنه، عدا ما يربطها بسورية من الجوار والنَّسب والدين واللغة، هي أيضًا من أعضاء جمعيّة الأمم ذوات الحقّ في السؤال عن دستورها. وماذا عسى الإنسان أن يصف وأن يعدِّد من أعمال

هؤلاء المعتدين علينا الذين اقتصّ الله منهم ومهما جازاهم فهو قليل:

يفنى الكلام ولا يحيط بوصفه   أيحيط ما يفنى بِما لا ينفد؟

وقد أراد الله أن يجعل أعمالهم هذه حسرات عليهم. فكلّ ما طبخوه من السمّ للقضيّة العربية لم يزد العرب إلاّ نشاطًا ومضاء،وما كانت عواصفهم إلاّ لتساعد سفين الأمّ العربية على السير إلى الأمام. وما يقال عن عرب المشرق يقال عن عرب المغرب الذي أقطاره الثلاثة، مراكش والجزائر وتونس، لا ترضى باستقلالها بديلاً رغم دعوى فرنسة الفارغة أنَّ مسلمي شمال أفريقيا محافظون على الولاء لفرنسة ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبًا ﴾ ـ خاضعون لها من قلوبهم.

مَن شاء أن يعرف مقدار أفراح المسلمين في أنحاء شمال أفريقية بانهيار قاهرتهم فرنسة، فما عليه إلاّ أن يجوب هاتيك الأقطار ويشافه الناس بشرط أن لا يُساء الظنّ فيه بأنه جاسوس؛ لأنَّ جواسيس فرنسة في تلك الأرض أكثر من رمال الدهناء، يحصون على المسلمين الحركات والسكنات والأنفاس والنفثات. والجيوش الفرنسية لا تزال مرابطة في تلك الديار، والضغط الإفرنسي المعهود لم يتغيّر منه شيء، بل ازداد شدّة وشرّة لأجل إرهاب المسلمين وإقناعهم بأنَّ فرنسة ستكون وليّة أمرهم إلى الأبد، شاؤوا أم أبوا. وقد كانت فرنسة حكمت على ألوف بالحبس سنة أو سنتين، فمنهم من انتهت مدّة سجنهم ولكن لم يرضَ الفرنسيون بالإفراج عنهم. وكانت أبعدت كثيرًا من الزعماء القائمين بالحركة الوطنية، فلمّا انهارت انهيارها الخارق العادة هذا، ظنّ مَن لا يعرف فرنسة حقّ المعرفة أنها ستعدل عن غطرستها الأولى وتسمح لهم بالانصراف إلى أوطانهم. فخاب ظنّهم هذا وبقي علاّل الفاسي في منفاه بالغابون عند خطّ الاستواء، وبقي كثير من زملائه في منافيهم، ولم تسمح فرنسة لأحمد بلافريج بالرجوع إلى وطنه الرباط.

وأغرب من هذا أنه عند انهيار فرنسة كان محمَّد بن الحسن الوزّاني في منفاه بالصحراء، فكتبت إليه الحكومة الفرنسية تسأله عن رأيه في مصير المغرب على أثر هزيمة فرنسة هذه. فأجابها بجواب لم نعرف فحواه، ولكنّنا استدللنا ممّا فعلته فرنسة أنه طلب

استقلال بلاده أو عرض على فرنسة المحالفة بدل الحماية، لهذا غضبت عليه غضبًا شديدًا ونقلته من منفاه الذي كان فيه إلى منفى آخر أقصى وأوحش وأوغل في البعد بمسافة خمسمائة كيلومتر. وكان أحد أعيان المغرب يتحدّث إلى جنرال فرنسي، فيظهر أنه قال له إنّ فرنسة ينبغي لها أن تطأ[1] من شدّتها بعد هذه الكسرة، فإذا بالجند قبضوا عليه حالاً وأُحيل إلى المحاكمة وحُكِمَ عليه بالحبس سنتين بحجّة أنه تفوّه بكلام يمسّ شرف فرنسة... هذه الأعمال وأشباهها تعملها فرنسة وهي حصيد، فكيف، يا ليت شعري، تعمل إذا كانت قائمة؟!

ولم يقدر المغاربة على إظهار سرورهم بنكبة فرنسة إلاّ في المنطقة التي تحميها إسبانية؛ فإنّ السرور هناك بلغ مبالغ فوق التصوّر، وهتف الجميع هتافًا ملأ الأفق: «ماتت فرنسا فليحيَ المغرب». واستمرّت أعيادهم هذه بهزيمة فرنسة عدّة أيام، ومواكبهم تطوف في الشوارع بالأعلام المغربية، لا يتخلّف عنها أحد، لا في تطوان، ولا في القصر الكبير، ولا في العرائش، ولا في غيرها، كما أنّ جرائدهم الناطقة بألسن أحزابهم كانت متّفقة على أنّ هزيمة فرنسة هي أعظم أمانيهم على الإطلاق. وأيّ فرق بين المغاربة الذين في هذه المنطقة الشمالية، وبين مغاربة المنطقة السلطانية، وبين مغاربة الجزائر وتونس، فكلّهم في الشعور واحد، إلاّ أنّ أهالي المنطقة الشمالية الخارجة عن حكم فرنسا استطاعوا أن يُظهِروا شعورهم بحذافيره، على حين أنّ الآخرين الواقعين تحت ذلك الحكم الجائر لم يستطيعوا أن يجهروا به، لأنّ كلمة قالها مغربي أمام قائد فرنسي بأنّ «فرنسة انكسرت» قضت عليه بالحبس سنتين بحجّة أنّ هذه الجملة تثلم شرف فرنسة! ولأنّ مكتوبًا من محمَّد بن الحسن الوزّاني أجاب به فرنسة عمّا يراه من مصير المغرب بعد الانهيار الإفرنسي، ورأوا منه أنّ هذا الزعيم الوطني لا يزال في وسط منفاه حريصًا على استقلال وطنه، كان السبب في تغريبه مسافة خمسمائة كيلومتر إلى داخل الصحراء زيادة على ما كان فيه.

وكلّ هذا لا يفيد فرنسة فتيلاً، ولا يغيّر من قلوب مسلمي شمالي أفريقية كثيرًا ولا قليلاً، بل هم اليوم أشدّ ما كانوا استمساكًا بحرّيتهم واستقلالهم، وأعظم شغفًا

---

(١) بمعنى أن تخفّف.

برفع النير الإفرنسي عنهم. وسنة ١٩٣١، يوم انعقد المؤتمر الإسلامي العام في القدس، ولم تسمح فرنسا أن يشهده أحد لا من الجزائر ولا من المغرب الأقصى ولا من تونس، كان السيِّد مكّي الناصري، صاحب جريدة «الوحدة المغربية» بتطوان، قد لحق بمصر، ومنها ذهب إلى هذا المؤتمر، وكان الشيخ عبد العزيز الثعالبي التونسي في مصر، فشهد هذا المؤتمر. وكان بعض علماء الجزائر أيضًا بمصر، فشهدوا هذا المؤتمر، وكان سيِّد من آل الكتّاني بالشام، فَشهِدَ هذا المؤتمر. ولمّا انتهى هذا المؤتمر من المباحثة في الشؤون الإسلامية العامّة، انفرد منه مندوبو البلاد العربية كلّها، عراقها ومصرها وشامها وحجازها ويمنها ونجدها ومغربها، وعقدوا مؤتمرًا على حدة قرّروا فيه أنَّ الأمّة العربية وحدة لا تتجزّأ، وأنَّ جميع هذه الممالك ـ وإن استولى الأجانب على بعضها بالقوّة القاهرة ـ فلا بدّ من إزالة هذه القوّة القاهرة في يوم من الأيام وإعادة الحقّ إلى نصابه، وأنَّ الأمّة العربية، التي تسكن بين خانقين (شرقي العراق)، وبين السوس الأقصى المغربي شرقًا إلى الغرب، ومن شواطئ البحر المتوسّط إلى أقاصي السودان المصري وبحيرة تشاد شمالاً إلى الجنوب، هي أمّة متكافلة متّحدة ووحدة غير منفصمة، هدفها الاستقلال التام تنشده بجميع الوسائل وعند سنوح جميع الفرص ولا تقبل الاستعمار.

وفي سنة ١٩٣٧ عقد العرب في سورية مؤتمر بلودان وشهده مئات من جميع الأصقاع، وفيهم النصارى كما فيهم المسلمون، وانتُخب رئيسًا أوّل السيِّد ناجي السويدي، رئيس وزارة العراق سابقًا، ممثِّلاً للعراقيين، ومحمَّد علي باشا علوبة، من وزراء مصر، نائبًا ثانيًا ممثِّلاً للمصريين، وانتخب هذا الفقير إلى ربّه رئيسًا ثالثًا، ومطران حماه للمسيحيين الأرثوذكسيين رئيسًا رابعًا، وانتخب المرحوم عبد الحميد سعيد، رئيس جمعية الشبّان المسلمين، ناموسًا عامًّا. وكان مؤتمرًا نَخَبَ قَلْبَ الاستعمار، وهدَّ عزائم الأجانب المناوئين لاستقلال العرب، وأحبط آمال اليهود الصهيونيين، ومنه ازداد ارتياع فرنسا لِما رأت فيه من اتّحاد الكلمة العربية على رفع السلطة الأجنبية عن العرب. وسنة ١٩٣٨، انعقد مؤتمر عربي كبير بمصر القاهرة وتمثّلت فيه جميع البلدان العربية، وشهده عدّة من أعضاء المسيحيين في مجلس نوّاب الجمهورية اللبنانية، وحضره كثير من

المغاربة والمصريين. ووفد عليه من تطوان السادة عبد الخالق الطريس والمكّي الناصري والطيّب بنونه، ممثّلين لأحزاب شمالي المغرب، وكان المدير لهذا المؤتمر محمَّد علي باشا علوبة، وزير المعارف ووزير الأوقاف بمصر سابقًا. وأراد الإنكليز في ذلك الوقت أن يمنعوا الحكومة المصرية من عقد هذا المؤتمر الذي خلع قلوبهم وقلوب اليهود جميعًا، ولكنّهم لم يستطيعوا منعه بشهامة الملك فاروق وحزمه وصرامته. ولم يكتفِ ـ حفظه الله وأدام تأييده ـ بمنع الدسيسة على عقد هذا المؤتمر، حتّى دعا إلى شرب الشاي في حضرته السنية جميع المندوبين القادمين إلى هذا المؤتمر العربي من الآفاق.

وفي السنة الماضية، انعقد مؤتمر عربي في مصر منعت الرقابة البريطانية، النافذة الأمر بحجّة الحرب، نشر أخباره في الصحف. ولكنَّ الإنكليز لم يتمكّنوا من منع عقده ولا من منع كثير من أعيان مصر من حضوره؛ ومن هؤلاء، عزيز باشا علي، رئيس أركان الحرب في الجيش المصري الذي حقدوا عليه لذلك وفرضوا على الحكومة المصرية عزله. وما أثّر ذلك شيئًا في عزائم العرب، وكان قرار هذا المؤتمر العربي الذي انعقد في أثناء هذه الحرب، المطالبة بجلاء الأجانب، سواء كانوا إنكليزًا أو فرنسيسًا أو طليانًا أو ألمانًا، أو غيرهم، عن كلّ بلاد عربية، والكون بين الفريقَين المتحاربين مع الفريق الذي يعرف حقوق العرب ولا يعبث باستقلالهم. ولا وجه لاعتراض مَن يعترض على إصدار قرارات لا يمكن تنفيذها. فلو كان كلّ قرار أمّة أو جماعة في الدنيا لا يجوز أن يصدر إلاّ إذا أمكن تنفيذه حال صدوره، لبطُلت الحركة في كلّ مشروع. وهذان الفريقان المتحاربان يقرّر كلّ منهما قرارات ضدّ عدوّه ولا يقدر على تنفيذها لوقتها، ولكنَّه يحاول تنفيذها ويرجو بعمله أن يتوفَّق إلى تنفيذها. وعندما عقد الأتراك في أنقرة ميثاقهم المسمّى "بالميثاق الملّي" لم يكونوا قادرين على تنفيذه، وكانت حكومتهم في أنقرة غير معترَف بها. فما زالوا يجاهدون حتّى أنفذوا ميثاقهم الملّي وحملوا أعداءهم على الاعتراف بحكومتهم، بل على التقرّب إليها.

ومفكّرو الأمّة العربية عاقدون العزائم على عقد مؤتمر عربي عام، ولكنَّ الاحتلال

الأجنبي الحاضر لمصر وفلسطين وسورية، والاحتجاج بحالة الحرب، مانعان حرّية الكلام التي لا بدّ منها في مؤتمرات كهذه. وقد يقال لماذا لا ينعقد في بغداد مثلاً؟ والجواب أنّ مؤتمرًا كهذا لا يخلو من قرارات صريحة موجّهة ضدّ إنكلترة، والحال أنّ الحكومة العراقية ـ وإن كانت مستقلّة، وكان جانب من جرائد العراق، الذي لم يقبل أن يشتريه الإنكليز يحمل علنًا على إنكلترا من أجل سياستها الفلسطينية ـ لا ننسى أنها مرتبطة بمحالفة مع إنكلترة لا تتحمّل حكومة العراق تبعة نقضها، فضلاً عن أنّ البحر الهندي والخليج الفارسي لا يزالان في يد إنكلترة التي تقدر أن تمنع الإدخال إلى العراق والإخراج منه. ومثل هذا يقال في شأن مملكتَي آل سعود وأئمّة اليمن. وما دام البحر في الشرق في قبضة إنكلترة، فالممالك العربية في حاجة إلى مداراتها. أمّا البلدان التي ليست فيها حرب ولا محاصرات بحرية ولا جيوش محتلّة ولا رقابات صحفية ولا بريدية، فهي تتمتّع بحرّية القول والكتابة، ويمكن جوالي[1] العرب أن يعقدوا مؤتمرًا ينادون فيه بحقوق العرب ويدعون إلى استقلال أوطانهم الواقع عليها الاعتداء. ونحن لا ندعو الجوالي العربية إلى التحيّز نحو فريق على فريق، وإنّما ندعوها أن تعلن الفريقَين من الآن أنّ العرب يحتفظون لأنفسهم بحقّ استقلال بلادهم؛ فصديقهم من دول أوروبا هو الذي يحترم استقلالهم، وعدوّهم هو الذي يعتدي عليها، وأنهم يطالبون بإعادة سورية ولبنان إلى أهلهما رأسًا، وإلغاء إنكلترة لوعد بلفور في فلسطين وتسليم إدارة فلسطين إلى أهلها، وذلك وفقًا لقرار المؤتمر الإسلامي في القدس، والمؤتمر العربي بمصر، ولقرار وفود الممالك العربية كلّها في المؤتمر الفلسطيني الذي عقدته إنكلترة سنة ١٩٣٨. هذا فضلاً عن المؤتمر السوري ـ الفلسطيني الذي عقدناه في جنيف سنة ١٩٢١ وأبلغنا قراراته الاستقلالية إلى جمعيّة الأمم.

هذا، وقد سألني بعض الإخوان، هل أنا متفاهم مع غيري من أهل الحلّ والعقد على مشروع المؤتمر العربي في المهجر؟ فأجيبهم بأنّ الناس لا يختلفون في الأمور البديهية،

---

(١) جاليات.

وأنَّ مطالبة العرب باستقلالهم في وقت كهذا الوقت، تتقرّر فيه مصاير الأمم ويُعدُّ الساكت فيه نازلاً عن حقّه، هي من الأمور البديهية التي لا جدال فيها. وعلى الرغم من هذا، فأنا على اتّصال دائم وتفاهم تامٍّ مع مَن يعنيهم هذا الأمر؛ وإلى الله ترجع الأمور.

شكيب أرسلان

جنيف، ٢ كانون الثاني سنة ١٩٤١

فهرست المحتويات



١٨٦٩ _ ١٩٤٦

قليل من القرّاء يعرف الأعمال اليومية لكاتب الدهر ومفخرة الشرق العربي عطوفة الأمير شكيب أرسلان، وأقلّ منهم مَن يعرف صادراته ووارداته وثروته ونفقاته الخصوصية والعمومية، ولكن أكثرهم يعرف جهاده في سبيل الأمّة العربية ويلمسه لمس اليد.

لقد كتبنا إلى أحد أصدقاء الأمير المطّلعين اطّلاعًا وافيًا على سيرة هذا الجهبذ الفذّ، والذين عاشروه وشاهدوا أعماله الخصوصية والعمومية ولمسوا جدّه ونشاطه لمس اليد، وتجرّدوا للدفاع عن الحقيقة، وكانوا يرافقونه في كلّ حركاته وسكناته؛ فأرسل إلينا هذا الكتاب الضليع "مسطرة" من أعمال عطوفة الأمير الجليل وصورة مصغّرة من جهاده الذي لو شاء الكاتب أن يأتي عليه، لاحتاج إلى مجلّدات ضخمة.

ولمّا كانت الكلمة التي ننشرها الآن هي من المقالات النفيسة جدًّا، والتي تلذّ القارئ لما فيها من حقائق راهنة عن جهاد رجل الأمّة العربية الأمير شكيب أرسلان، إنّنا نجعلها في مقدّمة هذا الكتاب، ونلفت أنظار القرّاء ليطالعوها حرفًا حرفًا، وليصلوا بواسطتها إلى سرّ هذا الكنز الثمين الذي لم تعرف الأمّة العربية أن تستثمره، ولم تقدّر إلى الآن قيمته النادرة.